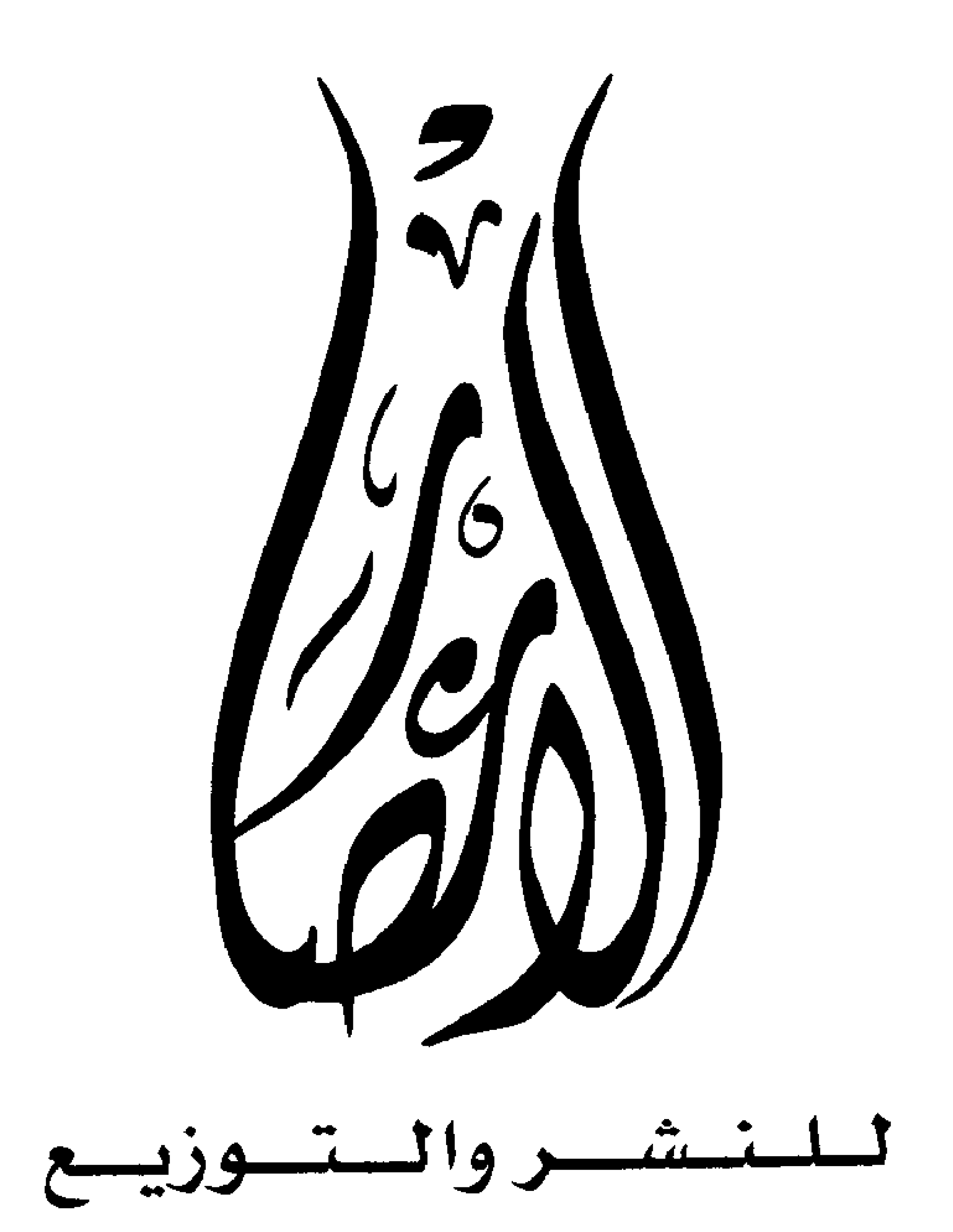
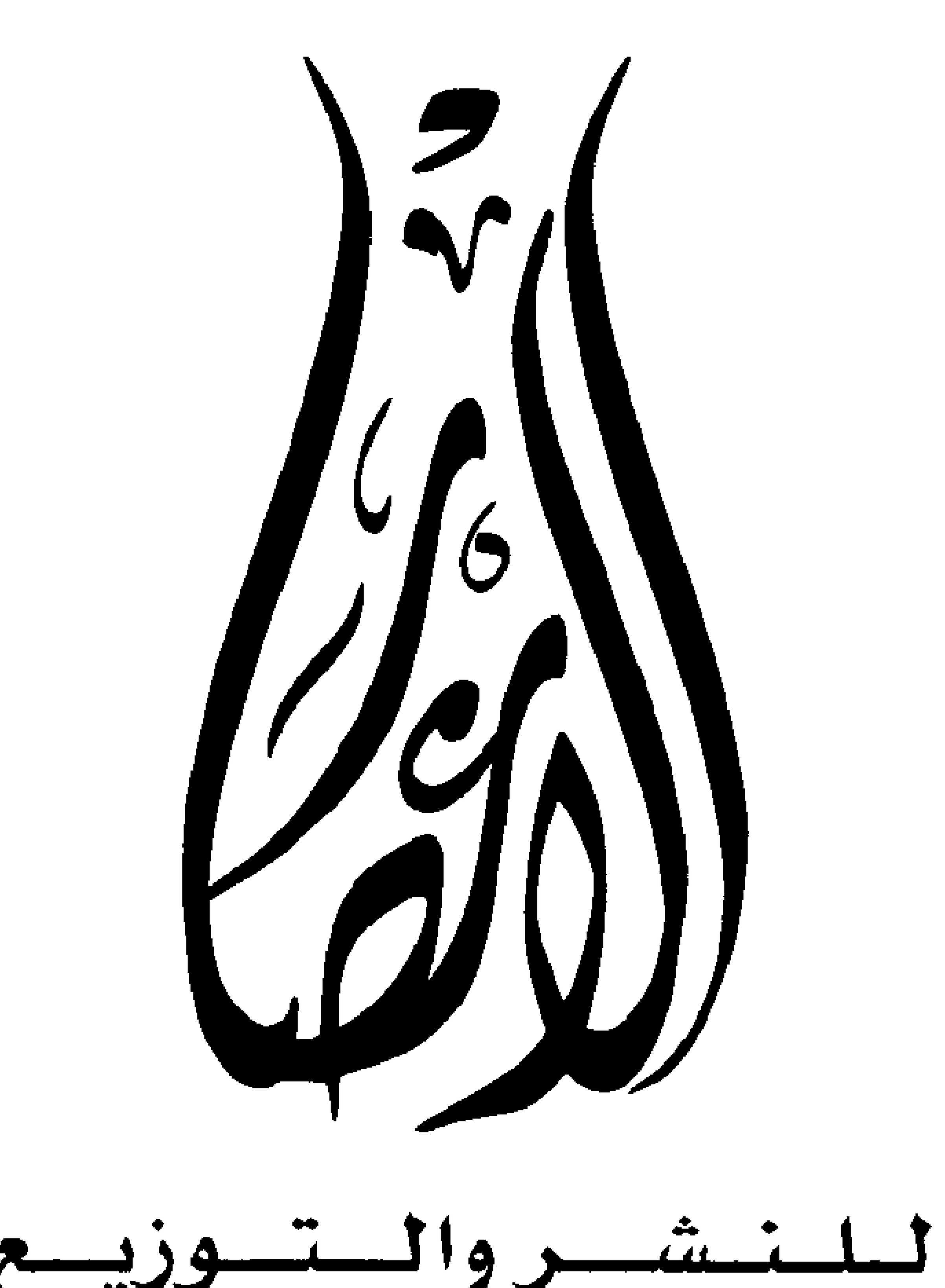
يوسف بن تاشفين

والأندلس

الدكتـــور
محي الدين عبد حسين عرار
جامعة القدس - القدس




للنشر والتوزيع


للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

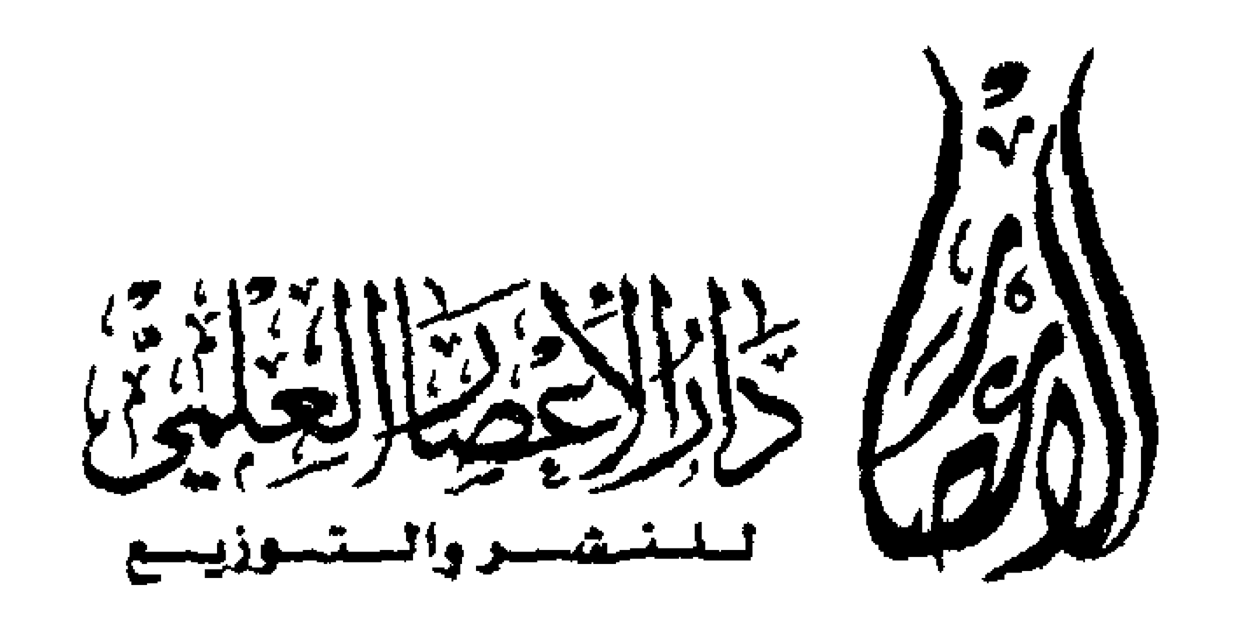
وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ
مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ
فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ
ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا

يوسف بن تاشفين
والأندلس

يوسف بن تاشفين والأندلس

الدكتور
محي الدين عبد حسين عرار
جامعة القدس- القدس

الطبعة الأولى
2016م- 1437هـ



رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2014/9/4215)

956.065

عرار، محي الدين عبدحسين

يوسف بن تاشفين والأندلس / محي الدين عبدحسين عرار.-

عمان: دار الإعصار العلمي للنشر والتوزيع، 2014

(   ) ص

ر.إ. : 2014/9/4215

الواصفات: /الأندلس//التاريخ الإسلامي/

• يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

جميع حقوق الطبع محفوظة

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر

عمان – الأردن

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher .

الطبعة العربية الأولى

2016م-1437هـ



الأردن – عمان – وسط البلد – شارع الملك حسين – مجمع الفحيص التجاري

هاتف: 96264646208+ فاكس: 96264646470+

الأردن – عمان- مرج الحمام – شارع الكنيسة – مقابل كلية القدس

هاتف: 96265713906+ فاكس: 96265713907+

جوال: 797896091 – 00962

info@al-esar.com – www.al-esar.com



ISBN 978-9957-98-057-3 (ردمك)

الإهداء

إلى زوجتي.................العزيزة

إلى أبنائي وبناتي...........الأعزاء

المحتويات

الموضوع	الصفحة

الفصل الثالث

يوسف بن تاشفين والأندلس بعد معركة الزلاقة

الموضوع	الصفحة

الفصل الرابع

الأعوام الأخيرة من حكم يوسف بن تاشفين

المقدمة

يقدم إلينا تاريخ الأندلس في مراحله الأولى صفحات باهرات من ضروب المجد الحربي والسياسي، وآيات ساطعات من ضروب التمدن والعرفان، ولكنه يقدم إلينا في مراحله الأخيرة صفحات مشجية مؤثرة من تقلب الحدود، وتعاقب المحن، والانحدار البطيء المؤلم، إلى معترك الهزيمة والذلة والسقوط.

ولا تمثل قصة الأندلس سوى الحقيقة التاريخية الخالدة، وليس مجرى التاريخ سوى تعاقب الأجيال والأمم، وتبدل الحضارات والدول، ولكن الصراع الطويل المضطرم، الذي خاضته الأمة الإسلامية في الأندلس، قبل أن تستسلم إلى قدرها المحتوم، يبدو فضلا عما يحف به من ألوان البطولة الخالدة، صفحة رائعة من الاستشهاد المؤثر، قلما يقدمه إلينا تاريخ أمة من الأمم، التي اشتهرت بالذود عن حياتها وحرياتها.

وقد سقطت قواعد الأندلس الشهيرة، في سلسلة من المعارك الطاحنة التي تقلبت فيها الأمة الأندلسية منذ انهار صرح الخلافة الأموية في الأندلس، في أواخر القرن الرابع الهجري، وقامت دول الطوائف الصغيرة المفككة على أنقاض دولة عظيمة شامخة، وكان سقوط كل قاعدة من هذه القواعد الشهيرة التي كانت تسطع بمجتمعاتها وحضارتها الزاهرة خلال حَلك العصور الوسطى، يمثل ضربة مميتة للدولة الإسلامية في الشرق والغرب، وينتزع من وحي النثر والنظم أروع المراثي، وكانت الأمة الأندلسية كلما سقطت قاعدة من قواعدها الشهيرة في يد عدوتها القديمة المتربصة بها-أسبانيا النصرانية-ألفت عزاءها في قواعدها الأخرى وهرع معظم السكان المسلمين إلى تلك القواعد الإسلامية الباقية، استبقاء لحرياتهم ودينهم وكرامتهم، حتى لم يبق من تلك القواعد الشهيرة سوى غرناطة وأعمالها، تؤلف مملكة صغيرة، ولكن أبية ساطعة، استطاعت عبقرية بُناتها النصريين أن تسير بها خلال العاصفة أكثر من مائتي عام.

والحقيقة أن مصير الأندلس كان يهتز في يد القدر، مُذ فشلت ريح دول الطوائف، وغلب عليها الخلاف والتفرق، وانحدرت إلى معترك الحرب الأهلية، تُفسح لعدوها الخَطِر مجال التفوق عليها، والضرب والتفريق بينها، بل لقد لاح مدى لحظة حينما سقطت طليطلة أول قاعدة إسلامية كبيرة في يد أسبانيا النصرانية في سنة 1085/478 أن الأندلس أضحت على وشك الفناء، وأن دول الطوائف المنهوكة الممزقة سوف تسقط تباعا في يد عدوها القوي، وأن دولة الإسلام في أسبانيا سوف تطوى وتختم حياتها المجيدة في شبه الجزيرة، وقد ساد الفزع والتوجس يومئذ جنبات الأندلس كلها.

وفي تلك الأثناء ظهر مؤسس الدولة المرابطية، الأمير يوسف بن تاشفين الذي سَطع نوره في المغرب والأندلس لينقذها من خطر داهم ولو لمدى قصير.

ويوسف بن تاشفين أحد أولئك الرجال الأفذاذ الذين يبدو أن القدر قد اصطفاهم لتغيير وجهة سير الحوادث في التاريخ، فهو الذي جعل أفريقيا الممزقة شر مُمزق، مملكة عظيمة موحدة، وهو الذي بثّ بما استحدث من نظم وأساليب روحا قوية في القبائل والشعوب التي يحكمها.

ولقد، أبدى يوسف بن تاشفين في إخضاع الأندلس لسلطانه كثيراً من الدهاء والعنف، وأبدى قسوة في معاملة الأمراء، بيد أنه لما كان أولئك الأمراء هم الذين أحدثوا بإثارتهم ما كان يعانيه مسلمو الأندلس من سوء الحال فان جمهرة الأمم الإسلامية لم تر في يوسف بن تاشفين فاتحاً مُتغلباً، بل رأت فيه منقذاً واعتبرته يد القدر في معاقبة الأمراء الباغين.

هذا هو يوسف بن تاشفين، إنه الرجل الصحراوي، المتصف بالذكاء، وقوة الإيمان، الإنسان المتواضع، المُجد في العمل وفي تطبيق القانون والشريعة الإسلامية، المهتم بالعلم والعلماء، إنه المجاهد الذي أنشأ دولة المرابطين، وأسس لها عاصمة جديدة هي مدينة مراكش، وهو الذي لبى نداء الجهاد فهب لنصرة إخوانه في الأندلس.

ومن هنا فإنني قد أُعجبت بشخصية يوسف بن تاشفين، مما شَدّني ودفعني لكتابة بحث يعطي الرجل حقه ويضعه في الموضع الصحيح دون تجاوز، وِفق نظرة علمية تعتمد الأصول حَكَماً.

ويتكون هذا البحث من أربعة فصول وخاتمة وفهارس:

وقد خُصّص الفصل الأول للحديث عن سيرة يوسف بن تاشفين مُستعرضاً نسبه ولقبه ونشأته وصِفاته.

أما الفصل الثاني فقد تناول الحديث عن أول تدخل ليوسف بن تاشفين في الأندلس مركزاً على أحوال ملوك الطوائف واستنجاد هؤلاء الملوك بيوسف ابن تاشفين، إضافة إلى معركة الزلاقة وما ترتب عليها من نتائج.

وبالنسبة للفصل الثالث فقد خصص للحديث عن عبور يوسف ابن تاشفين للأندلس واستيلائه عليها.

وتناول الفصل الرابع الحديث عن الأعوام الأخيرة ليوسف بن تاشفين مع التركيز على علاقة يوسف بالعباسيين، وتنظيمه لبلاده، وولاية عهده، إضافة إلى وفاته ومكان دفنه.

وأما الخاتمة فقد ضَمّنتها زُبدة الموضوع، والأفكار الجديدة التي وردت فيه.

أما بالنسبة لخطتي في البحث، فقد اعتمدت أحياناً على سرد الحقائق مُراعياً التسلسل الزمني في سردها، ومن ناحية أخرى فقد اعتمدت على القواسم المشتركة بين النصوص المختلفة التي أوردها المؤرخون، محاولاً الوصول إلى الحقيقة، مُعتمداً في ذلك على المصادر والمراجع القديمة والحديثة التي لها صلة بالموضوع من قريب أو بعيد، ولم أَترك شيئًا وقعت عليه يَديّ إلا واطّلعت عليه أثناء بحثي وتنقيبي في مختلف المكتبات عن المعلومات التي دعمت البحث وخدمته.

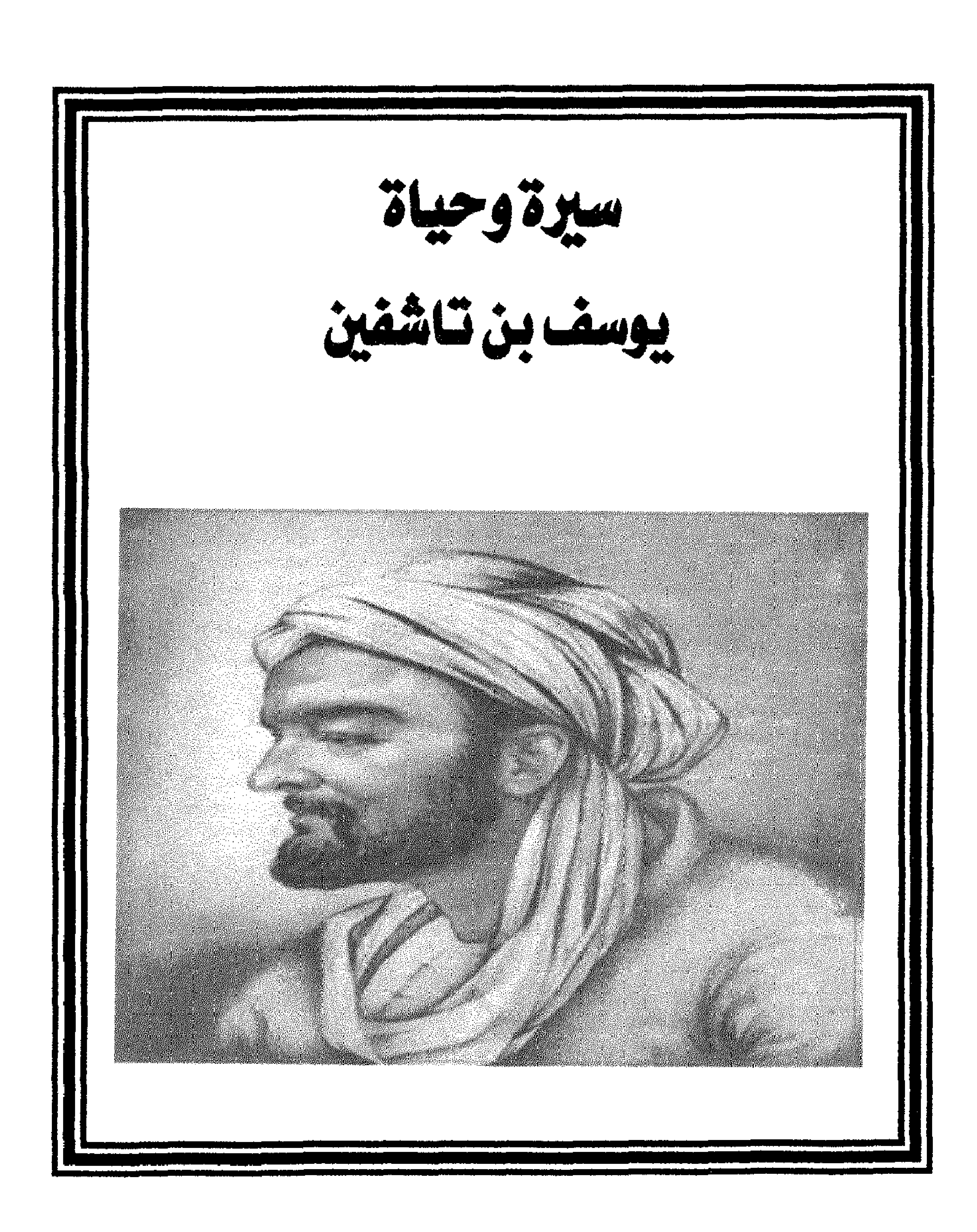
وقد قَصدت من هذه الدراسة الإيضاح من جهة، والتّحديد من جهة أخرى، كنت أجمع ما بين الروايات، وأُقابل بعضها ببعض، أضمّ بَعضها إلى بعض، وكنت أحاول أن أُبلور الكثير من الآراء المتناثرة والفروع المتباعدة، وكنت أتتبع الروايات، وأُسلسل الأحداث، حتى يكون من ذلك كله بين يدي القارئ حين ينتهي من قراءة الرسالة صورة واضحة عن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وما تمكّنت منه، وما ارتددت عنه، وكيف تَغَلّبت على ناحية، وغُلبت في أخرى، وكيف انتهى بي الأمر إلى الغلبة والاستقرار.

وبعد، فإن هذه الدراسة تطمح أن تكون إسهاماً متواضعاً في الكتابات التاريخية عن شخصية إسلامية كان لها دور بارز في المجتمع الإسلامي، وأن تكون قد أضافت شيئاً ذا قيمة إلى قائمة هذه الكتابات، لا من حيث الكم وإنما من حيث الكيف والنوع.

محيي الدين عبد عبد الله

الفصل الأول

سيرة وحياة
يوسف بن تاشفين



الفصل الأول

سيرة وحياة يوسف بن تاشفين

1. شخصية يوسف بن تاشفين

أ) نسبه ولقبه.

ب) مولده وأصله

2. نشأة يوسف بن تاشفين

أ) دوره في ظهور حركة المرابطين في المغرب.

ب) بناء مدينة مراكش.

ج) كفاءته العسكرية في قيادة الجيش

د) يوسف بن تاشفين أميراً للمسلمين

3. صفات يوسف بن تاشفين

الفصل الأول

سيرة وحياة يوسف بن تاشفين

1. شخصية يوسف بن تاشفين.

أ) نسبه ولقبه

هو يوسف بن تاشفين بن إبراهيم[1] بن تومرت بن وريا بطن بن منصور[2] المصالي[3] بن أمية وايامى[4] الصنهاجي اللمتوني[5] الحميري[6] أبو يعقوب أمير المسلمين[7] وملك الملثمين[8].

ب) مولده وأصله

ولد يوسف بن تاشفين في صحراء المغرب سنة 410 هـ[9]، وهو بربري ينتمي إلى قبيلة لمتونة من بطون صنهاجة إحدى قبائل البرانس وأعظم القبائل البربرية في ذلك العصر عدداً وعصبية وجاهاً[10].

---

(1) ابن عذارى، البيان المغرب، 64/4.
(2) ابن الخطيب، الإحاطة، 347/4.
(3) الزركلي، الأعلام، 222/8.
(4) ابن الخطيب، م.س. ، 347/4.
(5) الزركلي، م.س، 222/8.
(6) عنان، تراجم إسلامية، ص 225.
(7) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 112/7.
(8) ابن العماد، شذرات الذهب، 412/3.
(9) الزركلي، م.س. ، 222/8.
(10) عنان، م.س. ، ص 225.

2. نشأة يوسف بن تاشفين

أ) دوره في ظهور حركة المرابطين في المغرب:

نبعت حركة المرابطين في المغرب الأوسط، وجعلت شعارها نشر الإسلام والدفاع عنه عن طريق التبشير به بين الوثنيين، كما جعلت شعارها المرابطة في الثغور للدفاع عن الإسلام.

ومن هنا أتى المرابطين، وقد كان لروادها الأوائل فضل كبير في نشر الإسلام بين القبائل الوثنية جنوبي الصحراء الجزائرية، كما كان لهم فضل الدفاع عن الإسلام وحماية المسلمين، وقد برز من زعمائها الأوائل يوسف ابن تاشفين الذي تمكن من رأب الصدع في الحركة المرابطية وأن يعيد توحيد المرابطين تحت قيادته، وأن يسير في بناء الدولة المرابطية إلى الغاية المنشودة، وهي نشر الإسلام والدفاع عنه، وتأسيس دولة قوية تضم القسم الأكبر من شمالي أفريقيا، مع التوسع نحو الجنوب والجنوب الغربي والجنوب الشرقي.

وقد تهيأت الظروف ليصبح يوسف بن تاشفين أميراً للمرابطين، إذ لعب دوراً كبيراً في ظهور الحركة المرابطية في المغرب وتثبيت أقدامها هناك، فعندما توفي عبد الله بن ياسين[1] فقيه هذه الحركة تولى زعامتها وقيادتها أبو بكر ابن عمر الذي اختار يوسف بن تاشفين ليكون أحد قادة جيشه، ومن هنا بدأ اسم يوسف بن تاشفين يلمع في التاريخ.

وبعد أن استقل أبو بكر بالزعامة والحكم توجه إلى الصحراء لفض نزاع بين قبيلتي لمتونة وكدالة[2]، وترك يوسف بن تاشفين نائباً له في المغرب لما امتاز به من فضل وشجاعة، وترك عنده ثلث الجيش ورحل بالملثمين في شهر ذي القعدة 453/ ديسمبر 1061[3]. وتنازل له عن زوجته الحسناء زينب بنت اسحق النفزاوية

---

(1) عبد الله ياسين بن مكو الجزولي المصمودي، الزعيم الأول للمرابطين، وصاحب الدعوة الإصلاحية فيهم، قتل سنة 451هـ على يد مجوس برغواطه.(انظر الزركلي، الأعلام، 144/4).

(2) حومد، محنة العرب، ص 117.

(3) ابن عذارى، البيان المغرب، 112/4.

بعد أن طلّقها حتى لا تشاطره خشونة الصحراء، فتزوجها يوسف بن تاشفين فيما بعد[1].

ومن خلال مدة حكمه كنائب أو سلطان قام يوسف بن تاشفين بتدعيم دولته الناشئة وتنظيم شؤونها وإخراجها إلى حد كبير من طور البداوة التي كانت تعيش فيه[2].

وقد اخذ يوسف بن تاشفين يتابع جهاده للمخالفين لدعوة عبد الله بن ياسين، فوجه أربعة جيوش لقتالهم وسار هو من خلفهم كرديف للنجدة في اللحظة الحاسمة، فغزا قبائل المغرب قبيلة قبيلة حتى أخضعها، وفي جمادي الثاني 18/462 مارس 1070 توج انتصاره بفتح فاس النهائي، وبذلك يكون قد فتح جميع بلاد المغرب الأقصى ما عدا سبتة وطنجة[3].

وبعد هذه الانتصارات التي حققها يوسف بن تاشفين أخذ بالانفراد بالسلطة أو على الأقل التمسك بما وصل إليه، وهذا ما اتضح من اتصالاته ببعض إخوانه وطلبه منهم القدوم إليه واعداً إياهم بالمال والسلطة، فهرع إليه جمع منهم، وكل ذلك يحدث خفية عن القائد الأعلى أبي بكر بن عمر، إلا أن يوسف بن تاشفين على الرغم من عِظَم سلطانه كان على اتصال بأبي بكر في الصحراء يخبره عن انتصاراته، فكان يتقبل ذلك بالسرور والشكر[4].

ولما قضى أبو بكر بن عمر على الفتنة التي نشبت في الصحراء عاد إلى مراكش ليجد الأمور قد تغيرت عما كانت عليه، وأن يوسف قد أصبح يتمتع بمكانة عظيمة بين جنده ورعيته، وأنه أحاط نفسه بحاشية تشبه حاشية الملوك

---

(1) A.Bel.Encyclopedie de Esl.p.318

(2) العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص 328.

(3) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 138، 234.ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 138-139.ابن عذارى، البيان المغرب، ص 28/4.الصفدي، رزق الله، تاريخ دول الإسلام، 49/2-51.

(4) ابن عذارى، م.س.، 22/4-23. ، ابن الخطيب، م.س.، ص 332-333.

العظام، عندها أدرك أن الأمور خرجت من يده، فخاطب يوسف بن تاشفين من أجل التنازل رسمياً عن السلطة وقال له"يا يوسف اتق الله في المسلمين ولا تضيع شيئاً من امورهم، فإنك مسؤول عنهم والله خليفتي عليك وعليهم". وخلع نفسه في جمع من أشياخ لمتونة، واشهد بذلك العدول، وأعيان القبائل، وبالمقابل قطع يوسف على نفسه ألا يقطع أمراً دونه، واعلم يوسف القبائل بذلك فبايعوه وقدّموه[1].

ثم رحل أبو بكر بن عمر عام 1073/465 مُحملاً بالهدايا، وبقي هناك حتى استشهد في شعبا عام 480 هـ[2]. وهنا تختلف الروايات في مصيره، فيقول معظم المؤرخين أنه لبث يحارب قبائل السود المجاورة حتى توفي، ويقول بعضه الآخر أنه عكف على الأُهبة للحرب، لأنه لم يستكن إلى فقد سلطانه وأنه سار إلى محاربة يوسف، ونشبت بينهما معركة هُزم فيها أبو بكر، وأن الظافر لم يشعر نحو المحسن إليه بشيء من العرفان فأمر بإعدامه[3].

والمرجح في ذلك أن أبا بكر بن عمر توفي في الصحراء وليس على يد يوسف بن تاشفين، إذْ أن السلطة الاسمية ظلت لأبي بكر حتى تاريخ استشهاده، وخير شاهد على ذلك أن النقود بقيت تضرب باسمه حتى التاريخ المذكور بصفته حاكماً للمرابطين.

وبعد أن أصبح يوسف بن تاشفين سيد المغرب بصورة شرعية بعد تنازل أبي بكر، اخذ يتابع جهاده من اجل استكمال توحيد ارض المغرب تحت سيادته حتى تمكن من ذلك[4]. وسنرى كيف تم ذلك عند الحديث عن كفاءة يوسف بن تاشفين العسكرية وبعض الفتوحات التي قام بإنجازها، من خلال ذلك تمكن من تحويل حلم عبد الله بن ياسين إلى حقيقة، فتحررت قبائل صنهاجة وبلاد المغرب من البدع والخرافات، واخذوا ينهلون من منهل الإسلام الصافي تحت راية دولة

---

(1) ابن عذاري، م.، 2323/4. ، ابن الخطيب، م.س.، ص 332-333.ابن أبي زرع، م.س.، ص 142.غوتيه، ماضي شمال أفريقيا، ص 282. ، عنان، دول الطوائف، ص 300.

(2) A.Bel.Encyclopedie de Isl.V.1.p.319.

(3) أشباح، تاريخ الأندلس، ص 66-67.

(4) الشنتيري، الذخيرة، 663/2-664. ، حركات، المغرب عبر التاريخ، 173/1-174.

تمتد حدودها من تونس شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً ومن البحر المتوسط شمالاً حتى حدود السودان جنوباً، ينتشر في ربوعها الطمأنينة والسكينة بفضل السياسة الحكيمة التي انتهجها يوسف بن تاشفين[1].

واستطاع يوسف بن تاشفين أن يقضي على كل محاولة تمرد ضد سلطته، فقضى على تمرد أهل الجنوب عام 1072/464 . وأحبط محاولة تمرد إبراهيم بن أبي بكر[2] في عام 1076/469 . الذي جاء مطالباً بملك أبيه، وأحبط أيضاً مؤامرة قامت ضده في مدينة فاس[3]، ولجأ إلى أسلوب الدسيسة ضد من لم يستطع القضاء عليه مباشرة كما فعل مع سيد قبيلة كزولة ومالك جبلها محمد بن إبراهيم، محاولاً قتله عن طريق الحجام، وعن طريق دس السم له، ولكنه نجا من هذه المحاولات[4].

وقد حظي الجيش من يوسف بن تاشفين برعاية خاصة، ومن أجل المحافظة على قوة دولته، لأن دولة بسعة دولته لا بد لها من جيش قوي يحمي ذمارها، ويقارع أعداءها، لذا فقد عمل على زيادة أفراد جيشه من الأغزاز[5] والروم والرماة[6]، فقام بشراء ألفين من العبيد والسودان ومائتين وأربعين فارساً من الأعلاج[7] ابتيعت له من الأندلس وأركب الجميع من الجيش[8]. وحتى يحافظ على فتوحاته اضطر إلى بناء معسكرات خاصة لحمايتها فأنشأ عدة مدن لهذا الغرض. فعندما فتح المرابطون سجلماسة[9]. أسسوا مدينة تبليلا وأُنشئت مدينة

---

(1) عنان، دول الطوائف، ص 298-302.

(2) إبراهيم بن أبي بكر التوني الصالحي، فرضي حنبلي، نسبه إلى"تونه" جزيرة قرب دمياط، له"مجمع الطرقات في بيان قسمة التركات" بخطه سنة 1092 في الأزهرية.(انظر الزركلي، الأعلام، 33/1).

(3) ابن عذارى، البيان المغرب، 22/4-30. ، ابن خاقان، قلائد العقيان، ص 231-232.

(4) ابن الأثير، الكامل، 178/10-179.

(5) هم جنس من الترك عملوا في جيوش المرابطين والموحدين والمرينيين.(انظر ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 139، حاشية رقم 80).

(6) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 235. ، ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 139.

(7) العلج، الرجل الغليظ. وقيل: هو كل ذي لحية. والجمع أعلاج. انظر لسان العرب 326/2.

(8) ابن عذارى، البيان المغرب، 23/4.

(9) مدينة في جنوب المغرب في مقطع جبل درن، وسكانها من أغنى الناس لوقوعها على طريق غانة بلد الذهب، ويعود تأسيسها إلى عام 140 هـ على يد مدار بن عبد الله.(انظر، الحميري، الروض المعطار، ص 305-306).

مراكش في قلب المصامدة لتكون معسكرا يحشد فيه الجند للتصدي لهم إذا حدثتهم أنفسهم بالثورة، كما بنيت تلمسان قلعة حصينة تحرس الزناتيين، وتقف لهم بالمرصاد، وكانت كل قلعة تشحن بالأقوات والسلاح، والمقاتلة حتى تكون مستعدة لمواجهة أي طارئ يهدد أمن الدولة[1].

ولم يغفل يوسف بن تاشفين عن الأسطول، فأنشأ أسطولاً أثبت جدارته في حصار سبتة[2]. واشتهر هذا الأسطول في عهد علي بن يوسف حتى أصبح هو المسيطر في مياه البحر الأبيض المتوسط.

وعلى الرغم من هذا الجهد المضني الذي بذله يوسف بن تاشفين في مجال الحرب والاهتمام بالجيش، لم يغفل عن العمارة فشجعها، وأقام عدة مُنشئات منها حصن مقر الحجر بمراكش[3]. واهتم بشكل خاص ببناء المساجد.

وربما يعود ذلك إلى إدراكه لأهميتها في إعداد الأفراد إعداداً سليماً ينزع لهم عن كل ما هو مُخِلّ بالأخلاق، وهذا ليس غريباً على رجل تخرج من مدرسة عبد الله بن ياسين، الذي غرس في نفسه حب الإسلام والعمل له، فعندما دخل مدينة فاس عام 1070/462 أمر ببناء المساجد في أحوازها وأزقتها وشوارعها، وأي زقاق لم يجد فيه مسجداً عاقب أهله، وأمرهم ببناء مسجد فيه،وكذلك أسس المساجدفي جزائر فرغنة[4]. وندرومة[5]، وتاكرارت[6]. وقام بتشييد جامع مراكش[7]. وأمر بعمل منبر للمسجد الجامع بالجزائر كان آية في الزخرفة

---

(1) حسن، محمود، قام دولة المرابطين، ص 228-229.

(2) الشنتيري، الذخيرة، 663/2-664. ابن خلكان، وفيات الأعيان، 113/7-114.

(3) مجهول، الحلل الموشية، ص 25.

(4) مدينة جبلية البنيان تقصدها السفن من أفريقيا، والأندلس، وهي على ضفة البحر بين أفريقيا والمغرب.(انظر ياقوت، معجم البلدان 132/2).

(5) في الأصل اسم قبيلة من قبائل جذم كومية، تقع شمال غرب تلمسان، (أنظر: البيذق، أخبار المهدي بن تومرت، ص 65 حاشية رقم 117).

(6) قلعة حصينة بينها وبين تلمسان مسيرة يوم.(أنظر، الحميري، الروض المعطار، ص 129).

(7) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 141-142. سالم السيد عبد العزيز، المغرب الكبير، 749/2.

والجمال[1]. وزاد في عام 1091/484 في مسجد سبتة، وأمر ببناء سور الميناء السفلى فيها[2].

وشجع أيضاً بناء الفنادق والأرحاء، والأسواق في جميع أرجاء بلاده، على أن أهم عمل معماري قام به هو اختطاطه لعاصمة مُلكه[3] مراكش. كما سنرى عند الحديث عن بناء مدينة مراكش في هذا الفصل.

أما سياسته الاقتصادية فقد التزم فيها أحكام الشرع، فلم يفرض أي ضريبة غير شرعية طوال حياته[4]. واقتصر على الزكاة والأعشار، وجزية أهل الذمة، وأخماس غنائم المشركين[5]، وقام بتشجيع التجارة لفائدة رعاياه[6]. وبدّل يوسف بن تاشفين عام 1080/473 السّكة في جميع أعماله وكتب عليها اسمه[7]، وانشأ داراً للسكة في مدينة مراكش[8].

أما علاقته مع رعيته فقد اتخذ مختلف الوسائل من أجل كسب رضاها فكان يوزع خمس الغنائم على الفقهاء والعلماء في جميع جهات المغرب، وردّ أحكام البلاد إلى القضاة، واسقط ما دون الأحكام الشرعية.

وكان يقوم بتفقد أحوال رعيته في كل سنة، ويُجري الأرزاق على الفقهاء من بيت المال طوال أيام حياته[9]. لهذا كان المرابطون يُستقبلون في كل بلد يحلون فيه استقبال المنقذين[10].

---

(1) مورنيو مانويل، الفن الإسلامي في أسبانيا، ص 337.

(2) ابن عذارى، البيان المغرب، 144/4.

(3) سالم السيد عبد العزيز، م.س.، 517/2.

(4) ابن أبي دينار، المؤنس، ص 107.

(5) ابن أبي زرع، م.س.، ص 137. ابن القاضي، جذوة الاقتباس، 545/2.

(6) حموش، عبد الحق، ابن تاشفين، ص 46.

(7) ابن أبي زرع، م.س.، ص 137-143. ابن القاضي، م.س.، 245/2.

(8) العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص 328.

(9) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 137.

(10) حسن، محمود، قام دولة المرابطين، ص 209.

وحتى يضمن لنفسه طبقة موالية مخلصة، عمد إلى توزيع الأراضي الخصبة على قبائل الملثمين القادمة من الجنوب، وولى رجالاتها الأعمال، واتخذ من أقربائه ولاة على الأمصار المفتوحة[1].

ولكي يضفي على دولته وبلاطه الشكل الذي يليق بعظمتها، انشأ الدواوين واتخذ الأعلام المدبجة بالآيات القرآنية، وأحاط نفسه بطبقة من الحشم[2] والاتباع، ونظم مقابلاته، واستقبالاته عن طريق الحجاب[3]. ولم يلبث أن اتخذ لنفسه ألقاباً سلطانية فخمة مثل أمير المسلمين، وناصر الدين، وذلك من خلال مرسوم صدر عنه عام 1073/466 في أنحاء البلاد للخطبة بهذا الاسم[4]، وحتى يحيط حكمه بسياج شرعي دعا للخليفة العباسي الذي أرسل بدوره تقليداً ليوسف بحكم البلاد التي تحت يده، ومدافعة الأعداء[5]. وبذلك يكون يوسف بن تاشفين قد نجح في إقامة صرح دولة قوية ذات بلاط فخم ومؤسسات كثيرة ضمن وحدة سياسية قوية. وسوف أقوم بتفصيل هذا الأمر في الفصل الرابع عند الحديث عن علاقة يوسف بن تاشفين بالعباسين.

وقد ساس يوسف هذا الملك العريض الذي لم يجتمع لغيره من أهل المغرب قبله، بحكمة وسياسة دلت على ملكات إدارية وتنظيمية كبيرة فكان يختار للولايات والإمارات خيرة رجاله من أهل العدالة والدين من رجال القبائل الصنهاجية، ويضم إلى كل والٍ فقيهاً أو أكثر لكي تكون أحكام رجاله كلها متمشية مع الشريعة الإسلامية، ورفع عن أهل المدن والقبائل المغارم الثقيلة التي كان الزناتيون يجبونها، وكان يوصي رجاله بالعدل والرفق بالناس. وكانت له شخصية مهيبة فرضت نفسها على رجال القبائل الصنهاجية وأهمها في أيامه

---

(1) م.ن.

(2) مجهول، الحلل الموشية، ص 33.

(3) العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص 328-329.

(4) ابن عذارى، البيان المغرب، 27/4-28.، ابن خلكان، وفيات الأعيان ، 124/7-125.

(5) حسن، محمود، م.س.، ص 228-229.

لمتونة وجدالة ومسوفة وتليها في الأهمية والقوة لمطة وجزولة وبنو وارث ونارجا، وقد سرت روح الجهاد في سبيل الدين في نفوس أهل هذه القبائل كلها فغادر معظم الرجال القادرين على الحرب منازلهم في الصحراء وما يليها جنوباً وانضموا إلى جيوش المرابطين، إذ ان يوسف بن تاشفين كان رائداً في هذا المضمار[1].

وهكذا فقد تتوج توحيد المغرب في إطار حركة المرابطين التي تحولت إلى دولة بكل ما تعنيه هذه الكلمة بقيادة يوسف بن تاشفين وكان هذا الأخير نموذجاً لرجال الدعوة المرابطية، الممتلئين حماسة للجهاد الديني الذي جسده الفقيه ابن ياسين[2].

وهكذا أيضاً قامت دولة المرابطين الكبرى وأقامتها عبقرية رجل واحد هو يوسف بن تاشفين، بعد أن وضع أسسها الأولى فقيه متواضع هو عبد الله بن ياسين وتحولت بسرعة من زعامة دينية محلية إلى ملك سياسي ضخم.

ب) بناء مدينة مراكش

اختلفت المصادر حول بناء مدينة مراكش، نسبت بعض المصادر[3]. بناء هذه المدينة إلى الأمير أبي بكر بن عمر اللمتوني، بينما ذكرت المصادر[4] الأخرى بأن بانيها هو يوسف بن تاشفين.

---

(1) مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص 167-168.بوتشيش، إبراهيم القادري، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص 13.

(2) بيضون، الدولة العربية في أسبانيا، ص 337.

(3) مجهول، الحلل الموشية، ص 6، 13.

(4) الإدريسي، محبي السفر حول العالم، ص 232-235. ابن الأثير، الكامل، 622/9.، ابن خلكان، وفيات الأعيان، 114/7. ، ابن عذارى، البيان المغرب، 430/3. ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 89.، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 234.ابن خلدون، العبر، 378/6. الناصري، الاستقصا، ص 117.عنان، تراجم إسلامية، ص 227-228. ، الحميري، الروض المعطار، ص 540.

وتقول المصادر التي نسبت بناء مدينة مراكش إلى أبي بكر أنه بعد ان انتهى الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني من فتح بلاد المغرب الأقصى نزل مع إخوانه مدينة أغمات عاصمة الجنوب ليكون قريباً من موطنه الأصلي، وكانت هذه المدينة في الواقع عبارة عن مدينتين متقابلتين على سفح جبال الأطلس: أغمات ايلان، وأمات وريكة[1]. وكان بينهما خلاف لدرجة أن كل فريق كان يصلي في الجامع منفرداً، ثم توالت على الأمير أبو بكر الوفود والجيوش من الصحراء حتى ازدحمت مدينة أغمات بالوافدين، وضج أهلها بالشكوى، فقال لهم الأمير أبو بكر: "عينوا لنا موقعاً نبني فيه مدينة إنشاء الله". فأشاروا عليه أول الأمر بمكان على نهر تانسيفت[2]، فلم يعجبه هذا المكان خوفاً من تعرض النهر للفيضان وقال: "إننا قوم صحراويون لا نستطيع العيش بجوار الأنهار". وأخيراً أشاروا عليه بفحص مراكش، وقالوا له: "قد نظرنا لك أيها الأمير موضعاً صحراء رحب الساحة يليق بمقصدك، يكون وادي نفيس جنانها وبلاد دكالة فدانها، وزمام جبل درن[3] بيد أميرها". فعند ذلك ركب الأمير أبو بكر في جيوشه حتى بلغ سهل مراكش، وهو خَلاء لا أنيس به إلا الغزلان والنعام، ولا ينبت إلا السدر والحنظل، وكان ذلك سنة 1070/462. فانتقلوا إلى تلك الرحبة فوجدوا في فحصها من المسرح الخصيب للجمال والدواب فأثار غبطتهم. وافتتح الأمير أبو بكر عملية الإنشاء والتعمير ببناء قصر من الحجر أو دار الحجر وتبعه الناس في بناء البيوت.

---

(1) كانت أغمات ايلان تقع في شرق أغمات وريكة وبينهما عدة أميال. وقد نزل المرابطون ناحية أغمات وريكة، أما أغمات ايلان فكانت مدينة صغيرة يسكنها يهود تلك النواحي ولا سيما بعد بناء مدينة مراكش. فمن المعروف أن المرابطين منعوا اليهود من سكنى مراكش، فكانوا لا يدخلونها إلا نهاراً وينصرفون عنها عشية.(أنظر الإدريسي ، المغرب وارض السودان ومصر والأندلس، ص 69-70).

(2) نهر عظيم من انهار المغرب ينبع من جبال أطلس وتسقي مياهه حوز مراكش ويصب في المحيط الأطلسي بين آسفي والصويرة ويبلغ طوله 250 كم وهو ليس بالكبير ولكنه دائم الجري، وإذا كان زمن الشتاء حمل بسيل كبير لا يبقي ولا يذر أنظر الإدريسي، محبي السفر حول العالم، ص 235).

(3) جبل مشهور بالمغرب معترض الصحراء وفي أعلاه مجموعة قلاع وحصون تزيد على السبعين حصناً ويتفجر منه نهر نفيس، ووادي أغمات(أنظر الحميري، الروض المعطار، ص 234-235).

هـذه الروايـة السـابقة أوردهـا كـل مـن صـاحب الحلـل الموشـية[1] وابـن عذارى[2]وهي تنص كما هو واضح على أن تأسيس مدينة مراكش قد تم على يد الأمير أبي بكر بن عمر. ويكاد يجمع المؤرخون على أن يوسف بن تاشفين اختط مدينة مراكش ليأوي إليها بجنده، ولتكون حصناً له ولأرباب دولته[3].

وقد اختلفت المصادر حول تاريخ بناء المدينة، فيقول صاحب الحلل الموشية أن بناءها كان سنة 402 هـ[4]. ويذكر ابن عذارى أن بناءها كان في سنة 461 هـ[5]. أما غالبية المصادر[6]. فتذكر أن بناء المدينة كان سنة 454 ه[7]. في حين يذكر ياقوت أن يوسف بن تاشفين خططها في حدود سنة 470 هـ[8].

ومن هذه التواريخ المتعددة نستبعد تاريخ 402 هـ الذي حدده صاحب الحلل الموشية للشروع في بناء مدينة مراكش، لأنه تاريخ يسبق مبايعة المرابطين لأبي بكر بن عمر بالإمارة عليهم بنحو 25 عاما. وتاريخ 461 هـ الذي حدده ابن عذارى للشروع في بناء مراكش تاريخ غير معقول لأن يوسف بن تاشفين لم يشرع في فتح مدينة فاس وقلاع فازار إلا بعد أن أسس قاعدة له في الجنوب للسيطرة على جبل درن الذي يسكنه المصامدة[9]. كما نستبعد تاريخ سنة 470 هـ الذي حدده ياقوت لتخطيط المدينة فهو متأخر كثيرا. ويبقى لنا تاريخان هما سنتا 454 هـ و459 هـ، أما سنة 459 هـ فهو التاريخ الذي حدده صاحب الاستبصار لتأسيس المدينة، وينفرد به دون غيره. ونعتقد أن مراكش أسست على يدي يوسف بن تاشفين في سنة 454 هـ، أي في الفترة التي غادر فيها الأمير أبو بكر بن عمر أرض

---

(1) مجهول، الحلل الموشية، ص 5-6.

(2) ابن عذارى، البيان المغرب، 430/3.

(3) ابن الأثير ،الكامل، 622/9.، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 234، ابن خلدون، العبر 378/6. ابن خلكان، وفيات الأعيان، 114/7. ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 89. الإدريسي، محبي السفر حول العالم، ص232-235، الناصري،الاستقصا، ص 117.، عنان، تراجم إسلامية، ص 227-228.، الحميري، الروض المعطار، ص 540.

(4) مجهول، الحلل الموشية، ص 6.

(5) ابن عذارى، البيان المغرب، 430/3.

(6) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 234.، ابن خلدون، العبر، 378/6. ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 89.

(7) مجهول، الاستبصار، ص 208.

(8) ياقوت، معجم البلدان، 94/5.

(9) مجهول، الاستبصار، ص 209.، ابن خلدون، م.س.، 378/6.

المغرب إلى الصحراء، ولا شك في أن يوسف بن تاشفين هو الذي تولى بناءها، لأن أبا بكر بن عمر كان مشغولاً في هذا التاريخ بإزالة الخلافات القائمة بين قبائل صنهاجة، ولما عاد بعد أن فضها تماماً تخلى ليوسف عن الإمارة، ونعتقد أن بناء المدينة استغرق خمس سنوات، وأنه تم في حدود سنة 459 هـ التي ذكرها صاحب الاستبصار.

ويذكر ابن أبي زرع انه اشترى موقع مدينة مراكش من جماعة من المصامدة، فسكن الموقع بخيام من الشعر، وأسس مسجداً للصلاة، وقصبة صغيرة لخزن أمواله وسلاحه، لعلها القصر المعروف بقصر الحجر[1]. وعندما شرع في بناء المسجد كان يحتزم ويعمل في الطين والبناء بنفسه مع الخدم والفعلة تواضعاً منه وتورعاً، ولم يؤسس يوسف بن تاشفين حول المدينة سوراً، ويحدد ابن أبي زرع الموقع الذي كانت تشغله مراكش في عهد يوسف من مدينة مراكش التي كانت على أيامه بالموقع المعروف في عصره بسور الخير إلى الشمال من جامع الكُتبيين[2].

ويُذكر أن موقع مدينة مراكش كان مزرعة لأهل نفيس فاشتراه يوسف منه بماله الذي خرج به من الصحراء، وقيل أيضاً أن يوسف بن تاشفين اختط مدينة مراكش بموضع كان يسمى بذلك الاسم، ومعناه بلغة المصامدة" امش مسرعاً" وكان ذلك الموقع مكمناً للصوص فكان المارون فيه يقولون لرفقائهم تلك الكلمة فعرف بها.

ويقول الناصري: كان في موقعها قرية صغيرة في غابة من الشجر به قوم من البربر فاختطها يوسف وبنى فيها القصور والمساكن الأنيقة وهي في مرج فسيح وحولها على فراسخ منها وبالقرب منها جبل لا يزال عليه الثلج وهو الذي يَعدل مزاجها وحرها[3].

---

(1) مجهول، الحلل الموشية، ص 11.

(2) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 89.

(3) الناصري، الاستقصا، ص 107.

ويقول عبد الواحد المراكشي: أن مراكش كانت في مبدأ أمرها غيضة لا عمران فيها، وكانت مأوى للصوص، وربما سميت مراكش باسم عبد أسود يدعى"مراكش" استقر بها، أو لأنها كانت بمكان موحش مخيف[1].

وقيل أيضاً بان مراكش كانت في ارض صحراوية منخفضة، فحفر لها يوسف الآبار وجلب إليها المياه، ولم يكن يحيط بمراكش من الجبال سوى جبل صغير كانت تقطع منه الأحجار التي بنى علي بن يوسف بن تاشفين به قصره، أما عامة بناء مراكش فكان من الطوب واللبن[2].

وتذكر بعض المصادر أن يوسف بن تاشفين استقدم المهندس عبد الله ابن يوسف ليعمل على استخراج المياه من باطن الأرض من أجل ري الأراضي الزراعية فكثرت البساتين والجنان[3].

وطول مدينة مراكش أشفّ من ميل، وعرضها قرب ذلك، وعلى ثلاثة أميال منها يوجد نهر يسمى تانسيفت[4].

ج) كفاءته العسكرية في قيادة الجيش:

لقد بدت كفاءة يوسف بن تاشفين العسكرية تظهر من خلال الحملة التي قام بها إلى بلاد غمارة، ويفهم من كلام المؤرخين أن يوسف بن تاشفين قد تحاشى الاصطدام بالقوات الزناتية، وأنه دخل فاس صلحاً سنة 450 هـ وترك فيها حامية صغيرة، ثم تقدم صوب الشمال إلى بلاد غمارة، ففتح جبالها وبلادها من الريف إلى طنجة واستعان في مهاجمتها بحصون وقلاع أسسها في مواجهتها مثل حصن تاودا أو بني تودة وحصن امرجو، وقد أشاد المؤرخون بمناعة تلك الحصون وبالدور المهم الذي قامت به في فتح هذه البلاد وتطهيرها من الفساد المنتشر فيها، ومثال ذلك قول صاحب الاستبصار:" وكانت تاودا مدينة كبيرة، أسسها الملثمون

---

(1) المراكشي، المعجب، ص 59 وما يليها.

(2)) ابن أبي زرع، م.س.، ص 89.

(3) م.ن.

(4) الإدريسي، محبي السفر حول العالم، ص 233-234.

ليتملكوا منها جبل غمارة، وكان يسكنها ولاة المغرب منهم بالعسكر، وكانت في أيامهم معمورة بالمباني الحسان والقصور المنيعة، وهي على وادي ورغة، وعليها جبل منيف، فيه حصن كبير من بناء الملثمين يسمى امرجو، وهو مبني بالحجارة والجير، لا يقدر احد على هدم شيء منه إلا بالمشقة[1]. وما زالت أطلال مدينة تودا باقية إلى اليوم، شمالي فاس بنحو تسعين كيلو متراً في طريق وزان، وتعرف الآن بقلعة فاس البالي"[2].

وبينما كان يوسف بن تاشفين يحارب غمارة في الشمال، إذ بالزناتيين في فاس يتكتلون ضده ويقتلون الحامية ويستولون على المدينة، فاضطر يوسف أن يعود أدراجه وأن يقاتل الزناتيين وينتصر عليهم ثم يدخل فاس للمرة الثانية سنة 462 هـ[3]. وقيل بأن يوسف بن تاشفين احتل فاس في وقت لا يسبق سنة 468 هـ، وكان هذا الأمير يعرف ما بين المدينتين التوأمين(عدو القرويين وعدو الأندلس) أكثر من غيره، ولذلك هدم الأسوار الخاصة بكل منها، وبنى التحصينات، ووسع جامع القرويين، فأصبح بذلك جامع المدينة الرئيسي، وقد كان توحيد فاس عملاً ذا أهمية كبرى. يضاف إلى ذلك أن المرابطين اتخذوا من فاس قاعدة حربية للحملات التي شنوها على شمال المغرب، وعلى المغرب الأوسط، حيث احتلوا تلمسان ومدينة الجزائر، وعلى أسبانيا إذ استنجد بهم للدفاع عن المسلمين أمام هجوم المسيحيين[4].

ولم تكن عاصمة المرابطين فقد كانت على الأقل إحدى مدنهم الرئيسة، وقد دفعوا بها إلى التقدم السريع، وإذا كانت فاس مدينة لأحد الإدريسيين بنشأتها الأولى، فان يوسف بن تاشفين هو مؤسسها الثاني إذ أنه وحدها ومنحها حافزاً اقتصادياً ودينياً كبيراً[5].

---

(1) مجهول، الاستبصار، ص 190.

(2) ابن العربي، الصديق، المغرب، ص 199. ابن عبد الله، عبد العزيز، مظاهر الحضارة المغربية، 54/2.

(3) الناصري، الاستقصا، ص 108.

(4) لوتورنو، روجيه، فاس، ص 22-23.

(5) ابن خلدون، العبر، 380/8.

ولقد ذهب بعض المؤرخين المحدثين إلى أن يوسف بن تاشفين أخطأ خطأً جسيماً باندفاعه نحو غمارة أولاً وترك الزناتيين يتكتلون وراءه ويقتلون حاميته في فاس، وانتهوا إلى اتهام يوسف بن تاشفين بالطمع والاندفاع، والواضح أن المرابطين كانت لهم أهداف سامية في تقديم جهاد المارقين قبل أي جهاد آخر، لذلك بادر المرابطون إلى قتال برغواطه وغمارة قبل الزناتيين، فخطة الغزو المرابطي نراها واضحة وسليمة ومدبرة تدبيراً محكماً.

كما ظهرت كفاءة يوسف بن تاشفين العسكرية من خلال نجاحه في إخضاع قبيلتي مكناسة ولواته واستيلائه على أكثر بلاد المغرب العربي، حيث وجه جهوده بعد ذلك إلى ناحية الشمال الشرقي، ففي سنة 463 هـ زحف إلى وادي ملوية، فافتتح حصن بلادها، وعلى حصون وطاط من نواحيها، واخضع قبيلة غمارة مرة أخرى، وافتتح حصن علودان[1] من حصونها. وفي سنة 467 هـ، وجه همه إلى إخضاع غياثة وبني مكود بأحواز تازة وافتتح تازى، ثم فتح يوسف المغرب الشرقي وساحل الريف وبلاد بني سناسن واستولى بعد ذلك على تلمسان وقتل أميرها العباسي ابن نجتى، وأقام مكانه محمد بن تينعمر. وبذلك فقدت زناتة عاصمتها الأخيرة، وأقام يوسف مدينة جديدة هي تاكرارت بجوار أغادير القديمة، وتوغلت جيوشه في المغرب الأوسط واستولت على تنس ووهران وجبل وانشريس، ووصلت حتى الجزائر، وتوقفت عند مدخل بلاد قبيلي من أراضي صنهاجة الشرقية، ولم يدخل المرابطون في صراع مع إخوانهم الصنهاجيين في الجزائر وتونس، وهكذا انقسم المغرب العربي إلى قسمين: شرقي يحكمه بنو زيري وبنو حماد الصنهاجيين وغربي يحكمه المرابطون[2].

---

(1) م.ن.، 381/6.

(2) سالم السيد عبد العزيز، المغرب الكبير، 715/2.

كما تجلت كفاءة يوسف بن تاشفين العسكرية في فتحه طنجة وسبته ففي سنة 470 هـ زحف إلى طنجة القائد اللمتوني صالح بن عمران ففتحها بعد عراك عنيف في أحوازها وقُتل خلال هذا العراك أميرها سكوت البرغواطي[1]. أما سبته فقد تحصن بها ضياء الدولة يحيى بن سكوت[2]، وفي هذه الأثناء ورد على يوسف كتاب من المعتمد بن عباد يستصرخه فيه على حرب النصارى بالأندلس، إلا أن يوسف أخبره بأنه لا يستطيع مساعدته ما دام لم يفتح سبته، فعرض عليه المعتمد مساعدة بحرية فقبلها يوسف بن تاشفين، وجاء أسطول المعتمد إلى ميناء سبته سنة 477 هـ بينما نازلها المعز بن يوسف براً، وانتهى الأمر بفتح هذه المدينة الحصينة، وقتل يحيى بن سكوت. وهنا بدت شبه الجزيرة الإسبانية لهذا الأمير المطبوع على الظفر فتحاً يسير المنال، لا سيما وقد دعاه أهلها المسلمون لنجدتهم ضد النصارى كما سنرى في الفصل الثاني.

وهكذا بسط يوسف بن تاشفين حكمه على جميع أقطار المغرب، من تونس شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً، ومن البحر المتوسط شمالاً حتى حدود السودان جنوباً. وكل ذلك بكفاءته العسكرية وبفضل جيشه الذي كان يتكون من 100 ألف فارس بينهم صنهاجة وزناتة ومصامدة وغيرهم.

د) يوسف بن تاشفين أميراً للمسلمين.

لما شعر يوسف بن تاشفين بقوته وصلابة الأرض التي يقف عليها، اتخذ لقباً مهماً ذا مغزى، هو لقب أمير، وهو لم يتخذ لقب أمير المؤمنين، وكان بإمكانه أن يفعل ذلك لأنه كان آنذاك أقوى من الخليفة العباسي أو الخليفة الفاطمي، وكانت الدعوة المرابطية أقرب بكثير بمبادئها ومثلها إلى الدعوة العباسية، وإلى السنّة والجماعة من الدعوة الفاطمية والحركة الشيعية، ولم يكن في نية المرابطين وزعيمهم يوسف أن يقطعوا علاقتهم بالعباسيين، على العكس، كانوا يريدون تعزيزها، وحاولوا الاعتراف بشرعية حركتهم وشرعية دولتهم عن طريق الحصول على تقليدٍ من الخليفة العباسي آنذاك.

---

(1) الناصري، الاستقصا، ص 109-110.حركات، إبراهيم،المغرب، ص 161-162.

(2) حركات، إبراهيم، م.س. ، ص 161-162.

ومن المعروف أن المرابطين لم يتلقبوا بـ"أمير المسلمين"- أهم ألقاب الخلافة- لكنهم تلقبوا منذ بداية أمرهم بـ"الأمير" ثم تلقب يوسف بن تاشفين وخلفاؤه بـ"أمير المسلمين" وهو لقب قريب جداً من لقب الخلافة. وفي الحقيقة لا فرق بين هذين اللقبين-أمير المؤمنين وأمير المسلمين-سوى الفرق بين كلمتي المؤمنين والمسلمين. وإن لم يكن معنى هاتين الكلمتين واحداً، فهو متقارب جداً، فأمير المسلمين لقب من ألقاب الخلافة- أحدثه المرابطون- من ناحية، ومن ناحية أخرى فهو أسهل قبولاً عند أهل السنّة، إذ كان لقب أمير المؤمنين مخصصاً للخليفة العباسي الذي له سلطة على الحرمين.

فأول من تلقب بأمير المسلمين منهم يوسف بن تاشفين، وذلك بعد أن أشار إليه رجال دولته بالتلقب بلقب خلافي، وضغطوا عليه،" فلما ضخمت مملكته، واتسعت عمالته، اجتمع إليه أشياخ قبيلته وأعيان دولته، وقالوا له: أنت خليفة الله في أرضه، وحقك أكبر من أن تدعى بالأمير، بل ندعوك بأمير المؤمنين، فقال: حاشى لله أن أتسمى بهذا الاسم، إنما يتسمى به خلفاء بني العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة، ولأنهم ملوك الحرمين، مكة والمدينة، وأنا رَجلهم والقائم بدعوتهم. فقالوا لا بد من اسم تمتاز به. وعندما استجاب إلى لقب أمير المسلمين، وناصر الدين، خُطب له بذلك على المنابر وخوطب به في العدوتين"[1].

وقد كتب يوسف بن تاشفين بذلك إلى عمال دولته وأعيانها، وقد جاء في هذا الكتاب"بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما. من أمير المسلمين وناصر الدين يوسف بن تاشفين إلى الأشياخ والأعيان والكافة من أهل(فلانة)، أدام الله كرامتهم ووفقهم لما يرضاه. سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد، حمداً لله أهل الحمد والشكر، ومُيسر اليسر وواجب النصر، والصلاة على محمد المبعوث بنور الفرقان والذكر، وإنا كتبناه إليكم من حضرتنا العلية بمراكش حرسها الله، في منتصف محرم سنة

---

(1) الناصري، الاستقصا، 2، 53، ابن خلدون، العبر ، 380/6.، أداهول، الحلل الموشية، ص 17-18، أداهه، محمد ولد، مفهوم الملك، ص 111-112.

ست وتسعين وأربعمائة، وأنه مَنّ الله علينا بالفتح الجسيم، وأسبغ علينا من النعمة الظاهرة والباطنة بروض النعيم، وهدانا وهداكم إلى شريعة نبينا محمد المصطفى الكريم صلى الله عليه وسلم أفضل الصلاة وأتم التسليم، رأينا أن نخص أنفسنا بهذا الاسم، نمتاز به على سائر أمراء القبائل، وهو أمير المسلمين وناصر الدين، فمن خَطب الخُطبة العلية السامية، فليخطبها بهذا الاسم إن شاء الله، والله ولي العدل بمنّه وكرمه، والسلام"[1].

وقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن يوسف بن تاشفين اتخذ لقب أمير المسلمين وناصر الدين بعد انتصاره في موقعة الزلاقة المشهورة على ألفونسو السادس وحلفائه من المسيحيين بالأندلس في سنة 1087/479، وأن أول من دعاه بهذا اللقب هو المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية، وأقره على ذلك الخليفة العباسي[2].

وقد ذكر صاحب الحلل الموشية أن زعيم المرابطين كان يُلقب أول الأمر بلقب أمير المرابطين، وكان الأمير أبو بكر بن عمر أول من تلقب به بعد وفاة عبد الله بن ياسين سنة 451 هـ، ولما سار أبو بكر بن عمر إلى الصحراء لحرب أعداء قبيلة لمتونة أصحاب اللثام في الجنوب، وخلف مكانه يوسف بن تاشفين أطلق عليه أمير المغرب(أي المغرب الأقصى)، وكان هذا أول لقب تلقب به يوسف بن تاشفين الذي ظل من الناحية الرسمية عاملاً على المغرب من قبل أبي بكر بن عمر. وظل ابن تاشفين أميناً على عهده لأبي بكر بن عمر حتى توفي أبو بكر سنة 480. ويدل على ذلك أن السكة المغربية ظلت تحمل اسم أبي بكر بن عمر حتى سنة 484 هـ. ولما استنجد المعتمد بن عباد ملك اشبيلية بيوسف بن تاشفين مستنصراً إياه على ألفونسو السادس ولبى نداءه تلقب يوسف بن تاشفين بلقب أمير المسلمين، وذلك مقابل تسمية ألفونسو السادس أمير المسيحيين[3].

---

(1) مجهول، م.س.، ص 18.

(2)) أداه، محمد ولد، م.س.، ص 112. حسن، إبراهيم، تاريخ الإسلام، 314/4.

(3) مجهول، الحلل الموشية، ص 17.

ولما انتصر يوسف بن تاشفين في موقعة الزلاقة المشهورة، لقبه المسلمون بهذا اللقب، تقديراً لجهاده وانتصاره على المسيحيين[1]. ويذكر أن ابن تاشفين لما عاد من بلاد الأندلس ودخل مدينة مراكش حاضرة ملكه، خاطبه علماء الأندلس بأن طاعته ليست واجبة حتى يذكر اسم الخليفة العباسي المستظهر بالله في الخطبة، ويأتيه منه تقليد وإقرار، فأرسل يوسف بن تاشفين رسله إلى الخليفة العباسي ببغداد، فأتاه التقليد مع الخلع والأعلام، ولقب أمير المسلمين وناصر الدين[2].

وقد قامت حول هذا اللقب مشكلة شرعية تتعلق بمدى أحقية خطباء المساجد في الدعوة ليوسف بن تاشفين باعتباره أميراً للمسلمين. على أن يوسف لم يصرح للخطباء بإقامة الدعوة له إلا بعد أن أرسل بعثة من رجال الدين إلى الخليفة العباسي المستظهر يستفتيه في جواز حمل هذا اللقب، فلم ير الخليفة بداً من عرض هذا الأمر على الفقهاء الذين اجتمعوا برئاسة الإمام الغزالي سنة 484 هـ، وأفتوا باستحقاق يوسف بن تاشفين لهذا اللقب بعد أن أحرز هذا النصر الإسلامي المؤزر على المسيحيين في موقعة الزلاقة. وهذا يدل دلالة واضحة على أن يوسف بن تاشفين كان يصدر في أعماله عن وازع ديني لا جرياً وراء الشهرة، لان حياته كانت تتسم بالزهد والتقشف.

على أن شروطاً أخرى يجب أن تتوفر فيمن يرشح لإمرة المسلمين في الدولة المرابطية، وهي أن يكون من قبيلة لمتونة(...)، وان يكون ذا كفاية حربية عالية، وأن يسير في سياسته وفق تعاليم مذهب مالك، وأن يرجع في إدارته إلى رؤساء القبائل، ويعمل برأي الفقهاء في الأمور السياسية والدينية[3].

(1) الناصري، الاستقصا، ص 172.

(2) حسن، إبراهيم، تاريخ الإسلام، 315/4.

(3) ابن خلدون، المقدمة، ص 11.

3. صفات يوسف بن تاشفين:

إن الدارس لشخصية يوسف بن تاشفين ليعجب لبساطة هذا القائد، فقد كان بسيطاً في حياته الخاصة والعامة، سليم الطويّة، صافي السريرة، ظاهره كباطنه، وظل هكذا حتى أواخر أيام حياته، لم يغيره الغنى والجاه والنفوذ، كذلك يمتاز بإيمانه العميق بمبادئه التي أعلنها ونذر نفسه من اجل تحقيقها، حتى ذاع صيته في جميع أقطار الإسلام، واشتهر بصلابته في إيمانه وإخلاصه وتقواه.

وان هذه البساطة وهذا الإيمان وهذا الإخلاص هي صفات النفس المؤمنة التي فطر الله الناس عليها، ولذلك حببته هذه الصفات من أتباعه البربر الذين اعتنقوا المباديء التي نادى بها وأطاعوه وساروا تحت لوائه[1]. وذلك أن البربر كانوا آنذاك قوماً أقرب إلى الفطرة فاستجابوا لدعوة الفطرة يقودهم رجل فطرته سليمة وطويته صافية، وهذا يعلل إلى حد كبير نجاح يوسف في دعوته.

ومن هنا فان يوسف بن تاشفين كان يمتاز بالخصائص الأساسية التي تميز بها كبار بناة الإسلام على مر العصور.

وأول هذه الخصائص الإيمان العميق بالإسلام وفضله ورسالته، وشعوره بأنه ينبغي أن يحترم هذا الدين وينصره ويجاهد في سبيله ويعمل على حماية عماله من الأخطار.

وثانيها النظرة الواسعة إلى العالم الإسلامي على انه عالم واحد مترابط، فهذا الرجل الصحراوي لم يكد يقيم دولته حتى كتب إلى الخليفة العباسي يدخل في طاعته ويستظل برايته، لأن ذلك كان رمز وحدة العالم الإسلامي.

---

(1) حماده، محمد ماهر، الوثائق السياسية والإدارية، ص 67.

وثالث هذه الخصائص هي الشعور الكامل بضرورة نصرة الإسلام وحماية داره ما وسعه ذلك داخل بلاده وخارجها، وسنرى كيف أن هذا الرجل لم يكد يسمع صريخ المسلمين في الأندلس حتى أسرع فلبى النداء ودفع إمكانياته كلها في القيام بهذه الرسالة الكبرى.

والرابعة هي إيمانه بالعروبة وعظيم قدرها وأهميتها، فقد كان يوسف بن تاشفين يعرف العربية دون أن يجيدها ولكنه اجتهد في إتقانها، وشجع الفقهاء والعلماء وحثهم على نشر العلوم العربية والإسلامية[1].

لقد كان أمير المرابطين بلا ريب من أولئك الرجال الأفذاذ الذين خلقوا للزعامة وإنشاء الدول[2] فكان يجمع بين جمال الطلعة والجسم، وبين أبدع المواهب العقلية، فكان يتمتع بمواهب وصفات بارعة من الذكاء والشجاعة والفطنة وبعد النظر، وهي أخص صفات الزعامة، وكانت شهامته وشغفه بالحرب-كان يقودها بفطنة وحسن طالع-يسبغان عليه الفروسية، وكان جوده ولاءه، واختصاره لمظاهر الترف في الملبس والمسكن تكسبه محبة شعبه وتقوي في نفوسهم من جهة أخرى عواطف التوقير والترف التي وطدتها صرامته وعدالته[3]. وكان التقشف من أخص صفاته، فقد كان رغم ملكه الشامخ يعيش كأبسط رعاياه بعيداً عن كل مظاهر الترف والنعماء، وبلغ من تقشفه أنه لم يكن يأكل سوى خبز الشعير ولحم الإبل، ولا يشرب سوى لبن الإبل، وقد وهبه الله بسطة في الجسم وصحة بديعة[4]. وفي كونه عاش مائة عام وهو عمر نادر البلوغ[5]. أضف إلى ذلك أن يوسف بن تاشفين كان خائفاً لربه، كتوماً لسره، كثير الدعاء والاستخارة، مقبلاً على الصلاة[6]. كما كان ذكياً، فطيناً حاذقاً لبيباً يأكل من عمل يده،

---

(1) مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص 165-166.

(2) عنان، تراجم إسلامية، ص 223.

(3) أشباح، تاريخ الأندلس، ص 65.

(4) عنان، م.س.، ص 223.

(5) أشباح، م.س.، ص 65.

(6) Juline, Carles, Histoire de I afrique du nord.p.81.

عزيز النفس، يثيب إلى خير وصلاح[1]. أكبر عقابه كان الاعتقال الطويل إلا من انتوى وشق العصا" فالسيف أحسم لانتشار الداء"[2].

وكان إنساناً متواضعاً، عادلاً، لا يرهق رعيته بالمغارم المحرمة، شديد الحياء، جامعاً لخلال الفضل، حازماً، سائساً للأمور ضابطاً لمصالح دولته[3] عظيم الشأن كبير السلطان[4]، وكان يوسف بن تاشفين كريماً[5]. كما كان عديم الرفاهية، قشيب العيش على قاعدة البربر[6]. وكانت معارفه بسيطة حيث أنه لم يتلق من العلم قسطاً يذكر، أو لم يتلق منه شيئاً، فقد كانت قبائل المغرب الأقصى يومئذ تسودها البداوة والجهل[7].

وقد قام يوسف بن تاشفين برد أحكام البلاد إلى القضاة واسقط ما دون الأحكام الشرعية، وكان يسير في أعماله بنفسه فيتفقد أحوال الرعية كل سنة، وكان محباً للفقهاء وأهل العلم والفضل مكرماً لهم، صادراً عن رأيهم[8]. ويقضي على نفسه بفتياهم[9]. وما زال إلى أن لقي الله مجداً في الأمور مُلَقناً للصواب فيها، مستصحباً حال الجد مؤدياً إلى رعيته حقها من الذب عنها والغلظة على عدوها وإفاضته للأمن والعدل فيها، ويرى صور الأمور على حقيقتها، وكان مُعظماً مهاباً لا يخلد إلى راتبه ولا يسكن إلى دعة[10]. ويذكر أن الإمام حجة الإسلام أبا حامد الغزالي لما سمع ما هو عليه من الأوصاف الحميدة وميله إلى أهل العلم عزم على التوجه إليه، فوصل الإسكندرية وشرع في تجهيز ما يحتاج إليه فوصله خبر وفاته، فرجع عن ذلك العزم[11].

---

(1) أشباخ، م.س.، ص 65.

(2) ابن عذارى، البيان المغرب، 46/4.

(3) مجهول، الحلل الموشية، ص 59.

(4) ابن عذارى، البيان المغرب، 46/4.

(5) الهرفي، دولة المرابطين، ص 57.

(6) ابن العماد، شذرات الذهب، 412/3.

(7) ابن الأثير، الكامل، 417/10.

(8) الناصري، الاستقصا، ص 123.

(9) مجهول، الحلل الموشية، ص 59.

(10) 36/4ن عذارى، م.س، 366/4.

(11) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 124/7.

وكان يوسف بن تاشفين يحب العفو والصفح عن الذنوب العظام، فمن ذلك أن ثلاثة نفر اجتمعوا، فتمنى أحدهم ألف دينار يتجر بها، وتمنى الآخر عملاً يعمل فيه لأمير المسلمين، وتمنى الآخر زوجته النفزاوية، وكانت من أحسن النساء ولها الحكم في بلاده، فبلغه الخبر، فأحضرهم، وأعطى متمني المال ألف دينار واستعمل الآخر، وقال للذي تمنى زوجته: يا جاهل! ما حملك على هذا الذي لا تصل إليه؟ ثم أرسله إليها، فتركته في خيمة ثلاثة أيام تحمل إليه كل يوم طعاماً واحداً، ثم أحضرته وقالت له: ما أكلت هذه الأيام؟ قال: طعاماً واحداً، فقالت: كل النساء شيء واحد، وأمرت له بمال وكسوة وأطلقته[1].

وكان يوسف بن تاشفين معتدل القامة، أسمر اللون[2] جعد الشعر[3]، نحيف الجسم، خفيف العارضين، دقيق الصوت[4].

هذه هي أهم الصفات التي تحلى بها يوسف بن تاشفين، وقد ظل ثابتاً على مبادئه حتى نهاية حياته ومخلصاً لها ما عاش من عمر، على الرغم من الدنيا العريضة التي أتته والترف الذي أصاب حياة المرابطين تعد احتكاكهم الأندلسيين، وبعد أن أصبحت الأندلس قسماً من إمبراطوريتهم.

هذا هو يوسف بن تاشفين الذي يعد بحق زعيماً من زعماء المرابطين، تمكن من رأب الصدع في الحركة المرابطية، وأن يعيد توحيد المرابطين تحت قيادته، وان يسير في بناء الدولة المرابطية إلى الغاية المنشودة وهي تأسيس دولة قوية ضمت القسم الأكبر من شمال أفريقيا، مع التوسع نحو الجنوب والجنوب الغربي والجنوب الشرقي، ونشر الإسلام والدفاع عنه، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تعداه، وذلك بدخوله الأندلس والسيطرة عليها، وهذا ما سنتناوله بالتفصيل في الفصل الثاني.

---

(1) ابن الأثير، الكامل، 10/417-418.

(2) ابن العماد، شذرات الذهب، 3/412.

(3) حركات، إبراهيم، المغرب عبر التاريخ، 1/161.

(4) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 7/124.

الفصل الثاني

أول تدخل ليوسف بن تاشفين في الأندلس



الفصل الثاني

أول تدخل ليوسف بن تاشفين في الأندلس

مقدمات التدخل

1. أحوال ملوك الطوائف:

أ) اختلاف ملوك الطوائف بعضهم على بعض

ب) الأخطار المحدقة بالإسلام في أسبانيا

ج) غلبة الفونسو السادس على أسبانيا المسلمة

2. نداء ملوك الطوائف

أ) رسالة ابن عباد نيابة عن ملوك الأندلس إلى ابن تاشفين

ب) جواب يوسف بن تاشفين إلى ملوك الأندلس

ج) رسالة المعتمد بن عباد يستصرخ ابن تاشفين لعبور الأندلس

3. يوسف بن تاشفين ومراسلاته مع ملوك النصارى

4. موقعة الزلاقة 1086/479

أ) سبب المعركة

ب) مكانها وزمانها

ج) تعداد الجيوش

د) رسالة ابن تاشفين لألفونسو لما خرج لملاقاته

ه) أحداث المعركة

و) نتيجة المعركة وأهميتها بالنسبة للمسلمين

الفصل الثاني
أول تدخل ليوسف بن تاشفين في الأندلس

مقدمات التدخل

1. أحوال ملوك الطوائف:

أ) اختلاف ملوك الطوائف بعضهم على بعض:

حينما انتهى عهد الدولة الأموية في الأندلس عام 1016/407 تقسّم ما تبقى بيد المسلمين من ارض الأندلس إلى دويلات وإمارات بلغت العشرين عداً، وعرفت في التاريخ باسم دول الطوائف. ولن نسترسل في سرد تاريخ دول الطوائف، ولن نطيل الكلام فيما جرى بين الحكام المسلمين من حروب وصراعات ومؤامرات... استمرت قرابة نصف قرن، وأخرجت من أيدي المسلمين قرابة نصف مساحة أرض الأندلس بدون حرب تذكر ضد العدو، وإنما تنازل عنها الحكام ثمناً لعون مغرض لهم في صراعاتهم وحروبهم ومحاولاتهم الانتقام والتشفي من إخوانهم المسلمين في الإمارات الأخرى. وسنكتفي بإيراد نماذج من المواقف التي وقفها بعض هؤلاء الحكام الذين كان من السهل عليهم الخضوع للإسبان والتنازل لهم عن المدن والقلاع والحصون ثمناً لمؤازرتهم لهم، بينما كان أحدهم يجتهد في حرب إخوانه المسلمين، ويشتد في تدميرهم وقتلهم، ويحاول انتزاع الأرض والمدن والقلاع والحصون من أيديهم ليسلمها كلها إلى الأمراء الإسبان وهو يعلم أن الإسبان هم الأعداء الحقيقيون، وأنهم لن يدخروا جهداً ولا وسيلة في تدمير الحكام المسلمين جميعاً، وانتزاع الأرض منهم، ودفعهم إلى الوراء تمهيداً لإخراجهم من الجزيرة الأيبيرية كلها، وقد لمسوا ذلك كله لمس اليد، ولكنهم لم يتعظوا ولم يرتدعوا عن غيهم، واسترسلوا في ذلك إلى أن عمهم البلاء جميعاً، وخضعوا جميعاً

للإسبان يدفعون الجزية لهم، ويستجيبون لأوامرهم، وينفذون ما يطلبونه منهم وهم صاغرون أذلاء[1].

وأول مدينة نقف عندها قرطبة، حيث أعلن أهلها وعلى رأسهم أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور إلغاء الخلافة. وقد أسند القرطبيون أمرهم إلى" شيخ الجماعة" الوزير أبي حزم بن جهور في منتصف ذي الحجة سنة 422 هـ.

أدار أبو الحزم بن جهور قرطبة ببراعة ونباهة اثنى عليها المؤرخون[2]، عاونه في ذلك صفوة من الرجال، كذلك كان ابنه الوليد بن جهور[3] الذي خلفه في الحكم سنة 435 هـ[4]. غير أن الوليد فوض التدبير إلى ابنه عبد الملك الذي أساء السيرة، فحاصره المأمون بن ذي النون، فاستغاث بالمعتمد بن عباد أمير اشبيلية فوجه إليه ابنه الظافر سنة 462 هـ في عسكر كثيف، ففك ابن ذي النون حصاره، وغدر الظافر بعبد الملك، فخلع بني جهور عن قرطبة ونفى عبد الملك مع أبيه إلى شلطيش في الجنوب الغربي للأندلس، واغتال حريز بن عكاشة الظافر ليلاً، فاقبل المعتمد بجنوده، وهرب ابن عكاشة ولحقته خيل فقتلته، ودخل المعتمد قرطبة وولى عليها ابنه المأمون، وظل يدير شؤونها إلى أن قتله المرابطون سنة 484 هـ[5].

وتعد إمارة اشبيلية أهم إمارات الطوائف لما قادت من حركة أدبية وعلمية كبرى، ولما صار إليها من بلدان كثيرة في شرقي الأندلس وغربيها، وأول من جمع زمام الحكم بيده بها قاضيها محمد بن إسماعيل اللخمي منذ سنة 414 هـ إلى أن

---

(1) ابن عذارى، البيان المغرب، 3/150-152، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 2/139-147.، عنان، دول الطوائف، ص 120.، سالم السيد عبد العزيز، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، 363.

(2) الشنتيري، الذخيرة، 1/115-117.، ابن الأبار، الحلة السيراء، ابن عذارى، البيان المغرب، 3/185-186.، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، 2/148.، ابن خلدون، العبر، 4/343

(3) الشنتيري، م.س.، 1/117-118.، ابن الأبار، م.س.، 2/181.،ابن عذارى، م.س.، 3/187، 210، 211، 213-234، ابن الخطيب، م.س.، 2/148.، ابن خلدون، م.س.، 4/343

(4) ضيف، شوقي، عصر الدول والإمارات، ص 36.

(5) م.ن.

أول تدخل ليوسف بن تاشفين في الأندلس

توفي سنة 433 هـ، وخلفه ابنه عباد الملقب بالمعتضد، وكان جباراً سفاكاً للدماء وأحاط نفسه بكوكبة كبيرة من الشعراء، واتسع بسلطانه على حساب جيرانه من العرب والبربر، بينما كان يرهب المسيحيين في الشمال رهبة شديدة حتى ليدفع لهم الجزية صاغراً، وبذلك كان سبباً لهدم الإسلام والعروبة في الأندلس، وتوفي سنة 461 فخلفه ابنه المعتمد، وفي عهده بلغت الإمارة الذروة في السلطان، إذ دان له كثير من البلدان في غرب الأندلس مثل قرمونه وشريش وشلب، وفي شرقها مثل مالقه ومرسية، وظل مثل أبيه يدفع الجزية صاغراً لملك ليون وقشتالة، وقد ظل هكذا إلى أن عزله يوسف بن تاشفين في عبوره للأندلس سنة 484 هـ ونفاه إلى أغمات في المغرب، وبها توفي سنة 488 هـ[1].

وقامت في الجنوب إمارة ثالثة هي إمارة غرناطة التي تملكتها صنهاجة، وأول أمرائهم بها زاوي بن زيري الذي اشتهر بهزيمته لخيران أمير المرية حين بايع المرتضى المرواني بالخلافة، وزحف به على غرناطة، وخاف الكرّة عليه من أهل الأندلس، فرحل بما حازه من الأموال والذخائر إلى موطنه في المغرب، وخلفه بغرناطة ابن أخيه حبوس بن ماكش(410-429هـ) وورثه ابنه باديس (429-465هـ)، وكان من أبطال الحروب، وعظم سلطانه بهزيمته لزهير صاحب المرية وقتله سنة 429، وخلفه حفيده عبد الله بن بلقين، وظل على غرناطة إلى أن سلمها ليوسف بن تاشفين سنة 484 هـ[2]، بعد صراع طويل بينه وبين ابن المعتمد[3].

وقامت في الثغر الأعلى إمارة سرقسطة، وقد ثار بها منذر بن يحيى التجيبي ممدوح بن دراج الذي توفي سنة 414 هـ، فخلفه عليها ابنه المظفر يحيى وبعده ابنه منذر، وكان له ابن عم متهور كثير الحسد له، فدخل عليه قصره وقتله، فانتهز الفرصة واليه على لاردة، وقيل على تطيلة-سليمان بن أحمد ابن

---

(1) حومد، محنة العرب، 96-100.، ضيف، شوقي، م.س.، ص 36.

(2) ضيف، شوقي، عصر الدول والإمارات، ص 36.

(3) حومد، محنة العرب، ص 96، 100.

هود-. وانقض على سرقسطة سنة 431 هـ، فهرب القاتل، وخلصت له ولعقبه، ووليها بعده ابنه المقتدر أحمد وهو عميد بن هود، وكان فارساً مغواراً له غزوات مشهورة للمسيحيين في الشمال، وجمع ألفونس السادس ملك ليون وقشتالة جيشاً ضخماً للاستيلاء على سرقسطة، وباءت حملته بالإخفاق الذريع، فأعاد الكرّة سنة 456 هـ وفاجأ النورمانديون بلدة بربشتر على مسافة 60 كيلو متراً في الشمال الشرقي من سرقسطة واقتحموها وانزلوا بأهلها مذبحة بشعة وسبوا منها خمسة آلاف من النساء والعذارى وباعوهن في الأسواق بيع الإماء[1].

وقد كانت بربشتر تخضع ليوسف بن هود، ولم يتمكن يوسف من إنجادها إذ ليس له طريق أرضي يتصل بها إلا من الأراضي الواقعة تحت حكم أخيه الغادر أحمد بن هود، أو من أراضي مملكة نافارا، وقد خبر غدر ملكها وخسته من قبل.

ولم يتحرك أحمد بن هود لنجدة القلعة المسلمة حقداً منه على أهلها الذين خلعوا طاعته وأعلنوا الولاء لأخيه يوسف فوقف يتفرج على الأحداث التي تمزق نياط القلوب القاسية[2]. وأكثر من ذلك أن أحداً من أمراء الطوائف المسلمين الآخرين لم يفكر في إنجاد حصن بربشتر لأنهم كانوا جميعاً يخضعون للإسبان، ويدفعون الجزية لهم، ولا يسمح الإسبان لأحد منهم بان يتدخل لإنجاد مسلمين ورفع الغمة عن حصن مهدد بالسقوط في أيدي قوى نصرانية، لأنهم مع كل ما يؤدي إلى دمار المسلمين في النهاية، وضد كل من يقف في وجه القوى النصرانية من أي قطر كانوا[3] وظل الأمر هكذا إلى أن استولى يوسف بن تاشفين على ديار أمراء الطوائف وجعل هذا الحصن حاجزاً بينه وبين المسيحيين في الشمال كما سنرى في الفصل الثالث.

---

(1) ضيف، شوقي، م.س.، ص 36-37.

(2) عنان، دول الطوائف، ص 266.

(3) حومد، محنة العرب، ص 104.

ومن الإمارات المهمة في الأندلس إمارة طليطلة التي ثار بها زمن الفتنة في أواخر الدولة الأموية قاضيها يعيش، وتوفي سنة 419 هـ فتملكها إسماعيل ابن ذي النون وأسرته البربرية طوال حقبة أمراء الطوائف وتوفي سنة 467 هـ وخلفه حفيده القادر بن يحيى، وكان قصير النظر سيء التدبير، وفغر ألفونسو السادس فاه على ثغوره وجعل يطويها طي السجل للكتاب[1].

وقد أصبح الاستيلاء على طليطلة شغل ألفونس السادس الشاغل، وقد بدأ منذ سنة 1078/470 يعمل لتنفيذ هذا الأمر بالإغارة على أراضي مملكة طليطلة ويعبث فيها سفكاً وينسف مزارعها. واستمر على ذلك سنوات لينهك قواها، حتى سقطت طليطلة في شهر محرم سنة 1085/478 على اختلاف في اليوم[2]. وكان ذلك ثمناً لإيواء طليطلة لألفونس السادس أثناء محنته مع أخيه شانجة.

وقد كان إيواء طليطلة لألفونس السادس-أيام نفيه-نقمة عليها وسبباً للتعجيل بسقوط المدينة، أو البدء بشن الحرب عليها وإسقاطها، يشير إلى ذلك ابن الخطيب بقوله:"وسكناه بطليطلة واطلاعه على عوراتها هو الذي أوجب تملك النصارى بها"[3]. بل انه فضلاً عن انتفاعه-حين إقامته في طليطلة-من معرفة دروبها وخططها، تذكر بعض الروايات:"أن الفونسو استمع ذات يوم، وهو متظاهر بالنوم، إلى حديث المأمون مع وزرائه في كيفية الدفاع عن طليطلة، وإهمال مهاجمة النصارى لها، واستيلاءهم عليها، وكيف يمكن ذلك وبأية وسيلة، وقد أجاب بعضهم أن النصارى لا يستطيعون الاستيلاء على مدينة بمثل هذه الحصانة إلا إذا انفقوا سبعة أعوام على الأقل في تخريب أسوارها وانتساف مؤنها"[4].

---

(1) ضيف، شوقي، عصر الدول والإمارات، ص 37.

(2) الشنتيري، الذخيرة، 130/4.، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، 242/2-243.، المقري، نفخ الطيب، 441/1، 352/4-354، 477.

(3) ابن الخطيب، م.س.، 330/2. عنان، دول الطوائف، ص 391.

(4) عنان، دول الطوائف، ص 391.

والعجيب أن ملوك الطوائف جميعاً باستثناء حاكم بطليوس وقفوا جامدين لا يتحركون لنجدة طليطلة، وكأن الأمر لا يخصهم، بل ان عدداً منهم كان يرتمي على أعتاب الفونس السادس طالباً عونه أو عارضاً له الخضوع، بذلة تأباها النفس المسلمة، تغافلوا عن أن الفونس لا يفرق بين طليطلة وغيرها من القواعد الأندلسية[1]. لكن العجب يزول إذا تذكرنا نزعتهم الأنانية والعصبية.

وقد قام حاكم بطليوس عمر بن الأفطس، الملقب بالمتوكل على الله ببعض واجبه تجاه طليطلة في محنتها، وكان بعضهم لا همّ له إلا تحقيق مصلحته، يتصرف أحياناً وكأن الأندلس وجدت لمنفعته وليتربع على كرسي حكمها، انتحلوا الأوصاف و" اقتسموا ألقاب الخلافة وتوزعوها لقوة استبدادهم عليها بما كانوا من قبيلها وعصبيتها، فتلقبوا بالناصر والمنصور والمعتمد والمظفر وأمثالها"[2]، وساروا بأمتهم نحو الخراب، وقال في ذلك الشاعر أبو علي الحسن ابن رشيق القيرواني[3] أو غيره[4]:

مما يزهدني في أرض أندلس أسماء معتمد فيها ومعتضد

ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

وهم كما في وصف آخر:[5]

وتفرقوا شيعاً فكل محلة فيها أمير المؤمنين ومنبر

ومما وصفهم به أبو الحسن بن الجد:

أرى الملوك أصابتهم بأندلس دوائر السوء لا تبقي ولا تذر[6]

---

(1) ابن الكرديوس، تاريخ الأندلس، ص 82.

(2) ابن خلدون، المقدمة، 2/751-752.

(3) الشنتيري، الذخيرة، 1/134.، المقري، المغرب في حلى المغرب، ص 110.

(4) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 4/428.، ابن خلدون، م.س.، 2/752. ابن الخطيب، أعمال الأعلام، 2/144.

(5) ابن الخطيب، م.س.، 2/242.

(6) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، 2/242.

وظل الأمر كذلك إلى أن عبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس كما سنرى في الفصل الثالث.

وكذلك كان الأمر في كل من بلنسية ودانية ومرسية وبطليوس ويمكن إجمال أهم السمات الأساسية المشتركة لعصر الطوائف بما يأتي:

1) انفراط عرى الوحدة الوطنية، وتحول البلاد إلى وحدات أو كيانات صغيرة تسمى بدويلات الطوائف، تتميز كل منها بكيان خاص قائم على مبدأ الزعامة لأسرة من الأسر، والاعتماد على قوة عسكرية لتنفيذ أهدافها وان كانت تلك القوة تتكون في معظم الأحيان من خليط من العناصر الموالية لهذه الأسرة أو تلك، ونظام الحكم قائم على أساس مبدأ الوراثة، وغالباً ما كان هذا النظام سبباً في حدوث النزاع بين أفراد الأسرة الواحدة، لا سيما عندما تقسم أملاك الدولة بين أكثر من واحد من أبناء الحاكم[1].
2) توجه جميع الدويلات القائمة نحو العمل لمصالحها الذاتية، دون أي حساب للقضايا القومية، أو حتى مصلحة الجماعة المنضوية تحت لوائها، وكان حكام هذه الدويلات ضعافاً في وطنيتهم ودينهم، فعندما سقط حصن بربشتر وطليطلة لم نجد من بين حكام هذه الدويلات من سارع إلى إنجادها، بل ان المقتدر بن هود لم يحرك ساكناً عندما سقط حصن بربشتر في يد النورمانديين لكونها من أملاك أخيه يوسف، -وكان بينهما نزاع شخصي-، حتى أجبر أخيراً أمام غضب الشعب وثورته على إرسال قواته وتطهير المدينة من دنس النورمانديين، أما طليطلة فسقوطها هز الأندلس كلها، ولم نجد من أولئك الحكام إلا المواقف المتخاذلة المشينة[2].
3) الصراع العنيف بن هذه الدويلات، لكسب ما يمكن كسبه من القلاع والحصون والمدن وقد فقدت الأندلس جراء ذلك الصراع الألوف من أبنائها، وتعرض الكثير من المناطق إلى الخراب والدمار، وفقد الأمن، وساءت الأحوال الاقتصادية نتيجة الاضطراب والفوضى التي كانت تصيب المناطق المتنازع عليها[3].

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، 86/4-90.، عنان، محمد دول الطوائف، ص 423-428.

(2) م.ن.

(3) م.ن.

4) دخول جميع دويلات الطوائف بشكل أو بآخر في سلسلة من التحالفات مع أمراء أسبانيا الشمالية وملوكها أعداء الأندلس التقليديين، وأصبحت تلك التحالفات جزءاً من السياسة الخارجية لدويلات الطوائف، وغاية تلك التحالفات اقتسام أملاك الدويلات الأخرى، حتى باتت التحالفات تشكل خطراً كبيراً على معظم الدويلات مادياً، نتيجة دفع الأموال الكبيرة لتلك الدويلات مقابل مساعدات معينة، ومعنوياً لتدخلها في سياسة الدويلات القائمة في الأندلس حتى فقدت أكثر الدويلات استقلالها الذاتي، بل وأصبح رؤساءها يرسمون سياساتهم العدائية للنيل من الدويلات الأخرى، وكان ذلك هدف سمت إليه الممالك الإسبانية الشمالية ومنذ البداية لإضعاف كل طرف من الطرفين المتنازعين[1].

5) حرص حكام الطوائف كافة على الاتسام بسمات الملك والتلقب بشتى الألقاب الملوكية والسلطانية، وزاد بعضهم أن اصطنع لدويلته وحكمه الشرعية والخلفية اللازمة لتسويغ أعماله وفرض سلطانه على الآخرين، عن طريق تنصيب الخلفاء بطريقة تثير الاستهجان، كما فعل بنو عباد عندما نصّبوا حلف الحصري وادعوا انه الخليفة هشام المؤيد، وكاتبوا في ذلك حكام الطوائف بدعوتهم لمبايعته والدخول في طاعته، أو كما فعل صاحب دانية والجزائر عندما نصّب المعيطي خليفة وهو شخص من العامة فبايعوه مقتفين بذلك دعوى بني عباد[2].

وأخيراً، فان كان ثمة من حسنة لهذه الدويلات وسمة ايجابية تذكر لها فهي توجهاتها العلمية" فقد كانت من الفترات القليل التي تجانب فيها الحرب الأهلية تتمتع بقسط لا بأس به من الرخاء وتغمرها الحركة والنشاط، وكان ملوك الطوائف بالرغم من طغيانهم المطبق. من حماة العلوم والآداب، وإنها لظاهرة من أبرز ظواهر عصر الطوائف، أن يكون معظم الملوك والرؤساء من أكابر الأدباء والشعراء والعلماء وان تكون قصورهم منتديات زاهرة، ومجامع حقة للعلوم

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، 4/86-90.، عنان، محمد، دول الطوائف، ص 423-428.
(2) عنان، محمد، م.س.، ص 425.

والآداب والفنون، وأن يحفل هذا العصر بجمهرة كبيرة من العلماء والكتاب والشعراء المتازين، ومنهم بعض قادة الفكر الأندلسي والفكر الإسلامي بصفة عامة[1].

ب) الأخطار المحدقة بالإسلام في اسبانيا

كان الفونس السادس(اذفونش بن فرذلند) قد وضع نصب عينيه الاستيلاء على الأندلس، ولكن سياسته اتجهت نحو إضعاف ملوك الطوائف بالتفرقة وبث روح التنافس فيما بينهم، وإيجاد أسباب العداوة المتجددة بين واحدهم والآخر، وضرب الجزية عليهم ليجوروا على رعاياهم فتفسد عليهم النوايا، ولم تكن الغاية من هذه السياسة خفية أو مكتومة[2]. إذ كان يتحدث بها وزراء الفونس ومساعدوه إلى من يتصلون به من ملوك الطوائف حتى قال شلاند(ششنند) مرة لصاحب غرناطة:"إنما كانت الأندلس للروم في أول الأمر حتى غلبهم العرب، وألحقوهم بأنحس البقاع-جليقية- فهم الآن عند التمكن طامعون بأخذ ظلاماتهم ولا يصح ذلك إلا بضعف الحال والمطاولة، حتى إذا لم يبق مال ولا رجال أخذناها بلا تكلف"[3].

ويعلق عبد الله صاحب غرناطة على هذا بقوله:" فكان الجميع يساير الأمور ويدافع الأيام ويقول: من هنا إلى أن تتم الأموال وتهلك الرعايا -بزعمهم- يأتي الله بالفرج وينصر المسلمين"[4].

---

(1) م.ن.

(2) عنان، محمد، دول الطوائف، ص 425.

(3) ابن بلقين، عبد الله، مذكراته، ص 73.

(4) م.ن.

وجرب الفونس سياسة التهديد المباشر أيضاً قبل سقوط طليطلة، لكي يزيد في الفزع والرعب، إذ تحرك بجيوشه من الإفرنج والجلالقة والبشكنس عام 475 هـ" فشق بلاد الأندلس شقاً، يقف على كل مدينة منها فيفسد ويخرب ويقتل ويسبي ثم يرتحل إلى غيرها، ونزل على اشبيلية فأقام عليها ثلاثة أيام فأفسد وخرب، وكذلك فعل في شذونه وأحوازها، وخرب بشرق الأندلس قرى كثيرة"[1].

وبعد نزول النكبة بالأندلس الإسلامية بسقوط طليطلة وما حولها تصور ملك قشتالة أن أمراء الطوائف كافة غدوا رهن إشارته وطوع بنانه، وانه سيقضي عليهم الواحد بعد الأخر، لذلك علت مكانته بين ملوك النصرانية وتسمى ب"الإمبراطور" أو ب"الإمبراطور ذي الملتين"[2](الإسلامية والنصرانية)، بدأ يسعى لأخذ ما تحت أيديهم بكل وسيلة، واخذ بملوك الطوائف في الجزيرة وقصّر، واخذ يتجنى ويتعتب، وطفق يتشوق إلى انتزاع سلطانهم والفراغ من شأنهم ويتسبب، ورأى أنهم وقفوا دون مداه، ودخلوا بأجمعهم تحت عصاه[3].

وقد أجمعت كلمة الفونس السادس ملك قشتالة، وسانشو الأول ملك أراجون وناقارا(نبره)، وكذلك الكونت برنجار ريموند فيما يظهر، على سحق الدولة الإسلامية في أسبانيا، ذلك انه بالرغم من أن المسلمين قد حكموا معظم أرجاء الجزيرة زهاء أربعمائة عام، فقد كان النصارى يرون أن حقوقهم ما تزال قائمة عليها، وأن أرض أسبانيا ما تزال ملكاً لهم، ولم يكن يخالجهم شك في أنهم سوف يستعيدون الجزيرة كلها ذات يوم، ويُخرجون الفاتح الأجنبي منها، وكان الفونسو السادس يرى أن هذا اليوم قد حل، ذلك أن الممالك النصرانية نبذت عندئذ كل خصوماتها ومعاركها التي كانت فيما مضى سبب فشل قواها، وأخذت تسدد كل قواها مجتمعة ضد أعداء النصرانية، وكان من الميسور عقد هذه الوحدة، فمنذ أمد بعيد لم تجتمع أطراف المملكة النصرانية كما اجتمعت

---

(1) الناصري، الاستقصا، 32/2.

(2) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص 89.

(3) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، 23/2.، بروفنسالدول الطوائف، ص 116، بروفنسالل، الإسلام في المغرب والأندلس، ص 149.

يومئذ، إذ كان الفونسو السادس يحكم جليقية وجزءاً من البرتغال وأشتوريش وليون وقشتالة وبسكونية، وكان سانشو راميريس يحكم أراجون ونافارا.

وكان الكونت برنجار ريموند يحكم برشلونه وأرقلة(اورجل)، وإذن فقد كان النصارى الإسبان على حق في أمانيهم، خصوصاً بعد أن سقطت طليطلة الحصن العظيم في أيديهم، وكانت أعظم معقل للدولة الإسلامية في أسبانيا، وكان كل شيء يبدو عندئذ ممكناً[1].

وبينما سار جيش ضخم من جليقية وليون وانتزع مدينة قورية[2]، من بني الأفطس، ووصل إلى بسائط اشبيلية، فاحرق قراها وانتسف حقولها، وسارت قوة من الفرسان إلى شذونه، ثم اخترقت جزيرة طريف قاصية أسبانيا حتى البحر، إذ حاصر القشتاليون بمعاونة جند من الأرجونيين والقطلونيين، وضعهم الفونسو تحت قيادته فيما يظهر، قلعة سرقسطة الحصينة، وسقوط سرقسطة يضع منطقة الايبرو(ابره) كلها حتماً في يد النصارى، ويجعل الشواطىء الإسبانية مما يلي البحر الأبيض عرضة لغزواتهم[3].

وأثخن النصارى في ولاية سرقسطة كلها بالنار والسيف، ولم يكن يردهم في الحرب أي اعتبار إنساني ما دام الأمر متعلقاً بأعداء الدين، ولكن الحصون الإسلامية قاومتهم مقاومة شديدة، وتلقى المؤتمن بن هود وعداً بوصول المدد السريع من إخوانه المسلمين في جنوب الجزيرة، بيد أن النصارى كانوا يشددون الضغط على سرقسطة يوماً بعد يوم، وكان المسلمون في شبه الجزيرة يرتجفون جميعاً لاحتمال سقوط هذا المعقل المنيع، وكانت قواتهم وأهباتهم في حالة يرثى لها، وكانت دون قوى النصارى، ومن ثم فقد كانوا بلا ريب يتطلعون إلى عون من الخارج، عندئذ اتجهت أبصارهم إلى قوة المرابطين الناهضة في أفريقيا، وكانوا قد استولوا على بعض مدن الأندلس دون معارض، وعولوا على استدعائهم والتماس عونهم وغوثهم[4].

---

(1) أشباح، تاريخ الأندلس، ص 68.

(2) م.ن.

(3) م.ن.

(4) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 92.

وكان المعتمد بن عباد وهو يومئذ أعظم أمراء الأندلس يتحمل بتصرفه الطائش في معاونة الفونسو على محاصرة طليطلة، أكبر تبعة في تلك النكبة التي نزلت به وبإخوانه المسلمين، بيد انه غدا بعد أن تبين خطأه أوفرهم نشاطاً في العمل على تحطيم صولة النصرانية، وكان يرى مثل باقي الأمراء والولاة المستقلين أن قواهم قاصرة لا تكفي، ففي خلال مؤتمرين عقد أولهما في اشبيلية، وثانيهما في قرطبة اتفق الأمراء المسلمون على أن يرسلوا سفيراً إلى يوسف بن تاشفين في أفريقيا يلتمسون عونه وغوثه، لقد عارض بعضهم ذلك لا سيما عبد الله بن سكوت والي مالقه، وكان يرى أن المرابطين اشد خطراً عليهم من النصارى، وانه ما يزال من الميسور أن ترد عادية النصارى بالاتحاد والمثابرة، ولكن معظم الأمراء كانوا يائسين من الاعتماد على قواهم، فانحوا باللوم على عبد الله ساخطين، بل رماه بعضهم بالخيانة، وعهدوا إلى المتوكل أمير بطليوس، وكان يومئذ أعلم أمراء الأندلس، بان يكتب إلى يوسف رسالة يصف فيها ما يلقاه المسلمون من النصارى من المحن، ويلتمس إليه أن يبادر بغوثهم قبل أن تقع الطامة الكبرى، ووقع هذه الرسالة ثلاثة عشر من الأمراء المستقلين، فلما وصلت الرسالة إلى يوسف، تشاور في أمرها مع أكابر الزعماء والقربى فيما يجب صنعه، ورأى هؤلاء القادة الذين خرجوا حديثاً من الفقر، ولم يسمعوا من قبل باسم النصارى، ولم يعلموا أن للإسلام مثل هذا العدد القوي، أنه يجب نزولاً على حكم الدين أن يبادر المسلم إلى غوث المسلم ضد أعداء الدين.

على أن زعيم المرابطين وقد صقلته التجارب وبلغ ذروة النضج، لم ير أن واجبه يقتصر في ذلك على النزول عند بواعث الغيرة الدينية، ونظراً لنقص معرفته بالجزيرة وبالعدو المنتظر، وكونه يخشى أن محاربة الإسبان قد لا تسفر عن النجاح المحقق، فقد رأى أن يتبع في ذلك نصح كاتبه عبد الرحمن[1]، وهو أندلسي المولد يعرف الجزيرة من عظم الصعاب لان معظم الجزيرة في يد النصارى والجزيرة العربية نفسها وعرة البسائط تعترضها جبال صعبة المسالك تحول دون

---

(1) مجهول، الحلل الموشية، ص 32.

الفتوح السريعة، ويمكن تشبيهها بسجن يندر أن يستطيع الداخلون إليه الخارجون منه، وتسائل الكاتب أي صداقة تربط سيده بأولئك الأمراء، وأي قربى تحمله على غوثهم، وأي ضمان قدموه إليه.

قال:" فإذا انتصر عليك الأعداء فقد يقطع عليك طريق العودة إلى أفريقيا بأيسر أمر، ومن ثم فنصحي إليك هو أن تُخطر أمير اشبيلية أنك لا تستطيع العبور إلى أسبانيا قبل إخلاء حصن الجزيرة" وبذا تملك موضعاً أميناً تشغله حامية مخلصة، وتبقى في كل وقت على اتصال دائم بافريقيا[1].

وفي ذلك الحين الذي وجهت فيه الرسالة إلى أمير المرابطين يطلب الغوث، وانتظرت الإمداد، كان ملك قشتالة لا يزال يثخن في أراضي المسلمين، وفضلاً عما كانت تشعر به سرقسطة كل يوم من ازدياد الضغط عليها وكونها كانت تحارب جيرانها العامريين، كان بنو الأفطس إزاء خطر داهم، ذلك أن الفونسو كان ينذرهم بتخريب جميع مدائنهم إذا أبوا الخضوع لسلطانه المظفر، وقد رد الأمير العالم عمر المتوكل صاحب بطليوس على مطالبه برسالة طويلة، بيد انه لم يحجم عن المضي في غزواته وفتوحه[2].

ج) غلبة الفونسو السادس على أسبانيا المسلمة

بينما كان يوسف بن تاشفين يتردد في العبور إلى أسبانيا، أما لأنه لم يستكمل أهبته أو لان الحصون المطلوبة لم تسلم إليه، حاول عدد من الأمراء بإداء الجزية وتسليم حصون الحدود أن يحصلوا على مهادنة الفونسو ولو إلى حين، ولم ينج أمير اشبيلية نفسه من ذلك، وبعث الفونسو إلى اشبيلية سفيراً تسميه الرواية العربية بقرمط البرهانس[3] ومعه إلى المعتمد رسالة تفيض كبرياء

(1) مجهول، الحلل الموشية، ص 32.

(2) م.ن. ، ص 20-21.

(3) م.ن.، ص 22-23.

وصلفاً، ينعت فيها نفسه بالصقر وسيد الشعبين وإمام الشريعتين[1] وتقول الرواية العربية أن المعتمد أجاب على هذه الرسالة برسالة اشد كبرياء وعنفاً، ولكنها تذكر مع ذلك أن المعتمد اضطر إزاء تردد يوسف في العبور إلى أسبانيا أن يؤدي الجزية، ومن ثم فانه يحق لنا أن نرتاب في صحة رسالة المعتمد، وكان مع سفير الفونسو قرمط البرهانس يهودي بارع في شؤون النقد يدعى ابن شاليب، والظاهر أن الفونسو وُقع غير مرة على مال زائف مما يقبضه من جزية الأمراء المسلمين، فأمر اليهودي أن يفطن إلى ذلك فيما يقبضه من المعتمد[2]، فلما حمل إليه الوزراء مال الجزية التي يجب أن يؤديها المعتمد إلى ملك قشتالة أبى أن يتقبله دون فحص للتحقق من صحته، فأثار ذلك نقاشاً حاداً، وحاول السفير تسوية الخلاف، فاقترح أن يقدم ابن عباد بدل المال المطلوب سفناً حربية بقيمة الجزية لان اليهودي مأمور ألا يتسلم المال دون فحص وتحقيق.

ولكن المعتمد ازداد غضباً لأقوال السفير وصاح بأنه لا يستطيع أن يحتمل طغيان النصارى الأوغاد، بل قيل انه بطش بالسفير، خلافاً لما يقضي به قانون الأمم(القانون الدولي) وفي معظم الروايات العربية أن المعتمد فقأ عين السفير بنفسه وقتل رفاقه وهم ثلاثمائة، ولم ينج منهم سوى ثلاثة لاذوا بالفرار، وضُرب اليهودي حتى غشي عليه ثم صُلب، ولكن توجد ثمة رواية عربية أخرى أوثق من هذه،(والروايات النصرانية لا تذكر شيئاً عن الحادث) مفادها أن المعتمد كان أقل خشونة في معاملة السفير، ذلك أن السفير كان يقيم مع حاشيته في الخيام في ظاهر اشبيلية، فانسل إلى خيمة اليهودي بعض العبيد الصقالبة وقتلوه والنصارى الذين كانوا معه، وكان ذلك بأمر المعتمد بلا ريب، أما حياة السفير فقد حُفظت نزولاً على قانون الأمم، وارتد السفير إلى طليطلة وهو يتوعد بنقمة مولاه[3].

---

(1) م.ن.

(2) مجهول، الحلل الموشية، ص 23-25.

(3) المقري، نفخ الطيب، 470/2.، ابن خلكان، وفيات الأعيان، 39/2.، ابن الأثير، الكامل، 48/9.، الناصري، الاستقصاء 113/2.، مجهول، م.س.، ص 25، 26.والروايات العربية تختلف في بعض التفاصيل، ولكنها تتفق في هذه السفارة.، دوزي، تاريخ مسلمي الأندلس، 119/3.

وتبين المعتمد بعد التأمل الهادئ سوء تصرفه، ونصح الوزراء بان يصور الحادث كفورة سخط جاش بها الشعب ضد اليهودي لما أبداه من عدم الثقة، وان يعد الفونسو بالترضية الكافية وذلك اتقاء للعاصفة التي تبدو قريبة في الأفق، ولكن المعتمد كان يرى رأياً آخر، فاستدعى ابنه الرشيد، وكان قد أخذ له البيعة بولاية عهده، وأفضى إليه بأنه إذ يستحيل عليه مقاومة أطماع الفونسو وطغيانه بالسيف يعتزم أن يستدعي المرابطين إليه، وانه يؤثر أن يسحق على يد إخوانه في الدين على أن يسحقه الفونسو، وحديث المعتمد مع ولده يشف عن السبب الذي حمل يوسف بن تاشفين على التريث في إجابة دعوة أمراء الأندلس، ذلك انه طلب تسليم حصن الجزيرة في الأندلس وهو من أراضي أمير اشبيلية، فتردد المعتمد في تحقيق طلبه، ولكن المعتمد رأى عندئذ انه يجب أن يختار بين أن يسحق على يد الفونسو، أو أن يلقي بنفسه في يد المرابطين.

ولما بين الرشيد لوالده ما ينطوي عليه التجاؤه إلى المرابطين من الخطر أجابه المعتمد بما يأتي:"أي بني، والله لا يسمع عني أبداً أنني أعددت الأندلس دار كفر ولا تركتها للنصارى، فتقوم علي اللعنة في منابر الإسلام مثل ما قامت على غيري، في حَرز الجمال والله عندي خير من حَرز الخنازير"[1].

ومن خلال ما سبق يتضح لنا ما أصاب الأندلس من تفكك حين " زالت من النفوس الأنفة الإسلامية"، وخبت الأندلس-بسباتها-من الهبوط والضعف بقدر ما أصابها من الانحراف[2] الذي سارت به عن المنهج الإسلامي خذلت الفرقة أهلها، حتى الخيرين منهم" واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة، واعلموا أن الله شديد العقاب"[3]. ثم قوله صلى الله عليه وسلم: "لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليسلطن الله عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم"[4].

---

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 483/2. ما قاله ابن عباد بهذه المناسبة موضع خلاف، والمتفق عليه هو أنه قال: "أن رعي الجمال خير من رعي الخنازير".

(2) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص 77.

(3) سورة الأنفال، الآية 25.

(4) جامع الأصول في أحاديث الرسول، 332/1(حاشية 22، الطبري، تفسيره، 494/10، 150/11.

ولا يقيم الإنسان ويُقيّمه غير عقيدة ربانية-هي من مقتضيات وجوده- تقوده نحو الخير وتسلكه سواء السبيل، بعبادة الله ودوام مراقبته، يعمر دنياه وآخرته حين يحوز رضاه ويفوز بجنته،" ان الصدق يهدي إلى البر، وان البر يهدي إلى الجنة"[1].

ويظهر أن أهل الأندلس كانوا أسرع استجابة إلى التوحد وأكثر اهتماماً به من حكامهم، أخذ أهل الأندلس زمام المبادرة في التوجه إلى استدعاء المرابطين وإبلاغهم الاستغاثة[2]، كان هذا تقوية ودفعاً للحاكمين في اتجاه التوحد، راغبين أو مضطرين، كان علماء الأمة في الأندلس أول الداعين، اتجهوا بدعوتهم للناس والحكام[3].

وقد غدا هذا الاتجاه عند الأمة في الأندلس تياراً جارفاً، كان من نتائجه إزالة ملوك الطوائف، الذين استمر بعضهم في خط الاستغاثة بالعدو المتربص، حتى انه حين استشهد حاكم سرقسطة أبو جعفر المستعين بالله (المستعين الأصغر) سنة 503 هـ[4]، وخلفه ابنه أبو مروان عبد الملك عماد الدولة "بايعه الناس بسرقسطة بعدما اشترطوا عليه أن لا يستخدم الروم ولا يتلبس بشيء من أمرهم"[5].

2. نداء ملوك الطوائف

لقد يئس ملوك الطوائف من توحيد كلمتهم كما يئسوا من قوتهم، وكان لا بد لهم من عون خارجي إن أرادوا أن يكبحوا جماح الفونسو الذي ضرى بهم، وصمم على أن يعيد أسبانيا للمسيحية وأن يستأصل شأفة المسلمين، ولم يكن هذا العون بعيداً عنهم بل كان على مرمى البصر وراء العدوة الأخرى، في أفريقيا حيث تقوم دولة المرابطين.

---

(1) م.ن.، 442/6.

(2) مجهول، الحلل الموشية، ص 20، الحميري، الروض المعطار، ص 86.

(3) أرسلان، شكيب، الحلل السندسية، 192/2.

(4) الحميري، الروض المعطار، ص 357.

(5) ابن الأبار، الحلة السيراء، 248/2. ابن عذارى، البيان المغرب، 53/4.، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، 175/2.

أول تدخل ليوسف بن تاشفين في الأندلس

ولقد توجس بعض مشيري" ابن عباد" ملك اشبيلية وقرطبة من هذه الدعوة خيفة، ولكنه أسكتهم بقوله" لأن أكون راعي جمال في صحراء أفريقيا خير من أن أرعى الخنازير في قشتالة"[1].

وكان المعتمد بن عباد آخر ملوك بني عباد، يعتبر قطب الرحى في أحداث هذا العصر، وقد اتسعت مملكته في اشبيلية حتى شملت قرطبة، لكنه كان يستعين بالإسبان على خصومه، وكان يدفع لالفونسو الأتاوة كغيره من باقي الملوك، غير أن الفونسو-وقد أغراه استيلاؤه على طليطلة وغيرها من المدن مثل بلنسية على التفكير في الاستيلاء على الأندلس كلها-لم يكن يقنع بالأتاوة ترسل إليه، بل طلب من ابن عباد بعض الحصون وأمعن في التجني والتمرس، فطلب أن يُسمح لزوجته أن تدخل جامع قرطبة لتلد فيه حسب إشارة القسيسين والأساقفة، وتضايق المعتمد من حديث حامل الرسالة حتى أحنق أسلوبه ابن عباد، فلم يتمالك أن دق رأسه بدواة كانت بين يديه فأنزل دماغه في حلقه، وأمر به فصلب منكوساً بقرطبة وأمر بمن معه من الفرسان فقتلوا، وبلغ الخبر الفونسو، فأقسم ليغزونه باشبيلية وليحصرنه في عقر داره، وجرّد له بذلك جيشين: زحف أحدهما إلى كورة باحة فاشبيلية، وقاد الثاني بنفسه، ولحق به الأول ونزل بهما قبالة قصر ابن عباد على الضفة الأخرى من نهر الوادي الكبير. ومن مقامه كتب إلى ابن عباد يتهكم" لقد كثر بطول مقامي في مجلسي الذباب واشتد عليّ الحر، فاتحفني من مقرك بمروحة أروح بها عن نفسي واطرد الذباب عن وجهي". فوقع له ابن عباد على الرسالة بخطه" قرأت كتابك وفهمت خيلاءك وإعجابك وسأنظر لك في مراوح من الجلود اللمطية تروح منك لا تروح عليك إن شاء الله[2] وابن عباد يشير بالجلود اللمطية إلى الورق الذي كان يتترس به المرابطون في شمال أفريقيا.

(1) العبادي، عبد الحميد، المجمل في تاريخ الأندلس، ص 173-174.

(2) العبادي، عبد الحميد، المجمل في تاريخ الأندلس، ص 175.

أ) رسالة ابن عباد نيابة عن ملوك الأندلس إلى ابن تاشفين:

إزاء هذه الأوضاع لم يكن أمام الأندلسيين خيار، إما أن يرعوا الخنازير في جبال قشتالة أو أن يرعوا الجمال في صحاري أفريقيا. وقد اختار القوم المصير الثاني، فأثبتوا أنهم برغم كل ما أصابهم من انحراف وتشوه وفساد، في صميمهم مسلمون، يغارون على الإسلام ومصيره وغفر لهم هذا الموقف كثيراً من سيئاتهم.

وقد اجمع القوم على توكيل ابن عباد في استصراخ ابن تاشفين لنصرة الأندلس، وكانوا يعرفون تقصيرهم وعجزهم وإنهم خبوا على أنفسهم وشعبهم وبلادهم ودينهم، وقد انعكس ذلك في الرسالة التي وجهها المعتمد بن عباد باسمه واسم ملوك الأندلس إلى يوسف بن تاشفين يستصرخه لنجدة المسلمين في الأندلس[1]: أما بعد:" فانك أن أعرضت عنا نسبت إلى كرم ولم تنسب إلى عجز، وان أجبنا داعيك نُسبنا إلى عقل ولم ننسب إلى وهم. وقد اخترنا لأنفسنا أجمل نسبتينا فاختر لنفسك أكرم نسبتيك، فانك بالمحل الذي لا يجب أن تسبق فيه إلى مكرمة، وان في استبقائك ذوي البيوت ما شئت من دوام لأمرك وثبوت، والسلام"[2].

ب) جواب يوسف بن تاشفين إلى ملوك الأندلس:

عندما وصلت رسالة المعتمد بن عباد إلى يوسف بن تاشفين رد عليه برسالة جوابية جاء فيها:" بسم الله الرحمن الرحيم، من يوسف بن تاشفين، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، تحية من سالمكم وسلم عليكم، وحُكمه التأييد والنصر فيما حكم عليكم، وإنكم مما بأيديكم من الملك في أوسع إباحة، مخصوصون من بأكرم إيثار وسماحة، فاستديموا وفاءنا بوفائكم، واستصلحوا إخاءنا بإصلاح إخائكم، والله ولي التوفيق لنا ولكم، والسلام"[3].

---

(1) حماده، محمد ماهر، الوثائق السياسية والإدارية، ص 62.

(2) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 6/112-113.

(3) المقري، نفح الطيب، 6/87-88.، ابن خلكان، وفيات الأعيان، 6/112-113.، ابن عذارى، البيان المغرب، 4/112-113.

ج) رسالة المعتمد بن عباد يستصرخ ابن تاشفين لعبور الأندلس

عندما اشتد الأمر ضيقاً بأهل الأندلس عاود ابن عباد إلى مناجاة يوسف ابن تاشفين لعبور الأندلس وإنقاذه من الفونسو وجيشه، فكتب ابن عباد يقول:" إن كنت مؤثراً للجهاد فهذا أوانه، فقد خرج الاذفونش إلى البلاد فأسرع في العبور إليه، ونحن معاشر أهل الجزيرة بين يديك"[1].

وإضافة إلى الرسائل السابقة كانت هناك رسالة مطولة أرسلها المتوكل على الله ملك بطليوس إلى يوسف بن تاشفين يستصرخه لنجدة الأندلس، ويصف تفككها وانحلالها[2].

3. يوسف بن تاشفين ومراسلاته مع ملوك النصارى:

أ) رسالة الفونسو السادس إلى يوسف بن تاشفين والرد عليها

بعد أن توالت رسائل ملوك الأندلس إلى يوسف بن تاشفين من اجل نصرتهم، اخذ أمير المسلمين يوسف بن تاشفين في إعداد العدة لنصرة إخوانه في الأندلس، وعندما وصل خبر الاستعدادات إلى الفونسو كتب هذه الرسالة إلى يوسف بن تاشفين يطلب اللقاء به إما في الأندلس أو في المغرب حتى يتحاربا ويصفو حكم الأندلس للغالب، ومما جاء في الرسالة:" من أمير النصرانية اذفونش بن فردلند إلى يوسف بن تاشفين، أما بعد فانك أمير المسلمين ببلاد المغرب وسلطانهم، وأهل الأندلس قد ضعفوا عن مقاومتي ومقابلتي، وقد أذللتهم بأخذ الجزية منهم وبالقتل والأسر والذل والقهر، وأنا لا اقنع إلا بأخذ البلاد.

وقد وجب عليك نصرتهم لأنهم أهل ملتك، فإما أن تجوز إليّ وإما أن ترسل إليّ المراكب أجوز إليك، فان غلبتني كان مُلك الأندلس والمغرب لك، وان غلبتك انقطع طمع الأندلس من نصرك إياهم، فان نفوسهم متعلقة بنصرتك لهم"[3].

---

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 114/6. ابن عذارى، البيان المغرب، 114/4-115.

(2) عنان، دول الطوائف، ص92-93.

(3) ابن الخطيب، تاريخ المغرب العربي، ص 239.

وكان جواب يوسف بن تاشفين إلى الفونسو السادس عن الرسالة السابقة ما كتبه على ظهر كتاب الفونسو وجاء فيه:" من أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين إلى اذفونش، أما بعد: فان الجواب ما تراه بعينك لا ما تسمعه بأذنك، والسلام على من اتبع الهدى، واتبع الرسالة بقول المتنبي:

ولا كتب إلا المشرفية والقنا ولا رسل إلا الخميس العرمرم[1]

ب) رسالة من الفونسو إلى يوسف والرد عليها:

عندما وصل يوسف بن تاشفين إلى الأندلس استقر في بلدة بطليوس، فظن الفونسو أن يوسف فعل ذلك هرباً من اللقاء، فأرسل إليه رسالة يقول فيها: "ها أنا قد أقبلت أريد ملاقاتك، وأنت تتربص وتختبيء لأهل المدينة"[2].

فأرسل إليه يوسف بن تاشفين رسالة يعرض عليه فيها إما الدخول في الإسلام أو الجزية أو الحرب عملاً بالسنة النبوية، ثم قال له:" وبلغنا يا اذفونش أنك دعوت في الاجتماع بك وتمنيت أن يكون لك فُلك تعبر عليها إلينا، فقد أجزنا إليك، وجمع الله في هذه العرصة بيننا وبينك، وسترى عاقبة دعائك، وما دعاء الكافرين إلا في ظلال"[3].

وقد استشاط الفونسو السادس غضباً من رسالة يوسف بن تاشفين السابقة ورد عليه بخطاب عنيف، فاكتفى يوسف بأن أعاد إليه كتاباً ممهوراً بتلك العبارة:"الذي يكون ستراه"[4].

هذه هي الرسائل التي تبودلت بين الفونسو السادس ويوسف بن تاشفين والتي نستشف من خلالها مدى توعد كل طرف واستعداده لملاقاة الطرف الآخر، وقد انتهى أمر هذه الرسائل إلى لقاء حاسم بين الطرفين وذلك في موقعة الزلاقة.

---

(1) ابن الخطيب، تاريخ المغرب العربي، ص 239.

(2) ابن بلقين، مذكراته، ص 105.

(3) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 115/6،، ابن عذارى، البيان المغرب، 115/4.

(4) عنان، دول الطوائف، ص 323.

4. موقعة الزلاقة 1086/479:

أ) سبب المعركة:

نتيجة للظروف التي عاشتها الأندلس زمن ملوك الطوائف وما عانته من مضايقة الفونسو السادس قرر أهل الأندلس الاستعانة بالأخوة المرابطين في العدوة المغربية، حيث أقاموا دولة مجاهدة، وكان يوسف بن تاشفين أميرها -في ذلك الوقت- مشهوراً بتقواه وجهاده وحسن إدارته وسياسته.

مضت عدة سنوات على فكرة الاستعانة بالمرابطين، نمت خلالها، لكنها ظهرت قوية، أثناء سقوط طليطلة وبعد سقوطها، عقد في قرطبة اجتماع حضره الزعماء والفقهاء وكثير من الناس، منهم المعتمد بن عباد، اتخذ فيه قرار الموافقة على استدعاء المرابطين إلى الأندلس للنصرة، وأشير- خلاله- إلى التخوف من نتائج ذلك، فأجاب المعتمد بكلمته السائرة مثلاً "رعي الجمال خير من رعي الخنازير"[1].

عندها دعا المعتمد غيره من ملوك الطوائف إلى هذا الأمر، فاجتمعوا لاتخاذ ترتيبات عبور هذا الوفد إلى العدوة ودعوة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، الذي استجاب عقيدة في الله وجهاداً في سبيله وإعلاءً لرايته وإنقاذاً لأخوة الدين.

والظاهر أن فكرة استدعاء المرابطين سبقت سقوط طليطلة(478هـ) حوالي عقد من السنين[2]. ولدينا - في هذه الأحداث- مسألتان بحاجة إلى تجلية وبيان ومناقشة:

أولاً: عدم وضوح تسلسل بعض الأحداث.

ثانياً: مَن الآخذ زمام المبادرة في استدعاء المرابطين؟

---

(1) ابن الخطيب، أعمال الإسلام، 245/2، ابن خلكان، وفيات الأعيان، 115/7. ابن عذارى، البيان المغرب، 14/4. الحميري، الروض المعطار، ص 85.

(2) عنان، دول الطوائف، ص 315، 92-316.

المسألة الأولى: يذكر بعض المؤرخين-خلال حديثهم عن استدعاء المرابطين-أموراً بعضها غير واضح موضعها في التسلسل وزمن الحدوث، ذلك:

1) أن الفونس السادس أرسل سفارة إلى المعتمد بن عباد عام 1082/475 غرضها تسلم الأموال التي تعهد المعتمد بتأديتها إلى ملك قشتالة[1]. أو انه كانت للسفارة مهمة أخرى، زيادة على استحصال الضريبة التي يدفعها المعتمد لالفونس، إذ أن السفارة سألت المعتمد السماح لزوجة الفونسو أن تلد في مسجد قرطبة الجامع، حسب إشارة القسيسين والأساقفة، كما سألوا أن تنزل الزوجة في مدينة الزهراء، حسب إشارة الأطباء[2].

وكان ابن شاليب اليهودي-وزير الفونس-رئيس هذه السفارة، وبصحبته عدد من الفرسان القشتاليين[3].

جرت المفاوضات مع المعتمد مباشرة في اشبيلية، وأرسل ممثليه وفي مقدمتهم وزيره أبا بكر بن زيدون إلى ظاهر اشبيلية حيث يعسكر الوفد القشتالي، لكن السفير القشتالي شط في مطالبه، كما في أسلوبه المملوء بالتهديد، وانتهى الأمر بقتل هذا السفير واعتقال بقية الوفد. تطورت الأمور، وأقسم الفونس أن ينتقم بشدة، فجهز جيشاً ضخماً من مناطق أسبانيا النصرانية كلها، وأرسل سرايا تعبث في أراضي غرب الأندلس(باجة، لبله، اشبيلية). وسار هو في جيش آخر صوب اشبيلية، يحرق في طريقه الزروع وينسف العمران، محاصراً اشبيلية لأيام، ثم انحدر جنوباً حتى وصل مدينة طريف، لكن هل عاد إلى محاصرة اشبيلية-بعد ذلك-أم عاد إلى طليطلة.

---

(1) ابن الخطيب، أعمال الإسلام، 244/2. عنان، محمد، دول الطوائف، ص 73.

(2) المقري، نفخ الطيب، 357/4-358.، الحميري، الروض المعطار، ص 84.

(3) ابن الخطيب، م.س. ، 159/2.

2) تذكر بعض مراجعنا أن الفونس كتب-أثناء محاصرته لاشبيلية-رسالة إلى المعتمد بن عباد، وأجابه المعتمد عليها. هل كان ذلك قبل وصول الفونس إلى طريف أم بعده. وهذا نص يتضمن الرسالة ويتعلق بالفقرة السابقة، بعد ذكر السرايا التي سبقت الفونس يقول الحميري:"ثم زحف ابن فردلند بنفسه في جيش آخر عرمرم، فسلك طريقاً غير طريق صاحبه، وكلاهما عاث في بلاد المسلمين وخرب ودمر، حتى اجتمعا لموعدهما بضفة النهر الأعظم، قبالة مقر ابن عباد وفي أيام مقامه هناك كتب إلى ابن عباد زارياً عليه:"كثر بطول مقامي في مجلسي الذباب، واشتد الحر، فألق من مقرك بمروحة أُروح بها عن نفسي، واطرد بها الذباب عني". فوقع له ابن عباد بخط يده في ظهر الرقعة:" قرأت كتابك، وفهمت خيلاءك وإعجابك، وسأنظر في مراوح من الجلود اللمطية[1] في أيدي الجيوش المرابطية، تروح منك لا تروح عليك ان شاء الله تعالى"، فلما ترجم لابن فردلند توقيع ابن عباد في الجواب، أطرق إطراق من لم يخطر له ببال[2]، يشير هذا إلى أن الفونس فهم إشارة ابن عباد، فكان استدعاء المعتمد للمرابطين[3].

ترتيب هذه الأحداث غير واضح، بالنسبة لوقت حدوثها مع تاريخ سقوط طليطلة(478هـ)، ويبدو أنها هكذا متتابعة في الزمن.

المسألة الثانية:معروف أن المعتمد بن عباد هو الذي اخذ زمام المبادرة في استدعاء المرابطين." ومما يؤثر من فضائله، ويعد في زهد مناقبه، استعانته على الروم بملك المغرب حينئذ -وهو يوسف بن تاشفين-وسعيه في استقدامه، وجده في ملاقاة الطاغية ملك النصارى، والإيقاع به في الموقع المعروف بالزلاقة[4]. وتم

(1) الجلود اللمطية: نسبة إلى مدينة لمطة بالمغرب(بلدة عند السوس الأقصى).

(2) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 91.، المقري، نفخ الطيب، 358/4.، ابن عذارى، البيان المغرب، 114/4.، الحميري، الروض المعطار، ص 85.

(3) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، 159/2، 245/2.

(4) ابن الأبار، الحلة السيراء، 54/2-55.، المراكشي، المعجب، 190-191.، ابن الخطيب، م.س.، 159/2.

هذا الاستدعاء بعد سقوط طليطلة عام 478 هـ[1]. إذ بعدها كثرت رسل الأندلس على يوسف بن تاشفين تحمل إليه فزع أهلها وتحثه على إنقاذهم، وهو مما يقتضيه واجبه الإسلامي نحو إخوانه[2].

ولكن ترتيب هذه الأحداث لا يبدو أنه وقع بهذا الشكل دون غيره، ولا كان المعتمد بن عباد آخذاً زمام المبادرة في دعوة المرابطين لإنقاذ الأندلس. ذلك:

1) يذكر ابن الخطيب أن المعتمد بن عباد خاطب يوسف بن تاشفين غرة جمادى الأولى من سنة 478 هـ، يستأذنه في القدوم عليه لتقرير أحوال الأندلس[3]. يعني أن هذا الاستدعاء تم بعد ثلاثة شهور من سقوط طليطلة الذي وقع في محرم نفس العام، 478/مايو 1085. في حين مر معنا أن فكرة استدعاء المرابطين كانت لدى المعتمد بن عباد وغيره قبل سقوط طليطلة بمدة، فأخرجها سقوط طليطلة للتنفيذ. حيث أرسل المعتمد وفداً -مع وفود أخرى لأمراء الطوائف-إلى يوسف بن تاشفين في العدوة المغربية. وتزيد بعض المصادران المعتمد ذهب بنفسه إلى المغرب والتقى بأمير المسلمين المرابطي في سبتة أو فاس[4].

2) لكن نجد أن فزع أهل الأندلس ووفوداً منهم سبقت هذه السفارة إلى يوسف ابن تاشفين، فقد ذكر:" كان يوسف بن تاشفين لا تزال تفد عليه وفود ثغور الأندلس، مستعطفين، مجهشين بالبكاء، ناشدين الله والإسلام، مستنجدين بفقهاء حضرته، ووزراء دولته، فيستمع إليهم، ويصغي لقولهم وترق نفسه لهم"[5].

(1) ابن الخطيب، م.س.، 245/2.

(2) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص 89-90.

(3) ابن الخطيب، م.س.، 245/2.

(4) المراكشي، المعجب، ص 19.، المقري، نفح الطيب، 359/4.، ابن الخطيب، أعمال الإسلام، 246/2.، ابن الأبار، الحلة السيراء، 286/2.، عنان، دول الطوائف، ص 77.

(5) المقري، م.س.، 359/4-360.، ابن الخطيب، م.س.، 243/2.، الحميري، الروض المعطار، ص 86.

أول تدخل ليوسف بن تاشفين في الأندلس

معنى ذلك: كانت وفود ومراسلات من الأندلس إلى يوسف بن تاشفين قبل سفارة المعتمد بن عباد إليه. ويبدو أنه يوم وصلت رسل المعتمد-برفقة آخرين- كان يوسف بن تاشفين يعد العدة للعبور إلى الأندلس لنجدة أهلها.ونص ابن الآبار الآتي يعين على فهم هذا الأمر:"وازدلف خلال ذلك إلى سبتة أمير المغرب حينئذ-أبو يعقوب يوسف بن تاشفين اللمتوني-حسبة ورغبة في الجهاد، وقد دانت له بلاد العدوة وسأل سقوت بن محمد صاحب سبتة أن يبيح له فرصة الإجازة إلى الأندلس، فأبى وتمنع من ذلك، فأفتى الفقهاء بقتاله لصده عن سبيل الله، فقتل هو وابنه في خبر طويل. وفتح الله على ابن تاشفين سبتة، وأمكنه الحصول على مراده بذلك. وعلم المعتمد بن عباد تصميمه على نيته، فخاطب جاريه صاحب بطليوس وصاحب غرناطة، في تحريك قاضييها إلى حضرته للاجتماع بقاضي الجماعة بقرطبة. فوصل من بطليوس قاضيها أبو اسحق بن مقانا، ومن غرناطة قاضيها القليعي، واجتمعا في اشبيلية بالقاضي أبي بكر بن ادهم، وانضاف إليهم الوزير أبو بكر محمد بن الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون. وتوجهوا جميعاً إلى ابن تاشفين، على شروط لا تتعدى إلى غيرها، ووصلوا إلى الجزيرة الخضراء -وعليها يزيد بن المعتمد، الملقب بالراضي-ثم أجازوا البحر منها، واجتمعوا بابن تاشفين مرة بعد مرة، وتفاوضوا في مكان تنزله العساكر، فأشار ابن زيدون بجبل طارق[1].

3) يتبين من النصوص الواردة في الفقرة السابقة-أن استعداد أمير المرابطين لعبور الأندلس كان قبل سقوط طليطلة(478هـ)، الذي تلته سفارة المعتمد إلى ابن تاشفين. ذلك أن مقتل سقوت-الذي ذكره ابن الآبار في نصه السابق- كان سنة 476 هـ. ويشير هذا إلى أن اخذ المبادرة في دعوة المرابطين لم تكن من المعتمد أمير اشبيلية، وأن دعوتهم كانت قبل سقوط طليطلة (478 هـ) بعدة سنوات.

---

(1) ابن الآبار، م.س.، 2/98-99.، ابن عذارى، البيان المغرب، 3/250.،4/112-115.، ابن خلكان، وفيات الأعيان، 7/113-116.

4) يبدو-على ذلك-أن دعوة المرابطين جاءت من عدد من الأندلسيين، من المسؤولين فيها ومشايخها[1] وكانت لدعوة الفقيه أبي الوليد الباجي المبكرة وأمثاله بداية الوجهة. ويظهر في موقف المتوكل عمر بن الأفطس بداية الدعوة، كثير من المبادرة، أدرك المتوكل بن الأفطس(عمر بن محمد) -صاحب بطليوس[2]-منذ وقت سابق، ضرورة عمل شيء ضد قوى أسبانيا النصرانية وحملات الفونس.

تولى ابن الأفطس حكم بطليوس سنة 1072/464.أراد ان يكون صفاً واحداً من ملوك الطوائف في وجه الخطر المتزايد. وكان قد أرسل أبا الوليد الباجي إلى أمراء الطوائف يدعوهم لذلك. وليس واضحاً تاريخ إرسال الباجي لهذه الدعوة. لكن إذا علمنا أن وفاة الباجي كانت سنة 1081/474، نجد من الصواب أن نضع محاولات المتوكل هذه قبل سقوط طليطلة بعقد من السنين -على الأقل-. لكن لما لم يجد المتوكل نجاحاً مرضياً ولم تلق دعوته استجابة كافية أو تقد إلى عمل جاد مفيد في هذا الشأن، اتجه بفكره ثم بفعله نحو المرابطين في عدوة المغرب، فكاتب أميرهم يوسف بن تاشفين[3].

كانت فكرة المتوكل بن الأفطس مبكرة في استدعاء المرابطين لنجدة الأندلس مع انه ليس بالإمكان اعتبار المتوكل الآخذ أولاً بهذا الاستدعاء لأخوة العدوة إلا أن اتجاهه في هذا كان قبل قيام المعتمد بها بعدة سنوات، ويفهم هذا من مجريات الأحداث السابقة، ومعقول كذلك أن يكون المتوكل مسبوقاً في ذلك بأحد الأمراء أو العلماء أو غيرهم في استدعاء المرابطين.

أورد صاحب الحلل الموشية حين الحديث عن دولة المرابطين وأميرها يوسف بن تاشفين، انه" في سنة أربع وسبعين وأربعمائة للهجرة، وفد عليه جماعة من الأندلس شكوا إليه ما حل بهم أعدائهم، فوعدهم بمرادهم وأعانهم. وكان ممن

---

(1) ابن الخطيب، أعمال الإسلام، 545/2.

(2) ابن الآبار، الحلة السيراء، 96/2 وما بعدها.

(3) م.ن.، 99/2.، عنان، محمد، دول الطوائف، ص 92.

كتب إليه حين ذلك المتوكل على الله بن الأفطس" 474 هـ تاريخ كتابة المتوكل إلى أمير المرابطين- وهي سنة وفاة أبي الوليد الباجي- من عرفنا بجهده وطول جهاده في الدعوة إلى التوحد، مثلما تحمل الدعوة إلى الاستعانة بالمرابطين.

وسبق إيراد قول القاضي عياض في ترتيب المدارك عن الباجي انه " توفي بالمرية سنة أربع وسبعين لسبع عشرة خلت من رجب، وكان جاء إلى المرية صغيراً بين رؤساء الأندلس، يؤلفهم على نصرة الإسلام.ويروم جمع كلمتهم مع جنود ملوك المغرب المرابطين على ذلك، فتوفي قبل تمام غرضه رحمه الله".

تبنى المتوكل بن الأفطس دعوة الباجي إلى القضيتين المهمتين:

1) الدعوة إلى توحيد الأندلس وجمع كلمة ملوكها.

2) الاستعانة بالمرابطين لنصرة الإسلام في الأندلس.

انتشرت فكرة استدعاء المرابطين في الأندلس، حتى جعل سقوط طليطلة فيها ضربة لازب، فتتت كل اعتراض وإطارت أي تخوف. ثم كان المؤتمر الذي دعا إليه المعتمد. وأفضى إلى إرسال وفد من المغرب، مستصرخاً أمير المرابطين، حيث كان ابن تاشفين يتهيأ للأندلس بعد أن وصلته الرسائل والوفود.

لعل سير الحوادث المتعلقة بهذه المسألة وتطوراتها تمت بالشكل المذكور أعلاه، أو قريباً منه، ومهما يكن من أمر فان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين تجهز للعبور إلى الأندلس لنجدة إخوانه، فكانت وقعة الزلاقة الشهيرة.

ب) مكانها وزمانها

أجمعت المصادر على أن معركة الزلاقة وقعت في الأندلس في سهل من عمل بطليوس وأحوازها. ويقع هذا السهل على بعد اثني عشر كيلو متراً شمال شرق بطليوس في العدوة الشمالية لوادي يانة[1]. وفيه سهل تتخلله الأحراش على بعد بضعة أميال من بطليوس[2]. وسمته الرواية العربية بالزلاقة أو السهلة، وتسميه الرواية النصرانية" سكر الياس" Sacralias[3]. وقيل اسم أطلقه المسلمون على مكان قرب بلدة باداجوز[4].

وأجمعت المصادر على أن معركة الزلاقة وقعت سنة 1086/479[5] كما أجمعت المصادر نفسها على أنها وقعت يوم الجمعة، ولكنها اختلفت في تحديد الشهر، فبعض هذه المصادر أجمع على أنها وقعت في الثاني عشر من شهر رجب[6] وبعضها الآخر ذكر أنها وقعت في شهر رمضان[7]، أما ابن دينار فقد انفرد بالقول بان المعركة وقعت سنة 1085/478[8].

وبصدد اليوم الذي وقعت فيه المعركة ذكرت بعض الروايات أن الفونسو ملك النصارى كتب إلى أمير المرابطين ما معناه:" إن غداً يوم الجمعة وهو يوم المسلمين ولست أراه يصلح للقتال، واليوم التالي وهو السبت يوم اليهود ومنهم كثيرون من العسكريين، وإذا فلست اختاره للقتال أيضاً. كذلك لست اختار اليوم التالي وهو يوم الأحد لأنه يوم النصارى، وعلى ذلك فإنني اقترح للقتال يوم الاثنين، ففيه يستطيع كل منا أن يجاهد بكل قواه لإحراز النصر دون الإخلال

---

(1) الحجمي، عبد الرحمن، التاريخ الأندلسي، ص 405.

(2) ابن أبي دينار، المؤنس، ص 104.، بيضون، الدولة العربية، ص 378.

(3) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 94.

(4) Elevi-Provencal.Encyclopedie de Isl.V.8.p.1205.

(5) المراكشي، المعجب، ص 132.، الناصري، الاستقصا، 111/1.،الذهبي، العبر، 293/3.، ابن الأبار، الحلة السيراء، 100/2.، ابن خلكان، وفيات الأعيان ، 116/7.

(6) المراكشي، م.س.، ص 132.، الناصري، م.س.، 111/1.، ابن الأبار، م.س.، 10/2.، ابن خلكان، م.س. ، 116/7.

(7) الذهبي، م.س.، 293/3.، العبادي، عبد الحميد، المجمل، ص 176.

(8) ابن أبي دينار، م.س.، ص 104.

بيومه[1] غير أن الفونسو غدر ونكث بوعده واختار يوم الجمعة وهو عيد المسلمين ليكون يوم اللقاء وهذا ما سنراه في حينه.

ج) تعداد الجيوش

تختلف الروايات في تقدير عدد الجيش، فتقول بعض الروايات أن عدد جيش النصارى بلغ مائتي ألف راجل وثمانين ألف فارس[2]. وتذكر رواية أخرى أنهم كانوا ثمانين ألفاً، منهم أربعون ألفاً من ذوي الدروع الثقيلة[3]. وتبدو هذه التقديرات مبالغ فيها، وتبدو مبالغة الرواية النصرانية بنوع خاص حين تقدر جيوش المسلمين بمئات الألوف[4].

لكن الروايات الإسلامية المعتدلة لا تذهب في التقدير إلى هذا الحد، فمثلاً يقدر ابن الأثير جيش النصارى بخمسين ألف مقاتل[5]. بينما يذكر المقري بأنهم كانوا أربعين ألفاً غير الأتباع[6].

وتذكر الروايات الإسلامية أن عدد جيش المسلمين بلغ ثمانية وأربعين ألف مقاتل منهم أربعة وعشرون ألف فارس ما بين دارع وحاسر من فرسان الأندلس، وأربعة وعشرين ألفاً من المرابطين وأهل المغرب[7]، بينما ذكرت رواية أخرى أن عدد جيش المسلمين بلغ عشرين ألفاً[8]. وخلاصة القول فان عدد جيش النصارى قد يكون خمسين ألفاً أو يزيد، ودون شك فان الجيش الإسلامي أقل من ذلك، وقد يصل إلى النصف.

---

(1) أشباخ، تاريخ الأندلس، ص 82.

(2) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 90.، ابن أبي دينار، م.س.، ص

(3) مجهول، الحلل الموشية، ص 38.

(4) أشباخ، تاريخ الأندلس، ص 80-81.

(5) ابن الأثير، الكامل، 152/10.

(6) المقري، نفخ الطيب، 278/2.

(7) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 38.

(8) المراكشي، المعجب، ص 71.

ويذكر صاحب الروض المعطار أن الفونس قال حين نظر إلى جيشه: " بهؤلاء أقاتل الجن والإنس وملائكة السماء. فالمقل يقول: كان هؤلاء المختارون من أخياره أربعين ألف دارع، ولا بد لمن هذه صفته أن يتبعه واحد أو اثنان، وأما النصارى فيتعجبون ممن يزعم ذلك ويقوله. واتفق الكل أن عدة المسلمين كانت أقل من النصارى[1].

د) رسالة ابن تاشفين لألفونسو لما خرج لملاقاته

لقد بعث يوسف بن تاشفين كتاباً لالفونسو على مقتضى السنة يعرض عليه الدخول في الإسلام أو الحرب أو الجزية، ومما جاء في هذه الرسالة:" بلغنا يا أذفونش أنك دعوت في الاجتماع بنا، وتمنيت أن يكون لك فُلك تعبر البحر عليها إلينا، فقد أجزناه لك، وجمع الله في هذه العرصة بيننا وبينك، وسترى عاقبة دعائك[2]،" وما دعاء الكافرين إلا في ظلال"[3]. فلما قرأ الفونسو الكتاب أنحاه على الأرض مغضباً وقال لرسول يوسف بن تاشفين: اذهب فقل لمولاك إننا سنلتقي في ساحة الحرب[4] فأجابه يوسف بن تاشفين بان كتب على ظهر الرسالة" الذي يكون ستراه"[5].

فلما عاد الكتاب إلى الاذفونس ارتاع لذلك، وعلم أنه بلي برجل له عزم وحزم، فازداد استعداداً، فرأى في منامه كأنه راكب فيلاً، وبين يديه طبل صغير، وهو ينقر فيه، فقص رؤياه على القسيسين فلم يعرفوا تأويلها، فاحضر رجلاً مسلماً، عالماً بتعبير الرؤيا، فقصها عليه، فاستعفاه من تفسيرها، فلم يعفه، فقال:

---

(1) الحميري، الروض المعطار، ص 88.

(2) مجهول، الحلل الموشية، ص 35.، ابنمقري، نفخ الطيب، 527/2، ابنن خلكان، وفيات الأعيان، 483/2.، الناصري، الاستقصا، 114/1.

(3) سورة غافر، الآية 50.

(4) أشباح، تاريخ الأندلس، ص 82.

(5) المقري، م.س.، 361/4.

تأويل هذه الرؤيا من كتاب الله العزيز، وهو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفِيلِ﴾ [1] وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ(8) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ(9) عَلَى الكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ(10)﴾[2]، ويقتضي هلاك هذا الجيش الذي تجمعه[3].

فلما اجتمع جيشه رأى كثرته فأعجبته، فاحضر ذلك المعبر، وقال له: بهذا الجيش ألقى اله محمد، صاحب كتابكم، فانصرف المعبر، وقال لبعض المسلمين: هذا الملك هالك، وكل من معه[4].

ه) أحداث المعركة:

جرت الاستعدادات في المعسكرين بكل أشكالها، وبالحث على الحرب والصبر فيها،" وقامت الأساقفة والرهبان فرفعوا صُلبهم، ونشروا أناجيلهم، وخرجوا يتبايعون على الموت، ووعظ يوسف وابن عباد أصحابهما، وقام الفقهاء والعباد يعظون الناس ويحضونهم على الصبر ويحذرونهم الفرار، وجاءهم الطلائع بخبر أن العدو مشرف عليهم صبيحة يومهم، وهو يوم الأربعاء، فأصبح المسلمون قد اخذوا مصافهم، فكع[5] ابن فردلند ورجع إلى أعمال الخديعة، ورجع الناس إلى محلاتهم وباتوا ليلتهم[6].

وكان الفونسو قد كاتب ابن عباد ويوسف بن تاشفين وحدد لهم يوم اللقاء بيوم الاثنين الخامس عشر من رجب سنة 479 هـ، ولكن ابن عباد وابن تاشفين أدركا هذه الخديعة، وأكدت ذلك أخبار استعداد معسكر النصارى، فاتخذ المسلمون الحذر، وبات الناس ليلتهم على أهبةٍ واحتراس بجميع المحلات، خائفين من كيد العدو، وبعد مضي جزء من الليل انتبه الفقيه الناسك

---

(1) سورة الفيل، الآية 1.

(2) سورة المدثر، الآية 8.

(3) ابن الأثير، الكامل، 153/10.

(4) م.ن.

(5) كع: جبن وضعف.

(6) الحميري، الروض المعطار، ص 88.، المقري، نفخ الطيب، 363/4.

-أبو العباس أحمد بن رميلة القرطبي-وكان في محلة ابن عباد فرحاً مسروراً، يقول انه رأى النبي صلى الله عليه وسلم، فبشره بالفتح والشهادة له في صبيحة غد. وتأهب ودعا ودهن رأسه وتطيب. وانتهى ذلك إلى ابن عباد، فبعث إلى يوسف فخبره بها تحقيقاً لما توقعه من غدر ابن فردلند، فحذروا أجمعين، ولم ينفع ابن فردلند ما حاوله من الغدر"[1].

فلما كان صباح الجمعة الثاني عشر من رجب سنة 479، زحف الفونسو بجيشه على المسلمين-كان أمير المسلمين قد جلب مع جيشه إلى الأندلس الجمال، فكانت ذات نفع- ودارت معركة حامية الوطيس، عنيفة الحركة، شديدة الغراب، غير أن ابن عباد هزم عند أول لقاء، ودارت الدائرة عليه وعلى جيشه، ولكن ابن عباد بالرغم من ذلك أبلى بلاءً حسناً، ثم أرسل كاتبه ابن القصيرة إلى يوسف بن تاشفين، فركب يوسف من فوره على رأس قواته، وقصد محلة الفونسو،" فاقتحمها وأضرمها ناراً، وضرب طبوله، فاهتزت لها الأرض، وتجاوبت الآفاق، فارتاعت قلوبهم، وتخلخلت أفئدتهم، ورأوا النار تشتعل في محلتهم، واتاهم الصريخ بهلاك أموالهم وأخبيتهم. فسقط في أيديهم، فألووا أعنتهم ورجعوا قاصدين محلتهم، فالتحمت الفئتان، واختلطت الملتان، واشتدت الكرة، وعظمت الهجمات(...) فأمن الله المسلمين وقذف الرعب في قلوب المشركين، وتحطموا بين عسكر ابن عباد وعسكر يوسف بن تاشفين"[2].

وقد ظهرت في هذه المعركة براعة الجيش الإسلامي والقائدين ابن عباد وابن تاشفين. بدا فيها أمير المسلمين ليس فقط فارساً صوالاً جوالاً بل ذا مقدرة عسكرية يبتكر الخطط المناسبة أثناء المعركة. فما أن اشتدت المعركة واختل المعسكر الإسلامي حتى دفع ابن تاشفين إلى قلب معسكر العدو بمجموعة، ثم حمل نفسه بالقوة الاحتياطية إلى المعسكر القشتالي، فهاجمه بشدة، ثم اتجه صوب مؤخرته فأثخن فيه وأشعل النار، وهو على فرسه يرغب في الاستشهاد، وقرع

---

(1) الحميري، م.ن.، ص 90-91.، المقري، م.س.، 4/365-369

(2) مجهول، الحلل الموشية، ص 43.

الطبول يدوي في الآفاق، قاتل المرابطون في صفوف متراصة ثابتة، مثل بقية أجنحة المعركة. وما أن حل المغرب حتى اضطر الفونس، وقد أصيب هو نفسه، إلى الانسحاب حفاظاً لحياة من بقي. طورد الفارون في كل مكان حتى دخل الظلام، فأمر ابن تاشفين بالكف. وقد استمرت المعركة يوماً واحداً لا غير،" وقد حطم الله شوكة العدو الكافر، ونصر المسلمين واجزل لديهم نعمه، واظهر بهم عنايته، وأجمل لديهم صنعه"[1] وتسلل في الظلام مع الفونسو حوالي خمسمئة فارس -مثخنين جراحاً-متجهين إلى طليطلة حيث توفي أكثرهم في الطريق، ولم يدخل معه طليطلة إلا حوالي مئة فارس[2].

وقد صور ابن عباد ما حدث في هذه المعركة أجمل تصوير في رسالته لابنه يصف المعركة: كتابي هذا(...) وهزم الكفرة المشركين وأذاقهم العذاب الأليم والخطب الجسيم، فالحمد لله على ما يسره وسناه من هذه المسرة العظيمة والنعمة الجسيمة في تشتيت شمل الفونس والاحتواء على جميع عساكره(...) بعد إتيان النهيب على محلاته واستئصال القتل في جميع أبطاله وحماته، حتى اتخذ المسلمون من هاماتهم صوامع يؤذنون عليها[3].

ولقد أبلى المعتمد نفسه في هذه المعركة أحسن البلاء وأعظمه، وذلك بشهادة يوسف بن تاشفين نفسه الذي أرسل رسالة يشرح المعركة وظروفها إلى تميم بن المعز بن باديس في المهدية بعد انتهائها:(...) ولجأ-أي المعتمد بعد أن هاجم جيش الفونسو جيشه وتخلى عنه الجميع-في الأخبية بعد أن عاين المنية، وتخلصه الله بنيته في المسلمين وبلغه أمنيته، بعد أن وقف وقفة بطل مثله، لا احد يرد عليه، ولا فارس من فرسانه وعبيده يرجع إليه، لا يروعه احد منهم فيهزم، ولا يهاجم فيسأم(...)[4].

---

(1) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، 244/3.

(2) الحميري، الروض المعطار، ص 93.

(3) المقري، نفخ الطيب، 102/6.

(4) ابن عذارى، البيان المغرب، 132/4-135.، عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 446-450.

ثم يقص يوسف ما جرى بعد ذلك من وصول الصريخ إليه وهجومه بجيشه على الفونسو والتحام المعركة، وانظر إلى قوله لنفسه واتباعه: هذا آخر يومنا من الدنيا فلتموتوا شهداء(...)[1]فثبت الله أقدامنا وقوّى أفئدتنا والملائكة معنا، والله تعالى ولي النصر لنا، فولوا هاربين وفروا ذاهبين[2]. وانظر إلى تواضعه واعتماده على الله تعالى لا إلى نفسه أو جيشه أو شجاعته، مع أنهم بذلوا أقصى ما يتوقع بذله من الشجاعة في تلك المعركة الضارية حتى تمكنوا من تحقيق النصر:(...) وتساقط أكثرهم بقدر الله تعالى دون طعنة تلحقه ولا ضربة تثخنه[3].

ويبدو أن المرابطين استخدموا سلاحاً جديداً لم يعرفه الإسبان وهو الخناجر المقوسة التي كان المرابطون يطلقون عليها اسم الطاس أو الإطاس، فيروى أن احد عبيد يوسف بن تاشفين استطاع أن يصل إلى الملك الفونسو السادس ويطعنه في فخذه، فصاح الملك مذعوراً:" طعنني أحد العبيد بمنجل"[4].

وقد عقّب صاحب كتاب الاكتفاء على انتصار الزلاقة بقوله:" ولجأ الفونسو إلى جبل منيع في نحو ثلاثمائة فارس من رجاله، وكان قد وصل في ستين ألف من أنجاد أبطاله، فلما جن عليه الليل، وأمن من أن تتبعه الخيل، انسل إلى طليطلة مهزوماً جريحاً حزيناً مكلوما.

موكلاً بيفاع[5]الأرض يفرعه[6] من خفة الخوف لا من خفة الطرب[7]

(1) ابن عذارى، البيان المغرب، 4/132-135.، عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 446-450

(2) م.ن.

(3) م.ن.

(4) مجهول، الحلل الموشية، ص 48.

(5) اليفاع:المرتفع.

(6) يفرعه:يعلوه ويشرف عليه.

(7) هذا البيت من قصيدة أبي تمام التي مدح بها الخليفة العباسي المعتصم بالله بمناسبة فتح عمورية ومطلعها:

السيف اصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

(انظر ديوان أبي تمام، 1/74).

وثبتت بسببها بلاد كثيرة[1]. وابتدأ المسلمون بقطع رؤوس النصارى، وبنوها كالصوامع في صحون الجوامع، وقام المؤذنون في أعلاها بالآذان ثلاثة أيام، وتراجع إلى المحلة كل من سلم من المسلمين، وتنفس لهذه الهزيمة مخنق الجزيرة، وهكذا محت قوات المرابطين العار الذي لحق ملوك الأندلس، من مذلة الفونسو السادس لهم.

و) نتيجة المعركة وأهميتها بالنسبة للمسلمين

تركت هذه المعركة تأثيراً عميقاً على مسار الأحداث في الأندلس، في وقت بلغت فيه حافة النهاية، وعانت أسوأ الظروف على الصعد السياسية والاجتماعية، وقد بالغ المؤرخون في وصف هذه المعركة ونتائجها، حيث أدرجوها بين المواقع العظيمة التي شهدتها تلك البلاد مثل" وادي لكة" و" المصارة".

والواقع أن هذا التصور ينطوي على شيء من المبالغة، لأن أي معركة مهما عظمت، لم تكن قادرة حينذاك على تغيير حركة التاريخ التي بدا أنها اتخذت مسارها الآخر. وكان السلطان المنتصر مدركاً لهذه الحقيقة، بعد أن صدمته مواقف أمراء الطوائف وتناقضاتهم، مما حمله على العودة إلى المغرب تاركاً جنوده في الأندلس بعد أن ضاق بأجوائها المريبة.

وإذا نظرنا إلى الناحية المباشرة في نطاق الفتح والغلبة، لم تعد معركة الزلاقة حاسمة، لأن يوسف لم يقطف ثمراتها بالإلحاح المستمر على جيوش الفرنجة وتعقب النصر إلى النهاية، حسبما كان يود المعتمد بن عباد، ثم أن معركة لبيط التي خلفتها، واستدعت من يوسف جوازاً ثانياً- كما سنرى في الفصل الثالث - ولم تأت بشيء من النصر، قد ضعضعت من قيمة النصر الجزئي الذي حققته الزلاقة[2].

---

(1) العبادي، أحمد مختار، في تاريخ المغرب والأندلس، ص 333.

(2) السامرائي، عصر الطوائف والمرابطين، ص 28.

أما لبيط فانه حصن منيع تتمركز حوله جهود المقاومة الأجنبية ولذلك اجتمعت حوله الجيوش المتحدة، جيوش أمراء الطوائف وجيوش المرابطين، ولكنها ارتدت عنه متفرقة الكلمة، مما جعل يوسف يسيء الظن بالمعتمد في تجميعه قوى الهجوم على هذا الحصن، وهذا يتجلى من قوله:"إنما قصد ابن عباد أن يرينا صعوبة قتال الحصون المنيعة وأن بلاده ذوات معاقل صعبة"[1].

وكان انتصار المسلمين فاتحة خير وبركة، ولا غرو فقد أثار هذا النصر إعجاب المسلمين بيوسف بن تاشفين، ولهجت الألسنة بإطرائه والثناء عليه، ودعوا له على منابرهم، وقد عبر يوسف عن رغبته في زيارة الأندلس ومشاهدة معالمها، وكان خلال زيارته يظهر إعجابه بمواهب المعتمد ويشيد بكرم ضيافته، وكان يظهر الحنين إلى مراكش حاضرة ملكه ويُصغّر من شأن الأندلس، وهو كما يقول المراكشي[2]:"يسر حسوا في ارتغاء"[3].

وقد علق أشباح على هذه الموقعة فقال: "أن يوسف بن تاشفين لو استطاع أن يستغل نتائج انتصاره في موقعة الزلاقة، لكانت أوروبا الآن تدين بالإسلام، ولرأينا القرآن يدرس في جامعات موسكو وبرلين ولندن وباريس"[4].

---

(1) م.ن.

(2) المراكشي، المعجب، ص 135.

(3) مثل يضرب لمن يريد أن يعينك وإنما يقصد النفع لنفسه: كمن يؤتى بوعاء من اللبن ويظهر أنه يريد الرغوة خاصة لا يريد غيرها، وهو في أثناء ارتغائه يحسو اللبن جرعة جرعة.

(4) أشباح، تاريخ الأندلس، ص 117، كونن، عبد الله، المدخل، ص 48.، المراكشي، م.س.، ص 178.، ابن أبي زرع، روض القرطاس، 2/63.، الناصري، الاستقصا، 2/41.

ولقد كان لانتصار المسلمين في الزلاقة عدة نتائج هي:

1. حرر سرقسطة وحماها من الوقوع في أيدي القشتاليين، وكانوا يحاصرونها عندما نزلت قوات المرابطين الأندلس.
2. أحدث تغييراً مفاجئاً في مجرى حركة الاسترداد التي خططها الفونسو السادس، فقد أرسل الفونسو بعد هزيمته في الزلاقة طالباً العون من أمراء الأقاليم الجنوبية بفرنسا، مهدداً لهم في حالة عدم مساعدتهم له بمحالفة المسلمين، فاخذ الفرنسيون يتنافسون في تنظيم حملة كبيرة. ولكن الفونسو عدل عن خطته في الاستعانة بالفرنسيين خشية أن يُعقّد ذلك من علاقته مع ملوك الطوائف بعد أن عاد يوسف بن تاشفين إلى مراكش، فأرسل الفونسو يستغني عن خدمات من لم يعبر منهم جبال البرانس بعد، غير أن الوافدين منهم دخلوا في خدمة سانشو راميرث ملك أراغون، وهاجموا طليطلة في شتاء سنة 480 هـ وفشلوا في هذا الهجوم ثم تراجعوا.
3. صالح الفونسو السادس قائده الكبير الكنبيطور بعد أن احتاج إلى سيفه واستقبله في طليطلة في هذا العام.
4. رفع من شأن المرابطين أمام الرأي العام الإسلامي، وصورهم في صورة المجاهدين عن الإسلام، المدافعين عن أراضيه، الذابين عن ثغوره[1].
5. أسقط من قدر ملوك الطوائف في نظر رعيتهم، ومهد السبيل إلى إسقاط دويلات الطوائف، وضم الأندلس إلى دولة المرابطين في المغرب[2].

هذه هي حال الأندلس في عهد ملوك الطوائف، وتلك الحال التي استدعت عبور يوسف بن تاشفين إليها، غير أن ابن تاشفين قد ترك الأندلس بعد معركة الزلاقة وفي نيته العودة إليها ثانية وهذا ما كان... عندما استنجد أهل الأندلس بالمرابطين للمرة الثانية وهذا ما سنحاول توضيحه في الفصل الثالث...

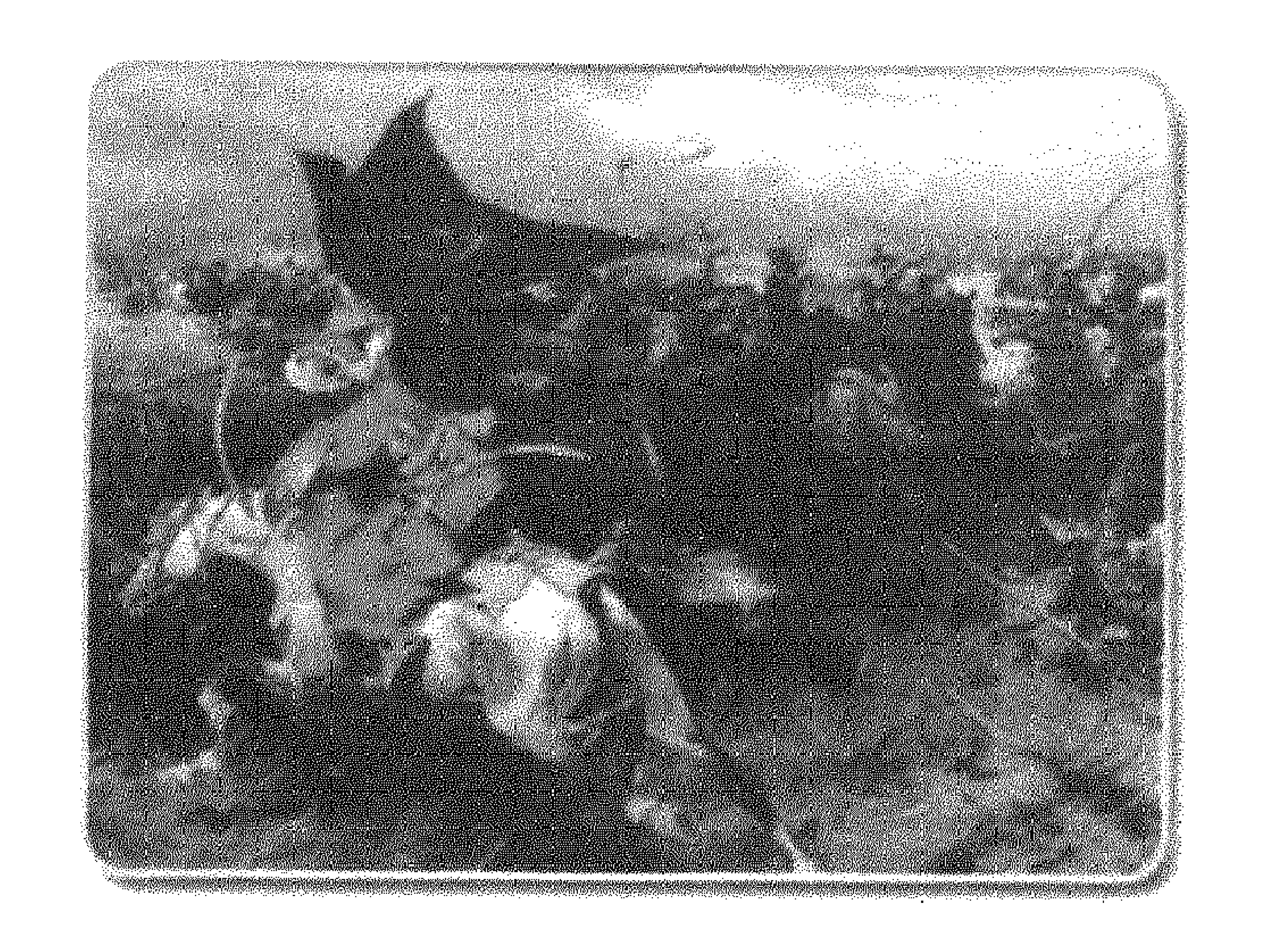
---

(1) بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص 14.

(2) م.ن.

الفصل الثالث

يوسف بن تاشفين والأندلس
بعد معركة الزلاقة



الفصل الثالث

يوسف بن تاشفين والأندلس بعد معركة الزلاقة

1. عودة يوسف بن تاشفين إلى الأندلس ثانية
   أ) استنجاد ابن عباد بيوسف
   ب) موقف ملوك الطوائف من يوسف
2. عودة يوسف بن تاشفين إلى الأندلس للمرة الثالثة
   أ) يوسف بن تاشفين يقرر ضم الأندلس إلى ملكه
   ب) عودة يوسف بن تاشفين إلى الأندلس
   1) غزو الأندلس
   أ) الاستيلاء على غرناطة
   ب) الاستيلاء على اشبيلية
   ج) الاستيلاء على ثغر المرية
   د) الاستيلاء على مرسية ودانية وشاطبة وبلنسية
   ه) الاستيلاء على بطليوس
   2) التنكيل بملوك الطوائف
   أ) التنكيل بملك غرناطة
   ب) التنكيل بأمير بطليوس
   ج) التنكيل بالمعتمد بن عباد ملك اشبيلية
3. عودة يوسف بن تاشفين إلى الأندلس للمرة الرابعة

الفصل الثالث

يوسف بن تاشفين والأندلس بعد معركة الزلاقة

1. عودة يوسف بن تاشفين إلى الأندلس ثانية

عاد يوسف بن تاشفين بعد موقعة الزلاقة إلى المغرب، فتنفست مملكة قشتالة وليون الصعداء، وخف روعها، وبدأ أمراء الطوائف يتصل بعضهم ببعض معبرين عن مخاوفهم على بلادهم من ذلك الأخ الذي هب لنجدتهم. أما يوسف فإنه كان يشعر أنه لا بد من أن يعود إلى الأندلس ليستكمل النصر، ولكنه ما كان يستطيع أن يفعل شيئاً ذا قيمة كبيرة إلا إذا كان له وضع قانوني في الأندلس، فهو إلى الآن مجرد ضيف لا يسيطر إلا على رأس معبر هو الجزيرة الخضراء، وهو لا يستطيع أن يطلب إلى أمير أو أهل بلدة أن يوافوه بالمؤن والأزواد أو تقديم أي عون، لأن لكل ناحية أميرها وصاحب السلطة العليا فيها. وسرعان ما عاد أهل الأندلس يطلبون نجدة يوسف بن تاشفين.

أ) استنجاد ابن عباد بيوسف:

لقد أتاحت مغادرة ابن تاشفين الفرصة للملك القشتالي أن يعود إلى سابق نشاطه في إطار المشروع الصليبي الذي دأب على تحقيقه بدعم من البابوية وبعض القوى الأوروبية، كذلك فان الصراعات التي عادت إلى وتيرتها أو الكثير منها لدى أمراء الطوائف، وتبرم بعضهم من حماية المرابطين وسيطرة جنودهم على بلادهم، كانت حافزاً لاستئناف تحركه ضد المسلمين في جنوبي شرق الأندلس. فقد ذكرت الروايات أن الفونسو بعد هزيمة الزلاقة لجأ إلى تحصين المواقع المتاخمة لمرسية وبلنسية، لا سيما ليبيط(أليدو)- على مقربة من لورقة-، موغراً إلى أحد قواده بأن يشن هجمات في هذه الجهات مما أثار قلق المسلمين عامة

والمعتمد ابن عباد خاصة، الذي كانت له السيادة على بلنسية، حيث قام بحملة فاشلة لإنقاذها، دفعته إلى الاستنجاد مرة أخرى بالسلطان المرابطي[1].

ومن هنا فانه لم يكن قد مضى على انتصار المسلمين في الزلاقة عامان حتى ضج المسلمون بالشكوى، واستصرخوا المرابطين للمرة الثالثة، فوفدت على يوسف بن تاشفين بحاضرته مراكش جملة من أهل بلنسية ومرسية ولورقة، فشكوا له ما حل بأهل بلنسية من قوات ألفونس، كما شكوا له ما حل بأهل مرسية وأعمال لورقة وبسطة من غارات حامية لييط القشتالية[2]. ثم قدم إليه المعتمد بن عباد فتلقاه ابن تاشفين أحسن قبول في موضع بوادي سيبو[3]. وكان مجيئه لغرضين: الأول: استرجاع نفوذه بمرسية بعد أن تغلب عليها ابن رشيق، والثاني: وضع حد لغارات القشتاليين المتواصلة على أملاكه في شرق الأندلس"، وعظم له شأن لييط، وانه في قلب البلد، وأن لا راحة للمسلمين إلا بفقده"[4].

ولم يجد يوسف بن تاشفين بداً من الاستجابة لرغبات أهل الأندلس في مقاتلة القشتاليين، فدخل الأندلس ثانية في ربيع الأول سنة 481 هـ[5]. بعد أن طلب من أمرائها موافاته عند حصن لييط، ولكن دون أن ينجح في مهمته على الرغم من محاصرة الحصن والتضييق عليه، حيث اشتد الخلاف حينذاك بين المعتمد وابن رشيق صاحب مرسية، واتهم الأول الثاني بالتحالف سراً مع الإسبان. بالإضافة إلى ذلك فقد أدرك ابن تاشفين عدم جدوى الحصار الذي لم يكن فيه سوى نفر قليل من الجند، ما لبث الفونسو أن أمر بإخراجهم من الحصن وإحراقه. وكانت هذه التجربة أكثر مرارة لابن تاشفين من سابقتها التي اقترنت بالنصر بينما اقترن الفشل بالصدمة في هذه المهمة، ليعود أدراجه حانقاً إلى عاصمته في

---

(1) بيضون، الدولة العربية في أسبانيا، ص 379.

(2) مجهول، الحلل الموشية، ص 47، 48.

(3) م.ن.، ص 45.

(4) الزيري، عبد الله، مذكراته، ص 108.

(5) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 98.، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، 249/3.

المغرب[1] ومعه خيبة الأمل من أمراء الطوائف. وقد ترك حامية في الأندلس كما فعل بعد معركة الزلاقة.

وتذكر رواية أخرى أن يوسف بن تاشفين عندما فك الحصار عن حصن ليبط عاد إلى غرناطة ومعه عبد الله بن بلكين، فغدر به أمير المسلمين، واخذ غرناطة منه وأخرجه منها، فرأى في قصوره من الأموال والذخائر ما لم يحوه ملك قبله بالأندلس، ومن جملة ما وجده سبحة فيها أربعمائة جوهرة قومت كل جوهرة بمائة دينار، ومن الجواهر ماله قيمة جليلة، إلى غير ذلك من الثياب والعدد وغيرها، واخذ معه عبد الله وأخاه تميما ابن بلكين إلى مراكش، فكانت غرناطة أول ما ملكه من بلاد الأندلس[2].

ب) موقف ملوك الطوائف من يوسف

لقد كشف جواز يوسف الثاني إلى الأندلس مدى تخاذل ملوك الطوائف وانهيارهم عندما عجزوا جميعاً عن اقتحام حصن ليبط، كما كشف من خلال عبوره عن مؤامرات كان يحيكها ملوك الطوائف لطعن المرابطين في الظهر مما جعله يفضل الانسحاب على الاشتباك في معركة غير مأمونة العواقب.

ولما سار يوسف بقواته نحو ليبط، انتظر أن توافيه حشود الأندلسيين، ولكن أحداً منهم لم يلب داعي الجهاد، بل منعوا عنه الأزواد والمؤن ووقفوا منه ومن قواته موقف العداء. وكانت نية يوسف أن يستولي على ليبط ثم يخرج ألفونسو من بلنسية، ومن هناك يتجه نحو طليطلة، ولكن هذا الموقف من أمراء الطوائف جعله يغير رأيه، إذ نفدت مؤنه وطال حصار الحصن من دون جدوى، فانصرف عنه على رغمه عائداً إلى المغرب، وقد قرر العودة إلى الأندلس بعد أن يُحكم الأمر ويتم عدته[3].

(1) المراكشي، المعجب، ص 89.

(2) ابن الأثير، الكامل، 155/10.

(3) مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص 172.

2. عودة يوسف بن تاشفين إلى الأندلس للمرة الثالثة

أ) يوسف بن تاشفين يقرر ضم الأندلس إلى ملكه

لقد رأى يوسف من ترف ملوك الطوائف وإسرافهم ما ظن معه أنهم لا بد يظلمون رعاياهم ويحصلون منهم من الضرائب فوق ما هو حق لهم، فأمرهم برفع الكثير منها فلم يستجيبوا له في هوادة، إلا ابن عباد الذي رحب بمقترحاته أول الأمر. هذا إلى أن هؤلاء الملوك قد ملأوا أذن ابن تاشفين شكوى بعضهم من بعض وخيانة بعضهم حتى عرفهم جميعاً وذهبت ثقته بهم جميعاً، وما لبث الفقهاء أن أحلوه من عهده بألا يضم الأندلس إلى ملكه، بل زادوا فأوجبوا عليه- إرضاء لربه - أن يعيد إلى هذه البلاد المنكوبة ما حرمته من الرفاهية والسلام تحت حكم هؤلاء الملوك المتخاذلين اللاهين، وجاءت الفتاوى من أعلام الشرق مثل الغزالي والطرطوشي مؤيدة لفتاوي فقهاء الأندلس، فوافق ذلك هوى في نفس ابن تاشفين الذي سارع إلى إخضاع أسبانيا.

وكان قد بلغ ابن تاشفين وهو بحاضرته في المغرب، أن الأمير عبد الله الزيري صاحب غرناطة اتفق مع البرهانش وكيل الفونسو في جهات غرناطة والمرية وتعاقد معه على نصرته نظير 30 ألف دينار. وكان قد ثبت تعاون ابن رشيق مع النصارى أثناء قيام المسلمين بحصار حصن لييط[1]. لذلك عزم ابن تاشفين عزماً صادقاً على استئصال شأفة ملوك الطوائف، والإطاحة بعروشهم، بحجة أنه ينبغي لهم أن يقاتلوا الروم، ويتركوا وراءهم الأعداء ممن يواسي عليهم معهم[2]. فجاز إلى الأندلس للمرة الثالثة سنة 483 هـ وهو ينوي هذه المرة القضاء على دويلات الطوائف، وتوحيد كلمة الأندلس وتأليف جبهة أندلسية مغربية متحدة لمواجهة خطر النصارى المتزايد[3].

---

(1) الزيري، عبد الله، مذكراته، ص 175.

(2) م.ن.

(3) Encyclopedie Universalis.Rodinson.p.944.

ومن هنا فقد أصدر يوسف بن تاشفين بياناً أذاعه وبلغه جميع حكام الحصون والبلاد الواقعة في مملكة غرناطة لما قرر احتلالها وضمها إلى ملكه، ومما جاء في هذا البيان:" أما بعد، فقد جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا، إن لم تطيعونا فأذنوا بحرب من الله ورسوله"[1].

وكان الأمير عبد الله الزيري قد أرسل إلى يوسف بن تاشفين رسالة يشرح له فيها الظروف التي أدت إلى دفع الجزية لالفونسو، ولكنه لم يقنع وأجابه بما يلي:" أما مداهنتك وقولك الباطل فقد علمناه، وستعلم عن قريب كيف تُرضى الرعية، وما تصنع إذ زعمت انك نظرت لها، ولا تسوف، فإن هذا قريب غير بعيد"[2].

ثم أرسل يوسف رسالة أخرى إلى الأمير عبد الله حاكم غرناطة يؤمنه ويخيره في الاستقرار في بلد يختارها إن هو استسلم له. ومما جاء في هذه الرسالة: "إن كنت استوحشت من النزول إلينا، فتخير من بلادك موضعاً تصير فيه، ولتكن غير غرناطة لنرى فيها رأينا"[3].

وقد كان لسير ابن أبي بكر قائد يوسف بن تاشفين الذي تركه في الأندلس بعد موقعة الزلاقة دور كبير في حمل يوسف بن تاشفين على ضم الأندلس إلى ملكه، فقد أرسل سير بن أبي بكر رسالة إلى يوسف بن تاشفين جاء فيها:" إن الجيوش بالثغور مقيمة على مكابدة العدو، وملازمة الحرب والقتال في أضيق العيش وأنكده، وملوك الأندلس في بلادهم وأهليهم في أرغد العيش وأطيبه"[4].

---

(1) الزيري، م.س.، ص 125.

(2) م.ن.، ص 127.

(3) م.ن.، ص 149.

(4) المقري، نفخ الطيب، 104/6.

فرد عليه يوسف برسالة جاء فيها:" إن يوسف بن تاشفين يأمر ملوك الطوائف بالنقلة والرحيل إلى أرض العدوة، فمن فعل فذاك، ومن أبى فحاصره، وقاتله ولا تُنفّس عليه، ولتبدأ بمن والى الثغور، ولا تتعرض للمعتمد بن عباد إلا بعد استيلائك على البلاد، وكل بلد أخذته فول عليه أميراً من عسكرك"[1].

وقد قرر أمير المرابطين يوسف بن تاشفين خلع أمراء الطوائف والاعتماد على نفسه في مواجهة خطر الإسبان، وقد دفعه إلى هذا العمل عدة أمور:

أ) الخلافات الشديدة والمنازعات بين ملوك الطوائف وما بذله يوسف من جهود لإزالة هذه الخلافات، ولكن دون جدوى[2].

ب) الموقف الحرج الذي أحاط بالقوات المرابطية الموجودة في بلاد الأندلس، حيث قطع ملوك الطوائف الميرة والتموين عن هذه القوات، فأحرج مركزها، فساء هذا الأمر يوسف بن تاشفين[3].

ج) قدم المرابطون تضحيات كبيرة في سبيل إنقاذ بلاد الأندلس من الخطر الإسباني في معارك الزلاقة وحصن لييط، وقد اعتبر ملوك الطوائف هذه التضحيات أموراً فرضتها الأخوة الإسلامية، وبذلك عاد هؤلاء الملوك إلى منازعاتهم، كما عادوا إلى التعاون مع ملوك الإسبان والارتماء في أحضانهم، بل تطور الأمر إلى الكيد لقوات المرابطين الموجودة في بلاد الأندلس[4].

بعد أن اطمأن يوسف بن تاشفين إلى الأسباب التي تمكنه من خلع ملوك الطوائف، عزز هذا الأمر بصفة شرعية، حيث أفتى الفقهاء بالأمر، وكان أهل الأندلس يدركون أن الانتصار في معركة لييط لم يكن بالمستوى الجهادي المطلوب، وقد أكد الفقهاء لعامة الشعب أن الخصومات بين ملوك الطوائف هي السبب في ذلك كله[5].

---

(1) م.ن.

(2) الزيري، عبد الله، مذكراته، ص 89.

(3) مجهول، الحلل الموشية، ص 57.، ابن خلدون، العبر، 181/6.

(4) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص 104.

(5) أدهم، علي، المعتمد بن عباد، ص 27.

وقد عزز يوسف بن تاشفين موقفه حيال ملوك الطوائف من ناحيتين:

الأولى: الحصول على فتاوى فقهاء المشرق الإسلامي أمثال الغزالي والطرطوشي، وقد وصلت فتاويهم إليه عام 483 هـ، وقد بدأ فعلاً بخلع ملوك الطوائف منذ عام 493 هـ.

الثانية: الحصول على تأييد فقهاء الأندلس وعامة الناس الذين أكثروا من شكواهم إليه بعد العبور الثاني، وكشفوا ليوسف بن تاشفين عن سوء ملوك الطوائف ومكرهم، وحرضوه على خلعهم، وكان على رأس هؤلاء الفقهاء أبو جعفر بن القليعي، قاضي قرطبة، الذي عبر إلى المغرب وأخبر أمير المرابطين ببعض الأمور التي تتعلق بملوك الطوائف وبخاصة الأمير عبد الله بن بلقين ملك غرناطة[1].

ب) عودة يوسف بن تاشفين إلى الأندلس

1) غزو الأندلس

تظافرت العوامل التي اعتمدها أمير المرابطين في خلع ملوك الطوائف، فعبر بقواته إلى الأندلس في أوائل عام 483 هـ، ولم يبدأ بعزل ملوك الطوائف، بل بمحاربة الإسبان ليقطع أي اتصال لهم مع حلفائهم من ملوك الطوائف[2]. فسار يوسف بن تاشفين بقواته جنوب مدينة طليطلة عاصمة مملكة قشتالة وشدد حولها الحصار، ووصل في زحفه إلى مدن الحدود مما يلي شمال طليطلة، ثم حاصر مدينة قلعة رياح الواقعة على الطريق المؤدية إلى مملكة قشتالة[3].

---

(1) الزيري، عبد الله، مذكراته، ص 320، 487.، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، 250/3.

(2) ابن الأثير، الكامل، 189/10.، النويري، نهاية الأرب، 182/22.، محمود، قيام دولة المرابطين، ص 302.

(3) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 99.، أشباخ، تاريخ الأندلس، ص 93.

تصدى لهذا الزحف المرابطي الفونسو السادس ملك قشتالة، فانسحبت القوات المرابطية دون أن تدخل في معركة حاسمة مع الإسبان، ولم تشترك القوات الأندلسية في هذه الحملة، مما أدى إلى تذمر يوسف بن تاشفين، إضافة إلى أن ملوك الطوائف أحسوا بنوايا يوسف بن تاشفين نحوهم، فباتوا يترقبون الأمور الجسام[1].

عاد أمير المرابطين بقواته من أحواز طليطلة صوب الجنوب، بعد أن قطع الصلة بين ملوك الطوائف والإسبان ليضع بداية النهاية لملوك الطوائف.

ومن خلال قضاء يوسف بن تاشفين على ممالك الطوائف هناك ثمة ظاهرتان يمكن ملاحظتهما في هذا الموضوع:

الأولى:إن أكثر ممالك الطوائف سيطرت عليها القوات المرابطية نتيجة تعاونها مع ملوك الإسبان وموقفهم المضاد للمرابطين، ولهذا استولت القوات المرابطية على الممالك تباعاً: فاحتلت مملكة غرناطة عام 1090/483، ومملكة اشبيلية عام 1091/483، ومملكة المرية عام 1091/484، ومملكة مرسية عام 1091/484، ومملكة بطليوس عام 1095/488، وإمارة البونت عام 1103/496، وإمارة سنتمرية الشرق(سهلة بني رزين) عام 1104/497، ومملكة سرقسطة عام 1110/503. وقد تمت هذه السيطرة بعد جهود كبيرة قامت بها القوات المرابطية في مقاومة الخطر الإسباني المساعد لملوك الطوائف أولاً، وبمقاومة ملوك الطوائف الذين تصدوا للقوات المرابطية ثانياً[2].

الثانية:إن بعض ممالك الطوائف مثل مملكة بلنسية ومملكة الجزائر الشرقية دخلتها القوات المرابطية لإنقاذها من خطر هجمات الإسبان، أي أن هذه الممالك هي التي طلبت العون من المرابطين، فبعد أن كانت بلنسية مسرحاً لهجمات الإسبان 479-495 وبخاصة هجمات السيد القمبيطور-فارس قشتالي

(1) عنان، دول الطوائف، ص 340.، محمود، قيام دولة المرابطين، ص 303

(2) السامرائي، علاقات المرابطين، ص 97، 244.

مغامر- الذي عاث في المنطقة وأرهق أهلها، وتصدى للقوات المرابطية خلال هذه الفترة الطويلة[1] وبعد موت القمبيطور عام 1009/492 تعاونت زوجته شيمانه مع الفونسو السادس من أجل التصدي للقوات المرابطية التي دخلت المدينة عام 1102/495 بعد إرهاق شديد فوجدوها أطلالاً. أما الجزائر الشرقية فقد تعرضت لهجمات الأساطيل الإسبانية والإيطالية في عام 1114/508، وبعد مقاومة عنيفة دخلت هذه الأساطيل أهم جزرها وهي جزيرة ميورقة، وعملت فيها الخراب والدمار، فاستعان أهل الجزائر الشرقية بالمرابطين الذين أنجدوهم بأسطول بحري دخل الجزائر في عام 1116/509 وبذلك تدخل الجزائر الشرقية في حوزة المرابطين[2].

أ) الاستيلاء على غرناطة

عبر يوسف بن تاشفين إلى أسبانيا دون أن يقف على نيته احد، متظاهراً بأنه يعتزم محاربة النصارى بكل ما وسع، وسير قواته الضخمة التي عبرت من سبتة إلى الجزيرة الخضراء، ومنها إلى مختلف الأنحاء الداخلية، ولم يطلب هذه المرة من الأمراء المسلمين جنداً لمعاونته، ولم يعرضوا عليه هم معونتهم، وقد كانوا يومئذ يرقبون حركات المرابطين جزعين أشد الجزع على سلامتهم. وسار يوسف على رأس جيشه العام إلى طليطلة، وبعد أن عاث فيها ونفذ حتى ظاهر عاصمته قشتالة ارتد فجأة نحو الأندلس وسيّر فرقاً من جيشه نحو مختلف المدن، وسار بنفسه إلى مدينة غرناطة[3].

---

(1) حسين، الحياة العلمية في بلنسية، ص 97، 244.

(2) السامرائي، الجزائر الشرقية، ص 179-182.مكي، محمود علي، وثائق مرابطية جديدة، ص 185-186.، سالم، تاريخ البحرية الإسلامية، ص 244.

(3) ابن الأثير، الكامل، 153/10.، المقري، نفخ الطيب، 533/2.، ابن خلدون، العبر، 187/6.، ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 100.، مجهول، الحلل الموشية، ص 51.

وكان يوسف اشد ما يكون ارتياباً في أمير غرناطة عبد الله بن بلكين بن باديس(الزيري)، وكان يُتهم بالتحالف سراً مع ألفونسو ومعاونته بالمال، فلما اقترب المرابطون من المدينة تردد عبد الله بين إغلاقها في وجوههم وبين الخروج إلى لقاء سلطان المرابطين واتقاء العاصفة الوشيكة باستقبال ودي. وكان واضحاً من حركات الجند القادمين أن يوسف لم يكن ينوي بالمدينة خيراً. وتختلف الروايات العربية في كيفية استيلاء يوسف على غرناطة. ولكن أرجحها فيما يظهر هو انه استولى عليها بطريق الحيلة والخديعة، ذلك أنه أخفى مقاصده واستقبله عبد الله بترحاب. وما كاد جنده يدخلون المدينة حتى أُسر عبد الله وأُرسل مع أهله سجيناً إلى أغمات بالقرب من مراكش[1]. وأُذيع تطميناً لباقي الأمراء أن عبد الله نزل عن المدينة مختاراً وعُوض منها بأملاك واسعة في أفريقيا. وأرسل كل من أمير اشبيلية وبطليوس سفيراً إلى غرناطة ينتحل لسفارته عذراً، ولكنهما ذهبا في الواقع ليستوضحا حقيقة الأمر في شأن غرناطة، فلقيا من يوسف كل إعراض ومهانة، حتى أنه لم يقابلهما بنفسه، فعادا إلى أميريهما يضطرمان جزعاً وسخطاً[2]، وكانت حركات يوسف التالية تُفصح بوضوح وجلاء إلى أي حد كان مصير عبد الله عبرة لباقي أمراء الأندلس، وقد أخفق يوسف في القبض على أبي مروان عبيد الله عز الدولة ولد أمير المرية الذي أوفده والده إلى غرناطة لمثل المهمة التي قدم من اجلها سفيرا اشبيلية بطليوس، لأنه استطاع أن يفر متنكراً، ولكنه قبض على تميم بن بلكين والي مالقة وبعث به سجيناً إلى أفريقيا ليشاطر مصير أخيه عبد الله، واستولى المرابطون على مدينته[3].

ثم عبر يوسف إلى سبتة لكي يعجل إرسال الجند منها إلى الأندلس وترك قائده سير بن أبي بكر في غرناطة على رأس الجيش المرابطي.

وكنا ذكرنا في هذا الفصل أن يوسف بن تاشفين استولى على غرناطة أثناء جوازه الثاني بعد أن فك الحصار عن حصن لييط[4].

---

(1) ابن الأثير، م.س.، 153/10.، المقري، م.س.، 533/2. مجهول، م.س، ص 51.

(2) مجهول، الحلل الموشية، ص 51.

(3) أشباخ، يوسف، تاريخ الأندلس، ص 94.

(4) انظر ص 57.

ب) الاستيلاء على اشبيلية

سير يوسف إلى الأندلس أربعة جيوش في وقت واحد، كل منها تحت إمرة قائد خاص لقتال أمراء الأندلس، ولتحول دون اجتماع قواهم في أي مكان ولتقضي على سلطانهم بأسرع وقت. وتقرر أن تصوب الأولى إلى أقواهم وأشدهم بأساً وهو المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية وقرمونة واستجة وقرطبة وبقاع أخرى في مرسية، فيقضي سقوطه حتماً إلى سقوط الآخرين.

وكانت العلاقات قد ساءت بين يوسف بن تاشفين وابن عباد بعد أخذ الأول غرناطة، ولكن هذا تنبه للأمر وهرب إلى بلده، وهناك أرسل له يوسف يقول: "نريد الاجتماع بك فيما نحن بسبيله"[1]. وكان قصده أن يقول لا حتى يجد السبيل إليه.

وقد بعث المعتمد بن عباد برسالة جوابية إلى يوسف بن تاشفين جاء فيها: " أن ذلك كان وقت كنت فيه ضيفاً وتريد الغزو، فلزمني معونتك بنفسي وجميع أموالي، والآن إنما أنت لي جار مثل باديس وحفيده، وأنت اقدر مني على الشر بجنودك، فلا يمكنني التغرير بنفسي عسى انك تريد اخذ بلدي، إذ لا تصح لك غرناطة إلا بما يضاف إليها من الأندلس[2].

وقد تأهب المرابطون خير أهبة للانقضاض على اشبيلية، فسار إليها جيش بقيادة سير بن أبي بكر ليأخذوها، ثم ينقض على بطليوس. وزحف جيش ثالث بقيادة أبي عبد الله بن الحاج إلى قرطبة، وكان واليها ولد المعتمد الفتح أبو ناصر(المأمون)، وسار جيش ثالث بقيادة جرور اللمتوني إلى ارض رندة وفيها ولد آخر للمعتمد هو يزيد الراضي بالله، وزحف الجيش الرابع والأخير بقيادة أبي زكريا بن واسنو على المرية وفيها المعتصم بن صمادح صديق المعتمد الحميم، وبقي يوسف بن تاشفين في سبتة على رأس جيش احتياطي لكي يقوم عند الحاجة

---

(1) الزيري، عبد الله، مذكراته، ص 169.

(2) الزيري، عبد الله، مذكراته، ص 169.

بإنجاد هذا الجيش أو ذاك[1]. وكانت هذه الأهبة واضحة الدلالة في كونها أعدت لسحق الأمراء الأندلسيين، وذلك بالرغم من أن القواد المرابطين حاولوا نزولاً على أمر يوسف بن تاشفين إخفاء مقاصدهم العدائية مدى حين، وما كاد سير ابن أبي بكر يجوز إلى أرض اشبيلية حتى ألفى المعتمد متأهباً لقتاله، وكان قد لمح نذير العاصفة، وبذا سقط قناع الصداقة، وقاد المعتمد جنده لمقاتلة المرابطين في الميدان بالرغم من تفوقهم عليه[2].

وعندما حاصر سير اشبيلية وضيق عليها، قاتل أهلها قتالاً شديداً، وظهر من شجاعة المعتمد وشدة باسه، وحسن دفاعه عن بلده ما لم يشاهد من غيره ما يقاربه، فكان يلقي نفسه في المواقف التي لا يرجى خلاصه منها، فيسلم بشجاعته وشدة نفسه، ولكن إذا نفذت المدة، لم تغن العدة.

وكانت الفرنج قد سمعت بقصد عساكر المرابطين بلاد الأندلس، فخافوا أن يملكوها ثم يقصدوا بلادهم، فجمعوا فأكثروا، وساروا ليساعدوا المعتمد ويعينوه على المرابطين، فسمع سير بن أبي بكر، مُقدم المرابطين بمسيرهم، ففارق اشبيلية وتوجه إلى لقاء الفرنج، فلقيهم، وقاتلهم وهزمهم، وعاد إلى اشبيلية فحاصرها، ولم يزل الحصار دائماً، والقتال مستمراً إلى العشرين من رجب من عام 484 هـ فعظم الحرب ذلك اليوم، واشتد الأمر على أهل البلد، ودخله المرابطون من واديه، ونهب جميع ما فيه، ولم يبقوا على سيد ولا لَبد، وسلبوا الناس ثيابهم فخرجوا من مساكنهم يسترون عوراتهم بأيديهم، وسبيت المخدرات، وانتهكت المحرمات، فاخذ المعتمد أسيراً ومعه أولاده الذكور والإناث، بعد أن استأصلوا جميع مالهم، فلم يصبحهم من ملكهم بُلغة زاد[3].

---

(1) مجهول، الحلل الموشية، ص 52.

(2) أشباخ، تاريخ الأندلس، ص 95.

(3) ابن الأثير، الكامل، 10/189-190.

وقيل أن المعتد سلم البلاد بأمان، وكتب نسخة الأمان والعهد، واستحلفهم به لنفسه، وأهله، وماله، وعبيده، وجميع ما يتعلق بأسبابه. فلما سلم إليهم اشبيلية لم يفوا به، وأخذوهم أسراء ومالهم غنيمة، وسُيّر المعتمد وأهله إلى مدينة أغمات[1]، فحبسوا فيها، وفعل أمير المسلمين بهم أفعالاً لم يسلكها أحد ممن قبله، ولا يفعلها أحد مما يأتي بعده، إلا من رضي لنفسه مثل هذه الأمور[2]. وهذا ما سنقوم بتوضيحه في حينه.

وقيل بأنه في أثناء حصار اشبيلية سارت قوة من المرابطين إلى جيان وانتزعتها عنوة، ثم انضمت إلى الجيش الذي يقوده جرور، وكان قد هزم أمام أسوار قرطبة. ولم يبق عندئذ في وسع عاصمة الأندلس القديمة أن تصمد أمام هذا الجيش الزاخر، ومن ثم فقد آثرت قرطبة أن تصغي إلى ما وُعدت به من تأمين للنفس والمال إذا بادرت بالتسليم على دفاع مشكوك في عواقبه، ولكن جرور الافريقي لم يعرف إزاء الأندلسيين قدسية العهد، كما لم يعرفه مُواطنه هانيبال إزاء الرومان من قبل، فقتل كثيراً من أهل قرطبة، وأمعن المرابطون فيها سلباً ونهباً، وكان بين القتلى ولد المعتد الياس فتح المأمون، وكان فتى في عنفوانه، وكان معقد الآمال، وذلك سنة 1091/484، وقتل في نفس الوقت ولد آخر للمعتمد هو يزيد الراضي بالله والي رندة، وكان مقتله عقب أخذها انتهاكاً لكل زمام وإنسانية، بعد أن قُطعت لتأمين حياته أوثق العهود[3]. ثم سقطت قرمونة بعد حصار قصير في ربيع الأول 1091/484، وكان يظن أنها لا تؤخذ لمنعتها.

وهكذا كانت خاتمة المعتمد بن عباد مأساة أليمة، وكانت عبرة لتقلب الدهر والحدود[4].

---

(1) أغمات: مدينة في سفح جبل بالقرب من مراكش.

(2) ابن الأثير، م.س.، 190/10.

(3) أشباخ، تاريخ الأندلس، ص 96، 97.

(4) المراكشي، المعجب، ص 85.

ج) الاستيلاء على ثغر المرية

في الوقت نفسه الذي سقطت فيه اشبيلية افتتح المرابطون ثغر المرية بأمرة قائده داود بن عائشة الذي امتاز بالإنسانية وحفظ العهد، وكان يحكم المرية يومئذ أبو يحيى محمد بن صمادح التجيبي الملقب بالمعتصم والواثق بالله -واصله من وشقة-وولده معز الدولة، وكان منذ أربعين عاماً قوام حكومة رشيدة عادلة يغمرها الشعب بحبه وتقديره. وقد اشتهر في جميع أنحاء الجزيرة بمحبته للعلوم والفنون والآداب، وكان ينافس في هذا المضمار أعظم العلماء والشعراء والأمراء في عصره. وأما في الحرب فقد كان حتى بالنسبة لأعدائه الذين يقعون في قبضته يفيض إنسانية ورحمة. ومن ثم فقد أبدى أهل الأندلس بل أبدى النصارى أنفسهم كثيراً من العطف والأسف حينما زحف المرابطون على المرية وأنزلوا بالمعتصم ما انزلوا بصديقه المعتمد. ومع أن المعتصم كان عضد المرابطين في كل فرصة ومناسبة وخصوصاً في حصار حصن لييط، حيث ارتدى رداء المرابطين الأسود فانه لم يستطع مجانبة المصير الذي قضى به يوسف على جميع الأمراء الأندلسيين دون استثناء، فحوصرت المرية من البر والبحر أحكم حصار وأشده، ولم ير الأمير الشيخ أمامه رجاء في الغوث ولم ير سوى شبح الأسر والمهانة فتوفي أسى وغماً، أو توفي مسموماً[1]، فخلفه في الحال ولده أحمد أبو مروان معز الدولة، وكان يشاطر أعباء الحكم أثناء حياته وذلك في ربيع الآخر سنة 484 هـ، بيد أن حكمه لم يطل سوى شهر واحد. ذلك انه لما وقف على سقوط اشبيلية ولم يبق له أمل في الإنقاذ، واشتد به الضيق والجوع من جراء الحصار، أخذ يفاوض في تسليم المدينة، ومع انه لم يثق بوعود المرابطين لغدرهم، فانه استطاع أن يحقق ما قصده بالمفاوضة وهو حمل العدو على تخفيف وطأة الحصار من ناحية البحر، وانتهز الفرصة السانحة ففر مع أسرته وأمواله في سفن سارت إلى شمال شرق أفريقيا[2].

---

(1) ابن الآبار، الحلة السيراء، ص 172.، ابن خاقان، قلائد العقيان، ص 47 وما بعدها.، المراكشي، المعجب، ص 73،74

(2) ابن الآبار، م.س.، ص 174-176.، ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 101.، ابن الأثير، الكامل، 192/10-193.، ابن خلدون، العبر، 187/6.

ولم تمض أيام قلائل حتى استولى المرابطون على المرية دون مقاومة، واستولوا في الوقت نفسه على جميع المدن والحصون التابعة لها. وهكذا افتتح المرابطون ولايات الأندلس كلها-غرناطة، قرمونة، جيان، قرطبة، اشبيلية، والمرية- في وقت قصير لم يجاوز ثمانية عشر شهرا.

د) الاستيلاء على مرسية ودانية وشاطبة وبلنسية

لم يمهل داود بن عائشة جنده بل ساروا تواً إلى ولاية مرسية حتى لا يترك للأندلسيين فرصة الاحتشاد ضد المرابطين، وزحف على دانية وشاطبة واستولى عليهما، واخذ يهدد مربيطر وبلنسية وسنتمرية الشرق(البراسين)، ومع أن أمراء هذه النواحي قد اتحدوا جميعاً، وتوثق حلفهم، ومع أنهم قاوموا من مدنهم أشد مقاومة، بمساعدة النصارى ولا سيما السيد الكنبيطور وفرسانه، فان ذلك لم يغنهم شيئاً أمام طالع المرابطين وأمام تفوقهم، وسقطت هذه المدن في يد المرابطين واحدة بعد الأخرى، وانتهت بسقوط بلنسية عاصمة الولاية، وكان بها الأمير يحيى بن ذي النون القادر يتولى الدفاع عنها. وقد غادر النصارى المدينة عندما رأوا استحالة الاحتفاظ بها، وشقوا لهم بين الأعداء طريقا، وفتحت أبواب المدينة للمرابطين على ي القاضي أحمد بن جحاف، فاقتحموها شاهرين سيوفهم وهم يقتلون كل من لقوا في طريقهم[1]. وهنا تختلف الرواية العربية في مصير القادر، فيقول البعض انه قتل قبل ذلك بقليل في هجوم قام به خارج المدينة، ويقول آخرون أن ولده وسميه القادر هو الذي كان يدافع عن أنقاض ملك بني ذي النون، وأنه قُتل وقت سقوط المدينة في المقتلة العامة. وعلى أي حال فان المحقق هو أن سلطان بني ذي النون الذي سطع من قبل في طليطلة ثم استقر بعد ذلك في بلنسية لقي يومئذ مصرعه وخاتمته سنة 1092/485. واختار المرابطون أحمد ابن جحاف والياً لبلنسية[2].

---

(1) أشباخ، تاريخ الأندلس، ص 100.

(2) ابن الآبار، الحلة السيراء، ص 189.، المقري، نفخ الطيب، 577/2.

ه) الاستيلاء على بطليوس

بينما كان داود بن عائشة يفتح شرق أسبانيا، كان سير بن أبي بكر يقتحم الغرب ظافراً، فبعد أن استولى على اشبيلية زحف على ولاية بطليوس وأميرها يومئذ أبو محمد عمر بن الأفطس الملقب بالمتوكل، واستولى على شلب ويابرة بعد مقاومة قصيرة، وسرعان ما ظهر في مروج بطليوس-وقد كانت ما تزال غاصة بعظام النصارى الذين سقطوا في الزلاقة وتركوا في العراء-جيش من المرابطين، بيد أنه لم يقدم كما قدّم من قبل الغوث لمسلمي الأندلس، بل كان عندئذ أشد خطراً عليهم من أعدائهم النصارى[1]. وقيل بأنه كان يشارك سير بن أبي بكر في حصار اشبيلية، عندما استولى سير على اشبيلية عاد المتوكل إلى بطليوس ليفاجأ بحصار سير بن أبي بكر لها[2].

وكان الأمير المتوكل وأولاده على رأس جندهم بشجاعة فائقة، لكن ذلك لم يغنهم شيئاً، ذلك أن الشعب كانت تروعه نبوؤة خلاصتها أن الأمراء الأندلسيين يقهرهم فاتح من أفريقيا، ومن ثم فقد انحاز إلى المرابطين مؤثراً إلا يناهض القدر بمعركة لا خير فيها، بل لقد كان الشعب عامة يؤثر تغيير الحكومة في بعض الحواضر، نظراً لأن نفقات البلاط في الممالك الصغيرة كانت حقاً تعاون في نمو التجارة، ولكنها كانت تزيد في المكوس زيادة كبيرة، كذلك لم يكن ثمة أمل في دفع عادية النصارى نظراً لما انتهى إليه الأمراء من التفرق والانحلال. هذا فضلاً عن أن يوسف بن تاشفين كان يخص الأمراء وحدهم بقسوته، وقد استطاع أن يجد الوسيلة لكي يفرق بين الشعب وبين حكامه بسرعة، ذلك أن التناقض بين مصلحة الشعب ومصلحة الأمراء كان واضحاً، فقد كان الشعب يطلب الاتحاد، وكان الأمراء يؤثرون التفرق والخلاف.

---

(1) المراكشي، المعجب، ص 41 وما بعدها.

(2) ابن الأثير، الكامل، 193/10.

يوسف بن تاشفين والأندلس بعد معركة الزلاقة

ولما هزم جند الغرب في المعركة التي نشبت، وأُسر الفضل والعباس ولدا المتوكل، لم يبق أمام الفاتحين سوى بطليوس التي امتنع بها أميرها، وكان المتوكل يعتزم الدفاع عنها غاية جهده، ولكن أهلها لم يشاطروه هذا الرأي وحملوه على أن يفاوض المرابطين في تسليمها. وانتهى الأمر باحتلال بطليوس، فدخلتها قوات المرابطين بقيادة سير بن أبي بكر، أما أمير المدينة المتوكل فقد غادرها مع أهله، غير أن سير بن أبي بكر أرسل في طلب الأمير سرية من الفرسان فأدركته وأسرته[1].

وهكذا أحكمت قوات المرابطين سيطرتها على الأندلس وقد علل يوسف بن تاشفين إسقاطه لملوك الطوائف بقوله:" إنما كان غرضنا في ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدي الروم، ولما رأينا استيلائهم على أكثرها، وغفلة ملوكهم، وإهمالهم للغزو، وتواكلهم، وتخاذلهم، وإيثارهم الراحة، وإنما همة احدهم كأس يشربها، وقينة تُسمعه، ولهو يقطع به أيامه، ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التي ملكها الروم في طول هذه الفتنة إلى المسلمين، ولأملأنها عليهم-يعني الروم- خيلاً ورجالاً لا عهد لهم بالدعة، ولا علم عندهم برخاء العيش، وإنما همّ احدهم فرس يروضه ويستفرهه، أو سلاح يستجيده أو صريخ يلبي دعوته..."[2].

ولم يستثن يوسف بن تاشفين من ملوك الأندلس سوى المستعين بالله أحمد بن هود، صاحب سرقسطة، فقد كان لا ينازعه ما في يده، ولا تطرق لخلعه قبولاً منه للعفو، وإقراراً فيما بينه وبين العدو، لما تجده مضايقته من تصيير ما بيده إلى الروم، فكان يلاطفه، ووجه إليه ابن هود ولده عبد الملك-في صحبة وزيريه أبي الاصبع وأبي عامر-فقام بحقه، وصرفه مكرماً، واصحبه كتابه[3]. وكان ابن هود قد كتب إليه قائلاً:" نحن بينكم وبين العدو سد لا يصل إليه ضرر، ومطاعين قطوف، وقد مُتعنا بمسالمتكم"[4]. فرد عليه يوسف بن تاشفين برسالة ذكر ابن الخطيب نصها الكامل[5].

---

(1) ابن خاقان، قلائد العقيان، ص 36 وما بعدها.، ابن خلدون، العبر، 160/4.، المراكشي، م.س.، ص 41 وما بعدها

(2) المراكشي، المعجب، ص 163.

(3) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 173.

(4) مجهول، الحلل الموشية، ص 54، 55.

(5) ابن الخطيب، م.س.، ص 173، 174.

ولقد قامت العلاقات الودية بين ملك سرقسطة وبين يوسف بن تاشفين، ففي سنة 496 هـ قدم ابن تاشفين إلى قرطبة، فأرسل إليه المستعين بالله ابنه عبد الملك الملقب بعماد الدولة بهدية جليلة من جملتها 14 ربعاً من آنية الفضة مطرزة باسم المقتدر بن هود[1]. وظلت هذه العلاقات الودية في حياة المستعين، إلى أن استولى المرابطون على سرقسطة في عهد عبد الملك عماد الدولة في 10 من ذي القعدة سنة 503 هـ.

2) التنكيل بملوك الطوائف

لم يقف الأمر عند احتلال يوسف بن تاشفين وقواته للأندلس، بل ذهبوا أكثر من ذلك فقاموا بالتنكيل بملوك الطوائف، وقتلوا بعضهم، وأسروا البعض الآخر.

أ) التنكيل بملك غرناطة:

ما كادت جنود المرابطين تدخل مدينة غرناطة حتى أُسر عبد الله بن بلكين بن باديس أمير غرناطة، وأرسل مع أهله سجيناً إلى أغمات بالقرب من مراكش[2].

ب) التنكيل بأمير بطليوس:

كان سير بن أبي بكر عندما دخل بطليوس ونقض عهد الأمان الذي أعطاه لحاكمها عمر بن الأفطس الملقب بالمتوكل قد أرسل سرية من الفرسان في طلب المتوكل فأدركته وأسرته، كما ذكرنا سابقاً، وبعد أن جُلد المتوكل وولداه-الفضل والعباس-بالسياط، وبعد أن بلغت القسوة ذروتها بقتل الفضل والعباس أمام عيني والدهما المحزون أُخذ المتوكل وقطعت رأسه، أما ولده الأصغر نعيم الدولة والي شنترين فقد أُسر وزج إلى اعتقال طويل الأمد[3].

---

(1) م.ن.، 174.

(2) ابن الأثير، الكامل، 153/10.، المقري، نفخ الطيب، 533/2.، ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 100.، مجهول، م.س.، ص 51.

(3) ابن خاقان، قلائد العقيان، ص 36 وما بعدها.، المراكشي، المعجب، ص 41 وما بعدها.

وقد قيل في هذا الصدد أن عمر بن الأفطس حين أراد سير بن أبي بكر قتله قال:" قدموا ولدي قبلي للقتل ليكون في صحيفتي! فقتل ولده قبله وقتل هو بعده، واحتوى سير على ذخائرهم وأموالهم"[1].

ج) التنكيل بالمعتمد بن عباد ملك اشبيلية:

كانت خاتمة المعتمد بن عباد مأساة أليمة، وكانت عبرة لتقلب الدهر والحدود. ذلك أن الرجل الذي لبث زهاء أربعة عقود يقبض بيديه على مصائر أسبانيا، اختتم حياته الباهرة في غمرة البؤس والحزن وظلام السجن. ولما أخذت اشبيلية قبض عليه وعلى نسائه وأبنائه وبناته، وقد كان له من الولد نحو مائة، وأرسلوا إلى أفريقيا. ولما سارت السفن التي حملوا عليها ضجوا بالبكاء والنحيب في مناظر لا توصف، حينما رأوا مشارف القصر البديع ومنائر المساجد تفيض أمامهم كما تفيض ذكريات حلم مجد ذاهب، وعامل يوسف الأسرة المنكودة دون أي مراعاة أو تقدير لسابق حالها، فنقل المعتمد إلى أغمات على مقربة من مراكش، وألقى به إلى غياهب السجن، ليلقى فيه الموت ببطء، وهناك في البرج الذي زج إليه مع أسرته، رأى المعتمد وقلبه يذوب حسرة ووجداً زوجته النابهة البارعة اعتماد البرمكية تموت غماً لما أصاب زوجها من محنة وبؤس وأسى، وحملت الفاقة بنات المعتمد على أن يشتغلن بالغزل وهن في ثياب خِلقة، لكي يعلن والدهن، وكان منظرهن يذكي في قلوب المنكودين جذوة الأسى والشجن ومع ذلك فان المعتمد لم يطأطىء الرأس تحت غمرة المحنة والبؤس، ولم ينس مجده الذاهب، بل عرف بالرغم من ثيابه الخلقة أن يحتفظ بهيبة الجلال السابق وخلاله، وكان عزاؤه الوحيد أو غذاؤه الروحي في سجنه، نظم القريض الذي لم يفارقه شغفه قط، وقد بلغ من شغفه به انه وهو في طريقه إلى الاعتقال وهب الشاعر أبا الحسن الحصري ستة وثلاثين مثقالاً لقصيدة قالها في مديحه، فكانت

---

(1) ابن الأثير، م.س.، 193/10.

آخر ما استطاع أن يبذل من الصلات الملوكية[1]. وقد أكثر من رثاء محنته، وذاعت قصائده الرثائية لروعتها أعظم ذيوع، حتى كان يحفظها كل إنسان، ثم جاء الموت فأنقذه من أغلاله بعد أن عانى في معتقله أربعة أعوام، وذلك سنة 1095/488. وحكم المعتمد وهو آخر أمراء بني عباد اشبيلية ثلاثة وعشرين عاماً، وتفرق أبناؤه بعد وفاته في أنحاء أفريقيا، يغمرهم البؤس الطاحن، ولا يقدم إلينا التاريخ من ذلك الحين عنهم أو عن عقبهم شيئا.

وهنا يوجد بعض المؤرخين الذين حطوا من رتبة أمير المسلمين وعنفوا عليه، إما لكونه بربرياً من أهل الصحراء بعيداً عن مناحي الملك والأدب ورقة الحاشية، وإما في كونه تحامل على ملوك الأندلس حتى فعل بهم ما فعل بعد أن عاين حسن بلادهم ورفاهية عيشهم.

وقد يكون هذا الكلام من بعض أدباء الأندلس الذين كانوا ينادمون ملوكها ويستظلون بظلهم ويغدون ويروحون في نعمتهم، فحين فعل أمير المسلمين بسادتهم ورؤسائهم ما فعل أخذهم من ذلك ما يأخذ النفوس البشرية من الذب عن الصدق والمحاماة عن الغريب حتى باللسان، وإلا فقد كان أمير المسلمين رحمه الله من الدين والورع على ما قد علمت، ومن ركوب الجادة وتحري طريق الحق[2].

وهذا ابن خلدون إمام الفن ومتحري الصدق قد نقل أن ملوك الأندلس كانوا يظلمون رعاياهم بضرب المكوس وغيرها، ثم وصلوا أيديهم بالفونسو وبذلوا له الأموال في مظاهرته إياهم على أمير المسلمين، ثم لم يقدم على قتالهم واستنزالهم عن سرير ملكهم حتى تعددت لديه فتاوي الأئمة والأعلام من أهل الشرق والغرب بذلك[3].

---

(1) المراكشي، المعجب، ص 85.

(2) الناصري، الاستقصا، ص 121-122.

(3) الناصري، الاستقصا، ص 122.

وكانت رسالة المرابطين منذ بداية تدخلهم في شؤون الأندلس تهدف إلى إنقاذ الإسلام في الأندلس، ولقد بذلوا حقاً في هذا السبيل جهوداً جبارة، وقضوا الستين عاماً التي دامت فيها دولتهم بالأندلس في جهاد ومثابرة ضد القشتاليين والأرغونيين.

3. عودة يوسف بن تاشفين إلى الأندلس للمرة الرابعة

ذكرت بعض المصادر أن يوسف بن تاشفين عاد إلى الأندلس مرة رابعة وانه عبر إلى الأندلس عبوره الرابع سنة 1096/490[1]. وكان قد عهد بأمور الأندلس إلى كبير قادته سير بن أبي بكر ووجه جيشاً بقيادة محمد بن الحاج صوب طليطلة، إذ غدت عاصمة قشتالة، والتقى بالقشتاليين بقيادة الفونس السادس قرب كنشرة، فانهزم الجيش القشتالي متكبداً خسائر كبيرة سنة 1097/491[2].

وقد توجه يوسف إلى قرطبة سنة 495 هـ لأخذ البيعة لابنه أبي الحسن علي[3]، وكان بصحبته هو وأخوه الأكبر أبو الطاهر تميم. واشترط في هذه البيعة لعلي أن ينشيء في الأندلس جيشاً مرابطياً ثابتاً يوزعه على سائر القواعد[4]، وبعدها عاد يوسف بن تاشفين إلى مراكش.

وتذكر رواية أخرى أن جواز يوسف بن تاشفين الرابع إلى الأندلس كان سنة ست وتسعين وأربعمائة، وذلك بهدف التجول عليها، والنظر في مصالحها، وكان معه ابنه، بل أبناؤه الأميران أبو الطاهر تميم وأبو الحسن علي وكان أبو الحسن علي أصغر سناً، فقال فيه احد الشعراء الأندلسيون كلاماً نبّه فيه على مجده، فقال في ذلك:

---

(1) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص 107، 112.، مجهول، الحلل الموشية، ص 55.، عنان، دول الطوائف، ص 371.

(2) ابن الكردبوس، م.س.، ص 107،112.، مجهول، م.س.، ص 107، 112.، عنان، م.س.، ص 371.

(3) ابن الكردبوس، م.س.، ص 107-108.، الحميري، الروض المعطار، ص 134.

(4) مجهول، م.س.، ص 57.

وإن كان في الإنسان يحسب ثابتاً علـيّ وفي العلياء يحسب أولا
كذلكم الأيدي سواء بنانها وتختص فيهن الخناصر بالحلا[1]

ولما جال في بلادها وتطوف على أقطارها، شبهها بعقاب رأسه طليطلة ومنقاره قلعة رباح، وصدره جيان، ومخالبه غرناطة، وجناحه الأيمن بلاد الغرب وجناحه الأيسر بلاد الشرق، وبيان كيفية وضعها وتمثيلها في السفر يبدو بيان هذا التشبيه الذي هو راجع إلى سياسة أمرها واعتبار أموالها.

وفي جوازه هذا اعمل سيره على مدينة اليسافة، وهي مدينة مانعة، وسورها من أعظم الأسوار، انفرد بسكناها اليهود، وكان سبب اجتيازه عليها أن رجلاً من فقهاء قرطبة وجد مجلداً من تأليف ابن مسرة الجبلي القرطبي، أخرج فيه حديثاً رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن اليهود ألزمت نفسها أنها إذا جاءت الخمسمائة عام من مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجيء نبي منهم على ما زعموا، فإن الإسلام لازم لهم لأنهم وجدوا في التوراة قول الله تعالى لموسى عليه السلام أن النبي الرسول الذي معناه محمد لا بد من ظهور الحق على يده ونوره متصل باتصال الساعة، فزعمت اليهود أنه منهم وانه لم يجيء إلى رأس الخمسمائة عام وإلا فهو هذا، فرفع هذا الفقيه القرطبي الأمر إلى أمير المسلمين فاجتاز على مدينته ليرى ما يُصنع فيهم، فيذكر أنه استخلص منهم جملة مال بسبب ذلك، وان القاضي أبا عبد الله محمد بن علي بن أحمد التغلبي أجرى مسألتهم معه على وجه تركهم، ففعل، ومما ينظر إليه من قريب من هذا المعنى ما حكي عن أحد عمال البحرين أنه لما وليها جمع اليهود في سائر عمله، فقال لهم ما تقولون في عيسى ابن مريم، فقالوا: قتلناه وصلبناه، قال: فأديتم ديته، قالوا: لا والله، فقال: لا والله لا تخرجون حتى تؤدوا ديته، فأغرمهم عشرة آلاف دينار[2].

---

(1) مجهول، الحلل الموشية، ص 57.

(2) م.ن.، ص 57-59.

هذا هو الوضع الذي آلت إليه الأندلس بعد أن دخلها المرابطون، وكان من الممكن أن تبقى الأندلس قوية عزيزة بسيوف المرابطين وسواعدهم لو بقيت لهم بداوتهم وبساطتهم وحميتهم وحماستهم، ولكن طبائع الأشياء تأبى بقاء البداوة والخشونة وسط هذا النعيم، فلقد جاء المرابطون إلى أسبانيا غلاظاً شداداً يتفاخرون بالشجاعة والقوة، ولهم قلوب يملؤها تعصب ديني، لكنهم لم يلبثوا أن استناموا إلى لذائذ الحياة فانحطت عزائمهم، وفسدت أخلاقهم، وفقدوا قوتهم وشجاعتهم في زمن وجيز لم يتجاوز العشرين عاما، فلم يعد لهم جيش يعول عليه في صد هجمات النصارى، بل صار جيشهم حشداً غير منظم من رجال كسالى أدمنوا الخمر ويددوا فتوتهم، وأصبحوا عبيداً لكل شهوة تجعل الرجل جباناً رعديدا، بل زادوا في فسادهم، وبلغ بهم الأمر -وهم المسؤولون عن حفظ النظام- أن يعبثوا هم بالنظام، فقطعوا الطرق على المسافرين وسرقوا كلما وجدوا فرصة للسرقة، وبلغ الضعف بحكامهم أن أصبحوا تحت سيطرة العواهر من النساء، والطامحين من الفقهاء. ومثل هذه الدولة لا يطول بها الأجل، ولا تمتد بها الأيام، فإن ثورة جامحة قامت في أفريقيا للقضاء على المرابطين فاختلت أحوالهم، وجدد النصارى هجماتهم في الأندلس، وامتدت غزواتهم من ليون إلى جبل طارق، ولما رأى الأندلسيون أن المرابطين لا يفعلون حيال ذلك شيئاً ثاروا عليهم فأخرجوهم من البلاد[1].

وبعد أن دانت الأندلس ليوسف بن تاشفين، عمل على تنظيمها بالشكل الذي رآه مناسباً. وهذا ما سنحاول توضيحه في الفصل الرابع...

(1) مجهول، الحلل الموشية، ص 57-59.

الفصل الرابع

الأعوام الأخيرة من حكم يوسف بن تاشفين



الفصل الرابع

الأعوام الأخيرة من حكم يوسف بن تاشفين

أ) يوسف بن تاشفين والخليفة العباسي

1. علاقة يوسف بن تاشفين بالعباسيين
2. حصول يوسف بن تاشفين على الخلع
3. عهد الخليفة العباسي إلى ابن تاشفين

ب) تنظيمات يوسف بن تاشفين

1. تنظيم شؤون الأندلس
2. تنظيم الدولة وفنون الحرب
3. الثقافة والشعر في عهد يوسف

ج) ولاية عهده

د) وفاة يوسف بن تاشفين ومكان دفنه

الفصل الرابع
الأعوام الأخيرة من حكم يوسف بن تاشفين

تمهيد:

ترسخت أركان الدولة المرابطية في عهد يوسف بن تاشفين، وشب عودها، وأصبحت مهابة الجانب، وبلغت أوج اتساعها من أقصى نقطة في شمال الأندلس حتى تخوم السودان جنوباً ومدينة الجزائر شرقاً. وقد شهد عهده ازدهاراً مهماً عبر عنه أحد المؤرخين بقوله:" أقامت بلاد الأندلس في مدته سعيدة حميدة في رفاهية عيش وعلى أحسن حال، لم تزل موفورة محظوظة إلى حين وفاته رحمه الله"[1]. وفي الوقت ذاته تمكنت دولته الفتية من السيطرة على تجارة البحر الأبيض المتوسط وتجارة القوافل الصحراوية، ونشر الإسلام في ربوع السودان، ناهيك عن المعارك المظفرة التي نجحت في ردع التطلعات الصليبية شمال الأندلس.

وتمكن يوسف بن تاشفين بعد تحقيق وحدة الدولة من تأسيس نظام سياسي يمكن رصد ملامحه كما يلي:

في قمة الهرم السياسي كان أمير المسلمين[2]، وتتجلى اختصاصاته في الإشراف على معارك الجهاد وتولية العمال على أقاليم الدولة. ومراقبة الجهاز الإداري إما بالطواف على أقاليم الدولة لمعرفة شؤون الرعية[3] أو استدعاء العمال ومحاسبتهم أحيانا على إقامة الحدود. وكان يجمع إلى جانب السلطة الزمنية السلطة الروحية، ولو أنها ظلت في معظم الحالات بيد الفقهاء. واحتاط الأمير نفسه بمجموعة من طبقة الكتاب الذين احتلوا مكانة مرموقة في الدولة[4].

---

(1) مجهول، الحلل الموشية، ص 82.

(2) يتقلد أمير المسلمين إمارته من أمير المؤمنين الخليفة العباسي(راجع الملحق رقم(1)، ص 95-102).

(3) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 137.

(4) المراكشي، المعجب، ص 255 وما بعدها.

وكان تعيين ولي العهد يجري وفقاً لمراسيم فخمة، فيعقد من زعماء القبائل والولاة والفقهاء، ثم يصرح المجتمعون بأنهم يقبلون ولي العهد المختار أميرهم، ويبايعونه بالطاعة تحت شروط يحددها الأمير.

كما وطد يوسف بن تاشفين دعائم حكمه بإحداث منصب نائب أمير المسلمين، وأعطاه سلطة مطلقة باعتباره ممثلاً له، ومن ثم كان له حق تنصيب ولاة الأقاليم أو عزلهم.

ولم يرحل يوسف بن تاشفين إلا بعد أن رسخ دعائم دولته وافشل حركة الاسترداد المسيحية، تاركاً دولة فتية مرهوبة الجانب.

أ) يوسف بن تاشفين والخليفة العباسي

1. علاقة يوسف بن تاشفين بالعباسيين:

لم تكن الأصداء اقل أهمية بالنسبة إلى الشرق، ولن يستغرب هذا سوى من ينسون أن الزمن مهما طال لا يمحو الأحقاد ذات الطابع الوراثي، إن ضعف الخلافة العباسية ما كان ليمحوا من نفوس أهلها حزازاتهم التقليدية ضد بني أمية ضد رعيتهم بالأندلس، وإذا كانت هذه الخلافة الأموية الخصيمة قد وافاها اجلها هناك، فان أهل الأندلس هم ميراثها، لقد ابقوا على ولائهم لها بعد الانهيار إلى اجل ما، كما أنهم لم يروا ضرورة لإعلان ولائهم لبني العباس بعد أن أنكروا الأمويين إنكاراً صريحاً.

ومن هنا فلا بد من أن تكون حركة ابن تاشفين مدعاة إلى اهتمام بني العباس، إن ما يدعو إلى التفكير ليس هو اعتراف ابن تاشفين بالخلافة العباسية فحسب، بل أيضاً عدم مبادرة الخليفة العباسي للاتصال بيوسف لاجتذابه إلى صفها، ربما قلنا ان المسألة الأولى أقل تعقيداً، ما دام اعتراف ابن تاشفين بالخلافة العباسية يقيناً، لا يعوزنا منه سوى التوصل إلى الكيفية التي تم بها وربما قلنا بالنسبة إلى المسألة الثانية ان الخلافة العباسية لم تكن تستطيع رغم اهتماماتها السابقة أن تتنازل فتخاطب أميراً بالانضمام إلى صفوفها مهما كانت نتائج هذا الخطاب" تدرجاً" يقتضي بأن يتشرف الأدنى مرتبة لمخاطبة من هو أسمى منه.

مهما يكن، فان الاعتبارات التي أخذ بها فيما يتعلق بهذه المسألة- مسألة العلاقة بين يوسف والخلافة العباسية- أثرت إلى حد بعيد في تكوين نظرة الشرق الإسلامي عن يوسف بن تاشفين والأحداث التي تزعمها. والسبب واضح وهو أن الناس على دين ملوكهم.

ومع ذلك يجب الاعتراف بأن العوامل السياسية لم تكن سابقة الفضل في تعريف الشرق بهذا الملك. فقد شاعت أخباره عن طريق المسافرين والحجاج قبل أي اتصال مع خليفة بغداد، فكان دور الخلافة العباسية يقف عند مجرد تأكيد السمعة الطيبة، وكأن فتاوى الفقهاء جاءت متأخرة بعض الشيء، وهذه الشهادة التي تصدر عن الخلفاء في حواضرهم، وعن عامة الناس في مناسك حجهم، وعن العلماء في فتاويهم، هي شهادة يكمن صدقها في اتفاق القائمين بها على اختلاف مقاييسهم.

على أن العلاقات التي قامت بين المرابطين وبني العباس بدأت قبل عهد يوسف بن تاشفين. ففي سنة 1058/450 ضرب أبو بكر- أول أمراء المرابطين بالمغرب الأقصى- ديناراً باسم الخليفة العباسي عبد الله بسلجماسة[1]، وضربت دنانير أيام يوسف بن تاشفين باسم الخليفة عبد الله المستظهر أيضاً[2]، كما ضربت دنانير أيام علي بن يوسف بن تاشفين باسم الخليفة عبد الله المستظهر[3].

2. حصول يوسف بن تاشفين على الخلع:

لم تقتصر العلاقات القائمة بين المرابطين وبين العباسيين على مجرد كتابة اسم الخليفة العباسي الحاكم على النقود المرابطية، بل تعدى الأمر ذلك، فلما فتح يوسف بن تاشفين المغرب الأقصى وجزءاً من المغرب الأوسط والأندلس أراد أن يجعل ملكه شرعياً، فاستشار الفقهاء في ذلك، فنصحوا له بأن تكون ولايته صادرة عن الخليفة الشرعي لتجب طاعته على الكافة، فأرسل إلى

(1) مجهول، الحلل الموشية، ص 14.

(2) أداه، محمد ولد، مفهوم الملك في المغرب، ص 113.

(3) م.ن.

الخليفة المستظهر بالله العباسي(512/487 هـ) ببغداد، طالباً تقليده، فاستجاب المستظهر لرغبته، وبعث إليه بمرسوم الولاية، وبالخلع والتشاريف، فسر يوسف بذلك سروراً كثيراً[1].

وهذا ابن خلدون يقول:" تسمى يوسف بن تاشفين بأمير المسلمين، وخاطب الخليفة ببغداد وهو أبو العباس أحمد المستظهر بالله العباسي، وبعث إليه عبد الله بن محمد العربي المعافري الإشبيلي، وولده القاضي أبا بكر بن العربي، الإمام المشهور[2]، ومعهما هدايا كثيرة، وكتاباً يذكر فيه ما فتح الله من بلاد الفرنج وما اعتمده من نصرة الإسلام[3]. فتلطفا في القول، وأحسنا في الإبلاغ، وطلبا من الخليفة أن يعقد لأمير المسلمين بالمغرب والأندلس، فعقد له، وتضمن ذلك مكتوب من الخليفة منقول إلى أيدي الناس، وانقلبا إليه بتقليد الخليفة وعهده على ما نظره من الأقطار والأقاليم، وخاطبه الإمام الغزالي والقاضي أبو بكر الطرطوشي يحضانه على العدل والتمسك بالخير"[4].

وإنما احتاج أمير المسلمين إلى التقليد من الخليفة المستظهر بالله-مع أنه كان بعيداً عنه وأقوى شوكة منه-لتكون ولايته مستندة إلى الشرع. وهذا من ورعه رحمه الله.

وكان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين حين ورد عليه التقليد من الخليفة ضرب السكة باسمه ونقش على الدينار" لا اله إلا الله، محمد رسول الله"، وتحت ذلك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وعلى الوجه الآخر" ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين"[5]. كما كتب الأمير عبد الله أمير المؤمنين العباسي[6]. وعلى الدائرة تاريخ ضربه وموضع سكته[7].

---

(1) ابن الأثير، الكامل، 417/10.، عنان، تراجم إسلامية، ص 229.

(2) ابن خلدون، العبر، 188/6

(3) ابن الأثير، م.س.، 417/1.

(4) ابن خلدون، م.س.، 188/6.

(5) سورة آل عمران، آية 85.

(6) ابن أبي دينار، المؤنس، ص 105.

(7) الناصري، الاستقصا، ص 123.

3. عهد الخليفة العباسي إلى ابن تاشفين

بعث الخليفة العباسي المستظهر بالله بتقليد شرعي إلى يوسف ابن تاشفين يعدد فيه الوصايا، ويوجهه الوجهة الشرعية في حكم البلاد والرعايا. وهو يذكر أنه حين انتهى إليه(إلى أمير المؤمنين) ما هو عليه من ادراع جلابيب الرشاد في الإصدار والإيراد، واتباع سنن من أبدى وأعاد، فيما يجمع خير العاملة والمعاد(...) واتضح ما هو متشبث به من صحة الدين واليقين(...) في ضمن ما طوى عليه ضلوعه، وأدام لهجه به ولوعه، من موالاة لأمير المؤمنين بدين الله تعالى بها. ويرجوا النجاة من كل مخوف باستحكام سعيها(...) فولاه الصلاة بأعمال المغرب والمعاون، والأحداث والخراج والضياع والأعشار، والصدقات والجوالي وسائر وجوه الجبايات والعرض والعطاء والنفقة في الأولياء، والمظالم وأسواق الرقيق، والعيار في المغرب والطرز والحسبة(...) واستقباله النعمة عليه في ذلك بكل ما ينشر ذكره ويطيب رياه[1].

بعد ذلك ينتقل الخليفة إلى الوصايا المتنوعة المعروفة فيوصيه أول ما يوصيه بتقوى الله تعالى في الإعلان والاسرار[2]، ثم يوصيه الائتمام بكتاب الله تعالى والاستضاءة بمصباحه[3]، وأن يحافظ على الصلوات، وأن يسعى في أيام الجمع إلى المساجد الجامعة وأن يقيم الدعوة على منابرها لأمير المؤمنين ولولي عهده العدة للدين القاسم بن عبد الله بن محمد بن أمير المؤمنين أدام الله به الإمتاع(...) ثم لنفسه جارياً في ذلك على ما ألف من مثله[4]، ثم يوصيه بإخراج الزكاة على الوجه الشرعي، بعد ذلك يوصيه بحسن السيرة والبعد عن الرذيلة، وأن يحسن لأتباعه وأنصاره وأن يعدل في الرعايا قبله وأن يأمر بالمعروف

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، 10/31-45.

(2) م.ن.

(3) م.ن.

(4) م.ن.

وينهى عن المنكر وأن يحمي الطريق، وأن يلقي القبض على أباق العبيد وإعادتهم إلى أصحابهم، وأن يختار للشرطة رجالاً أكفاء أقوياء حتى يقتلوا الشر من جذوره، وحتى يدعموا أحكام القضاة خير دعم وأقواه، وأمره بتفقد السجون وضبط النفقات، وقطع دابر الرشوة والسرقات، وأمره بالاستعداد الدائم والدائب للحرب والجهاد، وأمره أن يختار عمال الخراج والعشور والصدقات من الأتقياء البررة وكذلك الحال في أمر الحسبة والطراز، ودور الضرب والرقيق[1].

وسأورد نصاً كاملاً لعهد الخليفة العباسي إلى يوسف بن تاشفين في الملحق الأول من ملاحق هذه الرسالة كما ورد عند القلقشندي في كتابه صبح الأعشى.

ولم يكتف يوسف بما حققه من شرعية، وإنما لجأ أيضاً إلى حجة الإسلام الغزالي الذي كان معاصراً له، فأرسل له أحد الفقهاء في حضرته فقص على الإمام الغزالي سيرة يوسف في تقواه ودينه وجهاده، ورسم له صورة مشرقة كل الإشراق، فأصدر الإمام الغزالي فتوى شرعية تثبت شرعية ولاية يوسف بن تاشفين وتجعل الخروج عليه خروجاً عن الدين وخروجاً من الإسلام والإيمان.

والملاحظ في هذه الفتوى أن الغزالي يجعل الاعتراف بالخليفة العباسي شرطاً أساسياً وركناً رئيساً من أركان شرعية الحكام الذي يعترف بالخليفة العباسي،(...) وإذا نادى الملك المشمول بشعار الخلافة العباسية وجبت طاعته على كل الرعايا والرؤساء، ومخالفته مخالفة للإمام.

وكان حكم من تمرد واستعصى كحكم الباغي، ومن حق الأمير أن يرده بالسيف، وان يقاتل الفئة المتمردة على طاعته[2]. وأن يستمر في قتالهم حتى يعودوا إلى طاعة الأمير العادل المتمسك بطاعة الخلافة العباسية ومن تركوا المخالفة وجب الكف عنهم(...)[3].

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، 10/31-45.

(2) ابن الأثير، الكامل، 10/417.، ابن خلدون، العبر، 6/188.، القلقشندي، م.س.، 10/31-45.، عنان، عصر المرابطين والموحدين في الأندلس، 1/42-43.

(3) م. ن.

ويبدو أن بعضاً من مناوئي يوسف احتجوا بعدم وصول تقليد من الخليفة العباسي، ويرد الغزالي على هذا القول بما يأتي(...) حكمهم بالجملة في البغي على الأمير المتمسك بطاعة الخليفة المستولي على المنابر والبلاد بقوة الشوكة حكم الباغي على نائب الإمام، فانه وإن تأخر عنه صريح التقليد لاعتراض العوائق المانعة من وصول المنشور بالتقليد فهو نائب بحكم قرينة الحال، إذ يجب على أمام المصر أن يأذن لكل مسلم عادل استولى على قطر من أقطار الأرض، أن يخطب له وينادي بشعاره ويحمل الخلق على العدل والنصفة.

ولا ينبغي أن يظن بالإمام توقف في الرضا بذلك والإذن فيه، وان توقف في كتبه المنشورة، فالكتب قد يعوق على إنشائها وإيصالها المعاذير[1].

وسأورد نصاً كاملاً لفتوى الإمام الغزالي في الملحق الأول من ملاحق هذه الرسالة كما أورده عنان في كتابه عصر المرابطين.

كذلك وجه الإمام الغزالي خطاباً إلى يوسف بن تاشفين يفيض مدحاً وشكراً على ما فعله في نصرة المسلمين في الأندلس، وقد افتتح الخطاب بلقب من المستغرب كل الاستغراب أن يطلقه الغزالي نفسه على يوسف بن تاشفين وهو أمير المؤمنين[2]، وهذا لا شك خطأ من النساخ، لان الغزالي نفسه يلقب يوسف في نفس الرسالة بلقب ظهير أمير المؤمنين[3]. وواضح كل الوضوح من الرسالة أن الغزالي لا يلقبه قطعاً بأمير المؤمنين، وإنما أمير المؤمنين الخليفة العباسي ويوسف أحد ولاته. ويبدو لنا أن اصل اللقب هو أمير المسلمين، ولكن حصل خطأ أو التباس أدى إلى هذا. وفي النهاية دعا الغزالي للأمير يوسف بأن يوفقه الله ويسدد خطاه.

---

(1) عنان، عصر المرابطين والموحدين في الأندلس، 1/42-43.

(2) م.ن.

(3) م.ن.

ب) تنظيمات يوسف بن تاشفين

1. تنظيم شؤون الأندلس:

لما أخضعت أسبانيا المسلمة لصولة المرابطين، عبر سلطان أفريقيا يوسف بن تاشفين إلى أسبانيا مرة أخرى لكي يعنى بتنظيم شؤونها قبل وفاته، وكان ذلك سنة 1103 م. بعد استرداد بلنسية بقليل، حينما عبر يوسف إلى الجزيرة للمرة الرابعة، ولم يكن عبوره هذه المرة لمحاربة المسلمين في الأندلس، بل كانت تحدوه عندئذ بالنسبة إليهم عواطف ونيات سليمة بعد أن غدوا رعاياه، واستصحب معه ولديه تميماً أبا الطاهر، وعلياً أبا الحسن. ومع أن علياً كان اصغر من أخيه فقد اختاره يوسف لولاية عهده، إذ كان يتفوق على أخيه تفوقاً كبيراً في المواهب والخلال اللازمة لحكم شعوب وأمم كثيرة.

وسرعان ما كشف يوسف عن قصده في العبور إلى الجزيرة، ذلك أنه بعد أن وقف على حسن سير الإدارة في الولايات، وشكر القادة والولاة على غيرتهم في تنفيذ أوامره، دعا القادة والولاة إلى الاجتماع في قرطبة، وكانت قد عادت يومئذ قاعدة الحكم في أسبانيا المسلمة، ودعي إلى هذا الاجتماع أيضاً كبراء الأندلسيين في مختلف الولايات، وكذلك زعماء القبائل التي المغربية التي تدين بالطاعة ليوسف، وأفضى يوسف إلى الجماعة بعزمه على تعيين ولده الأصغر علياً لولاية الحكم من بعده، وأمرهم أن يؤدوا يمين الولاء والطاعة باعتباره أميرهم المستقبلي... وهذا ما سأقوم بمحاولة توضيحه في هذا الفصل.

وأما فيما يختص بالأندلس فقد أمر يوسف ولده علياً بما يأتي: ألا يعين في مناصب الحكام والقضاة في الولايات والحصون والمدن إلا المرابطون من قبيلة لمتونة، وأن يحتفظ في الأندلس بجيش دائم، حسن الأجر من المرابطين قوامه سبعة عشر ألف فارس يطعمون من المدن بلا مقابل ويوزعون كما يأتي: أربعة آلاف في ولاية سرقسطة، وسبعة آلاف في قرطبة، والباقي يحتلون قلاع الحصون كحامية[1]. ويحسن أن يعهد إلى مسلمي الأندلس بحراسة الحدود النصرانية،

(1) مجهول، الحلل الموشية، ص 57.

ومحاربة النصارى، فهم أكثر خبرة ودربة على مقاتلة النصارى من المغاربة، ويجب لإذكاء همم الأندلسيين أن يكافأ المتفوقون في الحرب منهم بالخيل والسلاح والثياب والمال.

وينصح يوسف أخيراً أن يعامل أهل قرطبة المعروفين بالكبر وحب الشغب باللين والرفق، وأن توثق أواصر الصداقة مع بني هود أمراء سرقسطة وهم طليعة الأندلسيين في محاربة النصارى[1].

ولما انتهى يوسف بن تاشفين من تنظيم شؤون الأندلس عاد إلى أفريقيا حيث تولى الحكم بضعة أعوام أخرى، وذلك بالرغم من سنه المتقدمة وضعفه المتزايد.

2. تنظيم الدولة وفنون الحرب:

كانت نظم الدولة التي قامت عليها مملكة المرابطين من صنع يوسف، فهو الذي أعطى المملكة حدودها ودعامتها الأساسية، واستطاع بعد أن أسس العاصمة مراكش، وافتتح أقطار المغرب والأندلس أن يتخذ- باعتباره زعيم المرابطين في الشؤون الدينية والدنيوية- ألقاب الخلافة وأمير المؤمنين من دون أن يكون من فروع الدوحة النبوية، تشبيهاً في ذلك بأعظم أمراء الإسلام في عصره، خلفاء بغداد العباسيين، وخلفاء القاهرة الفاطميين، وان يجعل الملك متوارثاً في أسرته وكانت تقام صلاة الجمعة في المساجد باسم هذا السلطان، وتضرب السكة باسمه، وفي جميع أنحاء المملكة، وكان لون علم المرابطين السواد على مثل الدولة العباسية، يحملون الأعلام السوداء، ويرتدون المعاطف السوداء.

وكان كل سلطان يختار أثناء حياته ولي عهده بنفسه، وكان يتم اختياره عادة من بين أبنائه أنجبهم وأكفأهم للاضطلاع بالحكم، فقد اختار يوسف بن تاشفين مثلاً لولاية عهده أصغر أبنائه، وكان من أهم عوامل الخلاف

---

(1) مجهول، الحلل الموشية، ص 60.

على وراثة العرش فيما بعد، أنه لم يصدر قانون صريح ينظم وراثة العرش، في حالة ما إذا مات أمير المؤمنين القائم أن يختار خلفه، وكل تعيين ولي العهد يجري وفقاً لمراسيم فخمة، فيعقد مجلس من زعماء القبائل والولاة والعلماء والفقهاء، وتعرض عليه رغبة السلطان، ويصرح المجتمعون بأنهم يقبلون ولي العهد المختار سلطانهم المستقبل، ويبايعونه بالطاعة إذا شاء ذلك أميرهم، وللأمير إذا شاء أن يقيل ولي عهده وان يختار بدلاً منه، ويجب على الوزير أن يحرر وثيقة بوراثة العرش، تودع في المحفوظات الملكية[1].

ومتى تولى سلطان المرابطين الحكم بايعه بالطاعة أولاً أفراد أسرته، ثم الأمراء المرابطون، وأقسموا له يمين الإخلاص والطاعة، ثم يتلوهم زعماء القبائل وعمال الحكومة، ويخطر الشعب بمرسوم يتلى في المساجد، ويستبدل اسم الملك الراحل في خطبة الجمعة باسم الملك الجديد. ويعهد بحكم الأقاليم إلى الأمراء المرابطين الذين لم يولوا الملك، وكانت الأندلس أهم هذه الأقاليم، ويعهد بولايتها عادة إلى الأمير الذي يعين لولاية العهد، ويلقب عندئذ بلقب خاص به وهو" النائب" ويتخذ مركز الحكم على الأغلب في غرناطة أو اشبيلية أو قرطبة.

ويعاون أمير المسلمين في القيام بأعباء الحكم مجلس للدولة مؤلف من الوزراء، وينتقل هذا المجلس معه أثناء الحرب، ويوزع الوزراء فروع الإدارة والحكم بين أنفسهم، ويتولى رئاسة المجلس كبير الوزراء أو الوزير، ويتولى الوزير الكاتب إعداد جميع الوثائق الرسمية العامة.

ويقوم نظام الدولة كله على أسس عسكرية، وأمير المؤمنين هو قائد الجيش الأعلى، وولاته هم في الوقت نفسه من قواد الجيش يتزعمون منه أقساماً معينة، بل كان قضاة المدن أنفسهم أيضاً من القواد العسكريين، وكان معظم الموظفين في البلاط وفي الولايات ينتمون إلى قبيلتي لمتونة وكدالة الحربيتين،

(1) أشباخ، تاريخ الأندلس، ص 477-478.

وهما اللتان يرجع إليهما أصل المرابطين أنفسهم[1]. هذا وقد عمل يوسف ابن تاشفين على الاحتفاظ بمعظم طرائقهم في تنظيم فنون الحرب، لا يفرون أمام عدو مهما تفوق عليهم في العدد، وكانوا يرتبون صفوفهم في المعركة ببراعة، ومع أن قوتهم الأصلية كانت تقوم على الفرسان، فإنهم كانوا يقدمون في الصف الأول أشجع جندهم من المشاة، يتقلدون الحراب الطويلة ويغرسونها في الأرض.

وقد أكمل يوسف بن تاشفين تنظيم اللمتونيين وأعدوهم للحرب أعظم إعداد، وكانت دعامة جيشه قوة من الفرسان حسنة الدربة، مزودة بأفضل سلاح، ووصل عددها في عهده إلى مائة ألف مقاتل، وكانت كل فرقة تحمل علمها الخاص من مختلف الألوان، وعليه رسوم ونقوش خاصة، ولها زعيمها الخاص، ويخرج الجيش إلى الحرب تحت قرع الطبول وصوت الأبواق، وقد رتبت الصفوف حسب القبائل[2].

وكان ترتيب المعركة عند المرابطين يقوم على نظام خماسي، ويتقدم الجيش الجند المشاة، ووحدات الفرسان الخفيفة، وحملة القسي، وحملة النبال، ويرتبون في الجناحين، ويتكون القلب من وحدات الفرسان المرابطية الثقيلة، وهي التي كان لها على الأغلب القول الحسم في المعارك، وكانت القوى الخلفية أو القوى الاحتياطية يقودها الخليفة بنفسه إذا كان مصاحباً للجيش، وتتألف من صفوة جنود الجيش، وقوى الحرس المختلفة. وكان لكل قسم من القوى المقاتلة قائده الخاص، ويجتمع القادة جميعاً في مجلس الحرب الذي يعقد قبل المعركة ويتلقون الأوامر والتعليمات من القائد الأعلى، وكان الجند ينظمون وفقاً للأقاليم والمدن، فيؤلف الأندلسيون مثلاً قسماً خاصاً من الجيش، ويحمل أعلام اشبيلية وقرطبة وجيان ومالقة وغرناطة وغيرها. ولكن قوى الحرس الخاص كانت تؤلف من أشجع الجند من مختلف الولايات، ويشترط في قبولهم أن يكونوا من ذوي القوام الحسن، والشجاعة الفائقة، والقوة والبراعة. وجمع يوسف ابن تاشفين بواسطة تجار الرقيق في إقليم غانة عدداً كبيراً من العبيد، واختار منهم

---

(1) أشباخ، تاريخ الأندلس، ص 478.

(2) م.ن.

أمهرهم وزودهم بالسلاح والخيل، ودربهم على جميع فنون القتال، وأنشأ على مثل هذا النمط حرساً خاصاً من الأندلسيين، يتألف من فتيان من النصارى المعاهدين الذين يحتم عليهم اعتناق الإسلام، وكان يوسف يحبوهم بعطفه وصلاته، وينعم على من امتاز منهم بالإخلاص والشجاعة بمختلف الهبات من الخيل والثياب والسلاح والعبيد. وكان علي بن يوسف أول أمير مرابطي اختار حرسه الخاص من بين النصارى، وهو تصرف كان له وقع سيء بين المسلمين المحافظين.

وكان الجند عند السير ينظمون كما لو كانوا على وشك خوض المعركة، وكانت الأقوات والخيام تحمل وراء الجيش على ظهور الدواب، ويتبعها الرعاة وهم يقودون قطعان الماشية من كل صنف، ومتى حط الجيش رحاله أقيم معسكر في منتهى الانتظام، وكان يوسف بن تاشفين لا يقتصر في استعمال الجمال على حمل الأثقال، ولكنه كان في حروبه بالأندلس ضد النصارى يستعلها بالأخص مكان الخيل لكي يستعين بمنظرها الغريب على بث الرعب في نفوس الأعداء، ويقال أن هذه الخطة نجحت في موقعة بطليوس، ومما يلفت النظر أنه لم يرد قط أنهم استعملوا الفيلة في الحرب مثلما كان يعمل القرطاجيون القدماء.

وكان المرابطون في أيامهم الأولى، حينما قامت دولتهم وازدهرت يقاتلون في الحروب تحت قيادة يوسف بن تاشفين بمنتهى الإقدام والشجاعة، ويطلبون الموت شهداء في سبيل الإسلام اجتناء لنعيم جنة الخلد، ومن ثم كانت هجماتهم من العنف بحيث لم يقو أحد على ردهم، وكان هذا الشغف بالكفاح يبدو بنوع خاص من الجهاد ضد النصارى الإسبان، وكانت الصلاة تقام قبل بدء المعركة، ومتى تمت هزيمة العدو، أقيمت أهرام من رؤوس القتلى النصارى، وأذن المؤذنون عليها للصلاة كأنها مآذن، وأذيعت أنباء النصر بين الشعب من منابر المساجد، وقرئ منها للناس بيان أمير المسلمين عن الموقعة.

وكان الخليفة يختص من الغنائم بالخمس، وفقاً لأحكام الإسلام، ويوزع الباقي بين الجند.

والظاهر أن المرابطين بالرغم من بسالتهم في المعارك، وبالرغم من أنهم كانوا يعرفون آلات الحصار وطرائق رميها، لم يكونوا على براعة كافية بفنون الحصار، ويرجع السبب في ذلك إلى أن دعامة قوتهم كانت ترتكز على الفرسان وهم أقل براعة في فنون الحصار، على أنهم كانوا يجيدون تحصينها، وقد دللوا في مواطن كثيرة على أنهم يحسنون الدفاع عن الأماكن الحصينة.

ويقال بأن يوسف نظم جيشه نظاماً جديداً، فقسمه إلى قسمين سمى الأول منهم"بالجشم" والثاني"بالدخليين"، فكان الجشم يتألف من جنود لمطة وجزولة، وجنود قبائل زناتة ومصمودة، وكان جيش الدخليين يتألف من جنود صنهاجة والأعلاج والعبيد السودان،" فضم من جزولة ولمطة وقبائل زناتة ومصمودة جموعاً كثيرة وسماهم بالجشم، وضم طائفة أخرى من علاجة وأهل دخلته وحاشيته فصاروا جموعاً كثيرة وسماهم الدخليين"[1].

ومرن يوسف جيوشه على السير في صفوف منظمة تحت البنود وعلى دوي الطبول[2]، قبل جوازه الأول إلى الأندلس.

وكان الأسطول يتألف من سفن النقل أكثر مما يتألف من سفن القتال، وذلك لأن الغرض من إنشائه هو حفظ المواصلات بين المغرب والأندلس، ونقل الجند، وقد استخدم الأسطول في فتح بلنسية والجزائر الشرقية(البليار)، ولكن لم تنشب أية موقعة بحرية[3].

وكانت أسبانيا المسلمة فيما يتعلق بالحكم والإدارة في ظل المرابطين، كلها عبارة عن معسكر ضخم، وذلك لاضطرام الحرب ضد النصارى بلا انقطاع ولان المرابطين كانوا يرتابون في ولاء الأندلسيين، وهكذا كانت الأندلس تعامل دائماً كولاية على وشك الخروج والثورة، ويحتلها باستمرار سبعة عشر ألف

(1) مجهول، الحلل الموشية، ص 21-22.

(2) أداه، محمد ولد، مفهوم الملك في المغرب، ص120.

(3) أشباخ، تاريخ الأندلس، ص 480-481.

فارس من المرابطين، يقيمون في المدن والقلاع الهامة، منها في اشبيلية حامية من سبعة آلاف، وفي غرناطة حامية من ثلاثة آلاف، وفي قرطبة حامية من ألف، وكان كل فارس يتقاضى مرتباً شهرياً قدره خمسة دنانير مرابطية، هذا عدا الطعام المجاني، وكان قواد الحاميات وكذلك الولاة وقضاة المدن، ومعظم الموظفين من المغاربة، ولا سيما اللمتونيين، أما المسلمون من الأصول العربية والمصرية والسورية والفارسية فقد أهملوا وأغضي عنهم، وعلى هذا فقد كان من الطبيعي ألا يرى مسلمو الأندلس في المرابطين سوى طغاة ظالمين. وفي عهد يوسف بن تاشفين كان من المتعذر أن تبدو المساويء التي كان من المحتوم أن تترتب على نظمه، وصنوف الظلم والإرهاق التي يرتكبها الولاة، لأنه كان من وقت إلى آخر يطوف بنفسه أرجاء مملكته الشاسعة، ويتحرى أحوال المدن وحكوماتها، ويستمع إلى الظلامات، ويتخذ ما يجب لإقامة العدل وحفظ الأمن، ولكن المساويء غلبت في عهد الملوك الضعفاء بسرعة، ولا سيما في الأندلس، وكان الأندلسيون أكثر احتمالاً لخشونة الجند والقادة لأنهم كانوا على الأقل رجالاً تغلب عليهم البساطة والصراحة، بعيدين عن الخداع والجشع، ولكنهم لم يحتملوا القضاة والعلماء الذين اختصوا بالفعل في شؤونهم، ذلك لأنهم بدلاً من أن يولوهم العدل والحماية، كانوا يغلبون في معاملتهم الظلم، والاضطهاد والجشع وجميع صنوف الشر والإرهاق، وكان الموكلون بتحصيل الضرائب عادة من اليهود، يجمعون المكوس من المسلمين والنصارى والمعاهدين، طبقاً لعدد الأنفس، وكانوا بذلك أداة بيد الموظفين يوجهونهم وفق أهوائهم وجشعهم، ثم انتهى الأمر بأن حذا الجند حذو الموظفين، وأخذوا يعتدون في المدن على حريات الأفراد وأموالهم، وهكذا جنح الشعب إلى الثورة، وانتهى المرابطون بأن فقدوا الأندلس سراعاً حينما غزاها الموحدون.

وكان لا يزال يقطن جنوبي أسبانيا في أوائل القرن الثاني عشر، كثير من النصارى المعاهدين[1]، وكانوا يتمتعون بحرية الشعائر، ويحتفظون ببعض القوانين القوطية ولهم أساقفتهم وقضاتهم، ولكن حدث أن ثار النصارى المعاهدون

(1) أشباخ، تاريخ الأندلس، ص 481.

ليرفعوا عنهم النير الأجنبي، وليساعدوا الفونسو الأول ملك أراجون في حملته ضد غرناطة ومالقة، فترتب على ذلك أن عمل خليفة المرابطين على تشري معظم السكان النصارى ونقلهم من الأندلس إلى أفريقيا[1]، فهلك معظمهم من الحرمان، وتغير الطقس، ودخل بعضهم جيش الخليفة، وحارب معه وألفى أمير المؤمنين علي بن تاشفين أن النصارى لا يستطيعون أن يؤدوا كثيراً من الخدمات، فعين في بلاطه فرساناً من النصارى، وأنشأ منهم فرقة خاصة في الجيش، أسدت إليه خدمات طبية في حربه ضد الموحدين، وعهد إلى النصارى بتحصيل الضرائب في المغرب، على نحو ما كان يحدث في الأندلس من قيام اليهود بهذا العمل.

ولم يتمتع اليهود- وكان عددهم كبيراً في المغرب والأندلس- بنوع من التسامح إلا في عهد خلفاء يوسف بن تاشفين. وقد كان يوسف شديد العداء لليهود، وكان يريد أن يرغمهم على اعتناق الإسلام، لأنهم في زعمه، وكما ورد في بعض الكتب القديمة، تعهدوا أيام النبي باعتناق الإسلام، إذا لم يظهر مسيحهم المنتظر بعد خمسمائة عام. ولم يستطع اليهود اتقاء الاضطهاد إلا بعد أن بذلوا مبالغ طائلة من المال، واشتروا بذلك سلامتهم وحرية شعائرهم.

ولم يبد سلاطين المرابطين كبير عناية بأمر العلوم والفنون والشعر، وتقدم المعارف، وقد اضطهدوا كل ما عنيت الدول العربية بتشجيعه من قبل، وطاردوا العلوم الفلسفية والكلامية التي تنكرها التعاليم المرابطية، وحظروا قراءة الكتب التي تحتويها واحرقوها علناً، وكذلك حرمت وأحرقت جميع الكتب التي تتضمن قصص الفروسية والقصص العادية، وقد أنشأ يوسف بن تاشفين بالأخص كثيراً من المساجد والثكنات، والمساكن، واختط الشوارع والأسواق، ولم يدخر وسعاً في العمل على ترقية جميع المنشآت الضرورية والنافعة[2].

---

(1) م.ن. ص 482.

(2) أشباخ، تاريخ الأندلس، ص 482.

3. الثقافة والشعر في عهد يوسف:

قد يرى القارىء أمراً غريباً في إدراج هذا الموضوع "الثقافة والشعر" ضمن تنظيمات يوسف بن تاشفين، غير أنني رأيت من المناسب إدراج مثل هذا الأمر في هذا المجال لكون الثقافة والشعر قد عملا على نشر الأمن الداخلي الذي ساعد على التألق الحضاري والنشاط الاقتصادي، كما كان للثقافة والشعر دور في تنظيم العلاقة بين المغرب والأندلس، علاوة على ما كان للفقهاء من دور سياسي ساهم في تنظيم الدولة وذلك من خلال توجيهاتهم السياسية والدينية، وما كان لهم من دور في تنظيم العلاقة مع العباسيين ويوسف بن تاشفين...

يمكن القول في هذا المجال بأن الأمر لو توقف عند مجرد انتقال السلطة من يد ملوك الطوائف إلى يد يوسف بن تاشفين، لما كان للتدخل المرابطي إلا أسوأ الآثار فيما يتعلق بالثقافة والحضارة. لكن الواقع أكثر من ذلك، لأن التدخل استتبع نتائج ايجابية خطيرة، بالنسبة إلى الوجود الإسلامي عامة، وثقافة الإسلام وحضارته بصفة خاصة.

هناك إنقاذ امة من اندثار محقق، نعني الحيلولة دون أن يجهز عليها جيرانها النصارى. وهذه نقطة الحسم والبت التي تطبع هذا التدخل وتمنحه التسويغ والأهمية. كانت مسألة استمرار الإسلام في تلك الربوع مبدءاً رئيساً. وكان يوسف بن تاشفين عارفاً بهذا الأمر حين قال: "لئن عشت لأعيدن جميع البلاد التي ملكها الروم في طوال هذه الفتنة إلى المسلمين، ولأملأنها عليهم خيلاً" لذلك فان التاريخ الإسلامي بالأندلس يدين باستمراره خمسة قرون أخرى ليوسف بن تاشفين.

وهناك إعادة الأمور إلى نصابها فيما يتعلق بالأمن الداخلي: إذ كيف يتأتى لبلد أضحى نهباً للمغامرين أن يعرف الطمأنينة، خاصة وأن الوضع السياسي جعل البلاد ملغمة بالجنود يصطرعون في كل بقعة؟ ثم كيف يتأتى لهذا البلد أن يعرف العدالة والقضاء النزيه بعد أن غمرته القصور ونشب بينها

تنافس كثيراً ما أحوج أربابها إلى أموال تفوق طاقة رعاياهم، يدفعونها كجزية تارة، ولإرضاء نزعة التباهي تارة أخرى؟ حقاً إن أندلس هذه الفترة كانت متألقة حضارياً، كما كان نشاطها الاقتصادي أساس هذا التألق، ولكن يجب أن نتذكر ما رافق ذلك من تعسف، فضلاً عن أن هذا التألق كان استمراراً لعهد زاهر هو عهد الخلافة الأموية، أكثر منه أثراً لسياسة ملوك الطوائف الذين عرفت الأندلس في عهدهم فنوناً من تزوير النقود والمصادرة.

كما كان لتدخل المرابطين في الأندلس آثاراً أخرى تتمثل في التزاوج الفكري بين العدوتين، لقد أتاح يوسف لبني جلدته المغاربة مزيداً من علم الأندلس. ولعل أوضح مظهر لذلك هو الثقافة الدينية، فانه لما كانت الأسس العقائدية للدولة المرابطية ذات طابع ديني، ولما كان القائمون بأمرها أميل إلى الثقافة الدينية، كان بديهياً أن تبرز هذه الثقافة ويكرم حملتها وتكثر معاهدها هكذا، بفضل الأمن والتشجيع وفد الطلبة إلى الأندلس، فتعلموا فقهها، وأضافوه إلى ما كان موجوداً منه في بلادهم من قبل، فازدادت المدارس وبرز بعضها بعد أن كان مغموراً أو غير موجود." ولم يزل الفقهاء على ذلك، وأمور المسلمين راجعة إليهم وأحكامهم كبيرها وصغيرها موقوفة عليهم". ولا يعني ما سبق أن هذه الحياة العقلية قد أنشأها الاتصال مع بلاد الأندلس، أو خلقها بعد أن لم تكن كذلك، إن بلاد المغرب كانت بدورها تتوفر على رصيد زاخر من العلم والعلماء، فأغمات وتلمسان وفاس وسبتة سبق أن كانت مراكز علم. وبعبارة أخرى كان الحاصل الثقافي الناجم عن اتصال عدوة المغرب بالأندلس استمراراً لاتصال قديم بين المغرب والأندلس من جهة، وبين المغرب وكثير من حواضر العلم في البلاد الإسلامية من جهة أخرى.

ومن جهة أخرى فانه من المبالغة القول بان الثقافة التي لا تلتصق بالدين قد جمدت لعهد يوسف خاصة والمرابطين عامة. بحجة أن الناس أضحوا جامدين في النصوص الفقهية والدينية. ذلك لأن الفقه والحديث يستدعيان ألواناً أخرى من الثقافة كاللغة والنحو. ومن اجل هذا لا يصح الحديث عن هذا العصر باعتباره خصيماً لما سوى الفقه.

لم يكن العصر عصر أزمة لغير الفقه بل كان طابعه العلمي هو الموضوعية ثم أن الضرورة العلمية تفترض ذلك، نظراً لما تتطلبه مرافق الدولة من كتاب وأطباء ومهندسين. وقد احترم المرابطون من وجد بالأندلس من هؤلاء وكان مستعداً لخدمة دولتهم. فهذا ابن زهر الفيلسوف يصبح طبيباً ليوسف. وهذا ابن خمسين، وهذا عبد الله بن العربي المعافري الاشبيلي. لم يثبت قط أن يوسف اضطهد فيلسوفاً أو رجل علم. إن الدولة برهنت على احترامها وتسامحها تجاه من لا يخفي عداءهم لها: فعبد الله بن وهبون، الذي رثى بني المظفر، لم يثبت أن أخذ مكانه بين كتابها، فكتب أولاً لابن أخي يوسف وقائده سير بن أبي بكر، ثم كتب للأمير نفسه.

لا شك في أن المرابطين قد انزلوا الفقهاء منزلة سامية، فقد كان الفقهاء يحتلون محلاً عالياً في نطاق الدولة ويلعبون فيها الدور السياسي، إذ أنهم كانوا مرشديها وموجهيها سياسياً ودينياً، وكانوا يستفتون في كل مسألة صغيرة وكبيرة من جانب أمير المسلمين قبل أخذ أي قرار[1]. وكان ما أفتوا به يطبق بحذافيره. فاستفتى يوسف بن تاشفين الفقهاء قبل أن يتلقب بأمير المسلمين، فأفتوه بإباحة اللقب[2]، كما استفتاهم في ضم الأندلس إلى مملكته. فأفتاه الفقهاء من المغرب والأندلس بخلع ملوك الطوائف[3](أي بضم مناطقهم إلى مراكش). ولم يكتف يوسف بفتاوي فقهاء المغرب الأقصى والأندلس، بل أنه استفتى أيضاً أشهر فقهاء الشرق، مثل الغزالي والطرطوشي. وصارت إليه بانتزاع الأمر من أيديهم-من أيدي ملوك الطوائف-فتاوي من أهل الشرق الإسلامي[4].

---

(1) مجهول، الحلل الموشية، ص 56.

(2) مجهول، الحلل الموشية، ص 56.

(3) ابن خلدون، العبر، 187/6.

(4) م.ن.

وقبل أن يعين ابنه علياً ولياً لعهده، استفتى الفقهاء في الأمر فأفتوه بجوازه[1]، وكان للفقهاء إذا منزلة أساسية ضمن مفهوم الملك عند المرابطين، فكانوا يشكلون الطبقة الأولى في الدولة، إذ أنهم كانوا مقربين لأمير المسلمين ومحترمين من جانبه، فانتهزوا فرصة قوتهم لتوجيه السياسة وتحصيل المال، وكانوا أكثر الرعية مالاً، وأعظمها اعتبارا في عهد يوسف بن تاشفين، وازداد شأنهم زمن ابنه علي[2].

كذلك، من المشكوك فيه أن هذه الدولة كانت محنة للشعر، فإذا كنا لا ننكر أن الشعر في هذه المرحلة عرف تقهقراً ملحوظاً، فمن الواجب أن نأخذ الملاحظات التالية بعين الاعتبار:

1) إن الشعراء الذين لم يرقهم مذهب الدولة انصرفوا عنها. أما الذين لاقت من نفوسهم موقعاً حسناً، فقد أنشدوا فيها شعرهم راضين مرحبين، ففتور الشعر لهذه المرحلة، لم يكن ناتجاً من جلافة أو تعصب من الدولة الجديدة بل نتيجة للميول السياسية.

2) ان هذا الفور أو قلة المحصول لم يرتبط بمجيء المرابطين، لان بعض الأقطار الأندلسية عرفته قبل حكمهم. فالحياة الأدبية في قرطبة حوالي سنة تسعة وأربعمائة لا ريب أنها "تأثرت تأثراً كبيراً بهذه الأسباب التي أصابتها ... وقد كانت الظروف وما زالت تضطر كثيراً من شعرائها النابهين وأدبائها البارزين إلى الهجرة عنها(...) فهو إما شعر هازل عابث خفيف طياش...وإما شعر يعتمد على المبالغة في التحذلق(...) وإما شعر متكلف".

---

(1) مجهول، الحلل الموشية، ص 74.

(2) أداه، محمد ولد، مفهوم الملك في المغرب، ص 118-119.

3) إن التوشيح والزجل قد ازدهرا في هذا العصر، على يد كل من الأعمى التطيلي وابن قزمان. وليس الفن الأخير إلا نفساً شعبياً، يناغم ذلك الاتجاه الشعبي الذي يطبع حكم يوسف.

مسألة هامة ينبغي الوقوف عندها، وهي مسألة الشعر وموقفه من أحداث هذه المرحلة، فتلاحظ أولاً خطأ الفكرة التي تقول بأن هذا الشعر مرآة تعكس موقف مجموع أهل الأندلس، ذلك أن وجهة النظر التي عبر عنها الشعراء في قصائدهم الباكية، ما كانت تمثل إلا جانباً ضئيلاً من رأي المثقفين خاصة، والرأي الشعبي عامة، فمن اجل أن تأخذ نظرة صحيحة عن تفكرات الناس يجب أن تتجه إلى الفقهاء أيضاً.

إن تصوير الشعب الأندلسي لذلك العهد ظريفاً، غزلاً برمته، تجوز ومجازفة. فقد كان هناك الفقهاء، بما لهم من نفوذ قوي وسلطان عريض على الناس، فأتى حين من الدهر اتجه الشعب صوبهم وأصبح يرى في اهتماماتهم ما لا يعارض مطامح. نعم، لم يكن بين هؤلاء الفقهاء من يشبه ابن عمار في مغامراته السياسية أو مطارحاته على الصعيد"الدولي" لبلاد الأندلس, ولكن ما جدوى ذلك على الأندلسيين بعد أن سيطر الفونسو السادس على الموقف؟

كان الأندلسيون يتلقون عقود الزواج والطلاق وقواعد الجهاد والحرب من الفقهاء. فكان بديهياً أن تتجه إليهم الأبصار عند الضائقة وأن يمثلوا قسطاً متزايداً من طموح الناس وأن يكونوا أول من يبادر إلى يوسف في أمر وطنهم. ولقد وضح هذا الاتجاه في مؤتمر قرطبة، الذي عقده الفقهاء اثر سقوط طليطلة، حيث تذاكروا شؤون أمتهم وما حاق بها، وحيث انتدبوا أبا الوليد الباجي للاتصال بملوك الأندلس وتأليف قلوبهم على توحيد الصف ونصرة الإسلام.

الأعوام الأخيرة من حكم يوسف بن تاشفين

لقد كان هناك فريق معارض ضد تدخل ابن تاشفين، وهو فريق أقل عددا وأخف صوتاً، فريقاً يمثله الشعراء وأصحاب المطامع من الإسبان والقوط، لان مديح المادحين أو تملقهم سيضحي في جملته غير ذي وزن، ولأن هؤلاء الطامعين ظلوا مترددين بين تقبل الإسلام وبين التشبث بقوطيتهم، مما حدا بهم أكثر من مرة إلى التآمر مع إخوانهم نصارى الشمال، ومع ذلك فان أهل الشعر لم يقفوا ضد يوسف جميعاً، فبينهم من استقبل النظام الجديد بالترحاب، أو محض نفسه للتفكير في الأحداث وتقلب الحظوظ، فلم يقل الشعر إلا ليستجلي عبرة أو يستخلص بعض معاني الحياة، ويضاف إلى هؤلاء وأولئك طائفة انحازت إلى ملوك الطوائف بدءاً، ثم سايرت النظام الجديد بعد أن استقر وتمكن، طائفة تقلبت مع الأحداث وأضحت موزعة بين شاعر وكاتب في خدمة المرابطين، خاصة وأن الجو الذي تلا نزع ملوك الطوائف كان جو تسامح وتغاض.وقد عبر صاحب المعجب عن هذا بقوله:" فانقطع إلى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله، حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم ومن ثم فان القيمة التاريخية لشعر المعتمد بن عباد وغيره من الشعراء تنحصر في التعبير عن وجهة نظر معينة، وجهة نظر فئة قلة ممن كانوا يناصرون ملوك الطوائف.

وهذا عبد المجيد بن عبدون يقول وقد ألهبت مشاعره تلك الأحداث التي حلت ببني المظفر أصحاب بطليوس[1]. وهي قصيدة ختمها بالتفجع على بني المظفر بعد أن أطال في تعداد من حلت بهم المحن في الإسلام[2].

---

(1) حموش، ابن تاشفين، ص 78.

(2) الدهر يفجع بعد العين بالأثر ... فما البكاء على الأطلال والصور؟

أنهاك أنهاك لا آلوك موعظة ... عن نومة بين ناب الليث والظفر

فالدهر حرب وان أبدى مسالمة ... والبيض والسود مثل البيض والسمر

فما الليالي؟ أقال الله عثرتنا ... من الليالي وخانتها يد الغير

في كل حين لها في كل جارحة ... منا جراح وان زاغت عن النظر

تسر بالشيء، لكن كي تغر به ... كالأيم ثار إلى الجاني من الزهر

أما صالح بن شريف الرندي فقد رثى رندة بقوله:

لكـل شـيء إذا مـا تم نقصـان   فـلا يغـر بطيـب العـيش إنسـان

ومن ذلك نرى أن نبرة هذا الشعر كانت هي الأسى، وأن نغمته كانت الحزن والحسرة، على أننا لا نعدم أن نجد في أوضاع الأندلس يومذاك ما يدعو إلى التشاؤم واليأس والهزيمة مما نجده في شعر كهذا: " فما المقام بها إلا من الغلط"

هذه هي أبرز التنظيمات التي قام بها أمير المسلمين يوسف بن تاشفين والتي ساهمت في مد عمر الدولة الإسلامية في الأندلس، وما أن انتهى يوسف من هذه التنظيمات حتى بدأت علامات المرض عليه، ذلك المرض الذي أدى في النهاية إلى موت أمير المسلمين يوسف، وهذا ما سنحاول توضيحه في الصفحات الآتية...

ج) ولاية عهده

كان المرابطون أول من أسس ملكية وراثية من أبناء المغرب أنفسهم، وكانت دولتهم أول دولة وحدت المغربين الأقصى والأوسط، وقامت بدور خطير في نشر الإسلام في المغرب والسنغال. وقد جمعوا بين الجهاد والثقافة الإسلامية معاً، وقضوا على بدع البرغواطيين، وفلوا شوكة الزناتيين المتنازعين المتنافرين، وأنقذوا بلاد الأندلس من الضياع.

وقد أدرك يوسف بن تاشفين كل هذه الأمور حين فكر في أخذ البيعة لابنه علي، إذ كان يخشى أن يعود الأمر فوضى من بعده، وأن تنفصم عرى هذه الوحدة، وتنتهي هذه الرسالة التي عمل جاهداً على تبليغها زهاء نصف قرن، لذلك رأى يوسف بن تاشفين أن يستخلف عنه في مباشرة هذه التبعات الخطيرة، ولو أنه ترك الأمر شورى للمرابطين ليختاروا من بعده من أحبوا لأصبح من العسير أن يجتمع الناس على شخص معين، لأنه لم يكن ثمة نظام مستقر

للانتخاب في وقت أصبحت فيه بلاد الأندلس مهددة بغارات نصارى الشمال[1]، لذلك فكر يوسف في البيعة لابنه، إذ انه رأى أن هذا الأمر يدخل في نطاق سلطته، كما تبين ذلك في عهده الذي جاء فيه:"(...) فلأنه - يعني يوسف بن تاشفين- بما لزمه من هذه الوظيفة وخصه الله بها من النظر في هذه الأمور الدينية الشريفة فقد أعز الله رماحه، وأحد سلاحه، فوجد ابنه الأمير الأجل أبا الحسن أكثرها ارتياحاً إلى المعالي، واهتزازاً، وأكرمها سجية، وأنفسها اعتزازاً"[2].

عند ذلك توجه يوسف بن تاشفين إلى الأندلس، وهناك أفضى إلى الجماعة بعزمه على تعيين ولده الأصغر علياً لولاية الحكم من بعده، وأمرهم أن يؤدوا إليه يمين الولاء والطاعة، باعتباره أمير المستقبل، وعهد يوسف إلى كاتبه بوضع وثيقة تتضمن شرح النقاط الأساسية المتعلقة بولي العهد، وما يستند إليه من أمور الحكم، وأهم ما جاء فيها:" إن أمير المسلمين وناصر الدين أبا يعقوب يوسف بن تاشفين بعد أن أمعن النظر والتدبر في كل شيء، ألفى ابنه الأصغر أبا الحسن علياً أكثر اقتداراً على تلقي أعباء الحكم، ومن ثم فقد آثره واصطفاه، وعينه ورفعه إلى مقام الملك، وأولاه العرش، وذلك بعد أن تشاور من قبل مع أعلم الناس وأعقلهم وأقدرهم في كافة أنحاء المملكة، وبعد أن اتفقوا جميعاً مع زعماء المملكة وقادتها على الاعتراف بملء حريتهم دون إكراه ما، بأنهم راضون عن هذا الأمير النابه، وأنهم يقبلونه ويبايعونه مختارين، ما دام والده قد اعتزم ذلك وأقره، وهم يقبلون علياً ويقرونه على هذا الشرط دون سواه، وهو أن يكون والده أمير المسلمين قد اختاره حقاً ورآه أهلاً لتبوء الملك[3].

وبعد أن اقسم الأمير أمام الجماعة لوالده بالتزام الشروط التي بويع بمقتضاها، وضع الكاتب وثيقة أخرى جاء فيها أن الجماعة كلها أقرت هذا، وشهد على ذلك الحضور بالأصالة عن أنفسهم، وبالنيابة عن الغائبين، وبعد أن

---

(1) حسن، إبراهيم، تاريخ الإسلام، 4/125-126.

(2) مجهول، الحلل الموشية، ص 64.

(3) مجهول، الحلل الموشية، ص 56-57.

أقر الأمير الشروط الموضوعة لولاية العهد وقبلها، أمضى له الكاتب إشهاداً بذلك. وكان إعلان هذه البيعة في شهر ذي الحجة سنة 1103/496[1] وقد تمت هذه البيعة بمدينة قرطبة، حيث بايعه جميع أمراء لمتونة وفقهاؤها وأشياخها. وكان علي بسبتة التي ولد فيها[2]، علماً أن علي بن يوسف لم يكن أكبر إخوانه.

وكان يوسف بن تاشفين يخشى معارضة المصامدة حين أوصى ابنه علياً قبل وفاته بوصايا ثلاث تتلخص فيما يأتي:

1) ألا ينال سكان الأطلس ومن وراءه من المصامدة بسوء.
2) أ ن يهادن بني هود أمراء سرقسطة من ملوك الطوائف التي أسسها سليمان بن محمد بن هود بن الجذامي أحد قادة الثغر الأعلى.
3) أن يحسن إلى أهل قرطبة ويتجاوز عن مسيئهم، وقد اشتهروا بثوراتهم على الدول التي تعاقبت على حكم الأندلس، لان عدداً كبيراً من أهلها من المولدين والفقهاء الذين تزعموا هذه الثورات[3].

هذا وسأرفق نصين كاملين للكتاب الذي أصدره يوسف بن تاشفين يعلن فيه توليته لعهده من بعده لابنه علياً، والعهد الذي أصدره ليجعل ولده علياً ولياً للعهد من بعده، وذلك في ملاحق هذه الرسالة.

---

(1) أشباح، يوسف، تاريخ الأندلس، ص 113.
(2) ابن أبي زرع، روض القرطاس، 77/2.
(3) حسن، إبراهيم، تاريخ الإسلام، 126/4

د) وفاة يوسف بن تاشفين ومكان دفنه:

أجمعت المصادر على أن وفاة يوسف بن تاشفين كانت في شهر محرم سنة 1106/500[1] باستثناء مصدر واحد انفرد بالقول بأن وفاته كانت في شهر ربيع الآخر سنة 500 هـ[2].

وكان يوسف قد بدا عليه المرض في سنة 498 هـ، وفي سنة 499 اشتد عليه المرض الذي قبض فيه، حيث استأثر الله بيوسف بن تاشفين رحمه الله تعالى، وذلك يوم الاثنين مستهل شهر محرم سنة 500 هـ[3].

وقد استطالت حياة يوسف بن تاشفين إلى مائة عام[4]، أو تسعين عاماً على قول آخر[5]، حكم منها زهاء خمسين عاماً، وقام بأعظم فتوحاته وأعماله وأنشأ إمبراطورية المرابطين الشامخة، بعد أن جاوز الستين، وحارب في موقعة الزلاقة وهو في نحو الثمانين[6]، وكان أكبر ملوك الدنيا في عصره، ودولته بضع وثلاثون سنة[7].

---

(1) الذهبي، العبر، 365/2.، ابن أبي دينار، المؤنس، ص 105.، حركات، إبراهيم، المغرب، 165/1.، عنان، تراجم إسلامية، ص 234.

(2) ابن عذارى، البيان المغرب، 45/4.

(3) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 125/7.

(4) ابن أبي دينار، م.س.، ص 105.، أشباخ، تاريخ الأندلس، ص 214.

(5) ابن خلكان، م.س. ، 125/7.، الذهبي، العبر، 365/2.

(6) عنان، م.س.، ص 234.

(7) الذهبي، م.س.، 365/2.

وقد أجمعت المصادر على أن يوسف بن تاشفين قد دفن في قصره بحاضرة مراكش[1]، وقبره مزارة مقصودة[2]، وحضر موته أبناؤه الأمير أبو الطاهر تميم، وأبو الحسن علي، مع من حضر من الصناهجة، وأسرته اللمتونية. وقد قبض وهو على أمانة في العزم والجد في نصرة الإسلام، وإظهار الكلمة، وعضد الإسلام، رحمة الله عليه. وقال محمد بن الخلف في البيان الواضح:" ومما يسلي النفوس كل التسلية، ويطفيء نار الرزيئة، ما كان نظره الجميل، ورأيه الأصيل من توليج الأمر في حياته لابنه الأمير أبي الحسن ذي العقل الرصين والرأي الحسن، قدس الله روحهما وبرد ضريحيهما"[3].

ولما توفي رثاه جماعة من بينهم أبو بكر بن سوار[4]، بقصيدة شعرية وردت في الذخيرة[5].

---

(1) ابن عذارى، البيان المغرب، 47/4.، حركات، المغرب، 165/1.، مجهول، الحلل الموشية، ص 60.

(2) حركات، إبراهيم، م.س.، 165/1.

(3) مجهول، الحلل الموشية، ص 60.

(4) محمد بن سوار الأشبوني أبو بكر، أسره الروم بمدينة قورية مدة من الزمن، ثم فداه أحد بني عشيرة أعيان سلا، فأكثر من مدائحه فيهم.(راجع الذخيرة 311/2).

(5) الشنتيري، الذخيرة، 322/2.

الخاتمة

يوسف بن تاشفين هو الوجه المشخص للدولة المرابطية، وهو زعيمها بدون منازع، جاء في وقت فقد فيه المغرب الشعور بمصيره، وانزوى في وضعية الانطواء والخمول، وقد كانت البلاد مقسمة إلى إمارات كثيرة متنازعة مع بعضها البعض، ولم تكن تلك الإمارات في سبيل الحفاظ على وجودها، تستنكف عن طلب حماية الأجانب، فتارة ترهن نفسها لدى الفاطميين بافريقيا، وطوراً لدى الأمويين بإسبانيا، وقدر ليوسف بن تاشفين أن يحول الخليط الذي صادف أمامه إلى بلد موحد، قوي مهيب، سواء في دار السلام، أو في دار الحرب.

واقترن مجيئه بتفتح آفاق كبيرة أمام المغرب، إذ ازدادت أواصره بالصحراء وثوقاً، وذكره انتشاراً في القارة السوداء، حيث توغل الإسلام منذ ذلك العهد بفضل جهود المرابطين، كما لمس المغرب في نفسه طاقة جديدة، بفضل قيادة ابن تاشفين الحازمة والمتبصرة، تمكنه من التفكير بجد وثقة في إنجاز مشروع الوحدة المغربية الكبرى، ذلك المشروع المرتكز على التقارب بين شعوب المنطقة، وأخيرا كانت أسبانيا المسلمة تعاني من انقساماتها وتناقضاتها الداخلية، وباتت المنجزات العظيمة التي قام بها موسى بن نصير وطارق بن زياد، وعبد الرحمن الناصر، والمنصور بن أبي عامر مهددة أفظع تهديد من الهجوم الجديد المبيت الذي انطلق فيه ملك قشتالة الفونس السادس، في نطاق حرب الاسترداد. والى يوسف بن تاشفين يرجع الفضل في إنهاء الفتنة التي كانت قائمة بين ملوك الطوائف، وفي إعطاء مسلمي أسبانيا نفساً جديداً.

إنها إذن، صفحة جديدة من التاريخ تبدأ مع يوسف بن تاشفين في الغرب الإسلامي، صفحة خافقة بنسيم الحياة، مليئة بالوعود.

لكن العجيب في أمر ابن تاشفين هو انه ونحن نأخذ هذه الصورة العظيمة عن شخصيته، يفاجئنا رجل لا يمكن لأي رجل آخر في مقامه أن يباريه في تواضعه وبساطته، فلا نلمس في طبعه ومنظره أي أثر لكبرياء الغزاة والفاتحين أو لخيلاء الرئيس الظافر الذي يحكم إمبراطورية كبيرة. انه على العكس من ذلك، يفضل أن يقدم نفسه كمؤمن حشوه الخشوع والتواضع. ولم يكن في البدء راغباً في تولي الحكم، وحينما توصل إليه لم يكن يفكر في المحافظة عليه على الدوام. من دون شك، إن تخلقه بالتعفف راجع إلى تربيته الدينية، وتشبعه بمبادىء المروءة والشرف، وطبيعته كجندي أصيل.

وقد كان رحمه الله بطلاً نجداً شجاعاً حازماً، مهاباً، ضابطاً لملكه، متفقد الموالي من رعيته، حافظاً لبلاده وثغوره، مواظباً على الجهاد، مؤيداً منصوراً، جواداً كريماً سخياً، زاهداً في الدنيا، لباسه الصوف، لم يلبس قط غيره، وأكله الشعير ولحوم الإبل وألبانها، مقتصراً على ذلك إلى أن توفي رحمه الله تعالى على ما منحه الله من سعة الملك في الدنيا وخوله منها. فانه خطب له في الأندلس والمغرب على ألف وتسعمائة منبر. وكان ملكه من مدينة أفراغة أول بلاد الإفرنج قاصية شرق بلاد الأندلس إلى آخر عمل شنتريت والاشبونة على البحر المحيط من بلاد غرب الأندلس، ذلك مسيرة ثلاثة وثلاثين يوماً طولاً، وفي العرض ما يقرب من ذلك. وملك بالمغرب من بلاد العدوة من جزائر بني فرغنة إلى طنجة إلى آخر السوس الأقصى، إلى جبل الذهب من بلاد السودان. ولم يوجد في بلد من بلاده، ولا في عمل من أعماله على طول أيامه، رسم مكوس ولا معونة ولا خراج في حاضرة ولا بادية، إلا ما أمر الله تعالى به وأوجبه حكم الكتاب والسنة من الزكاة والأعشار وجزية أهل الذمة وأخماس غنائم المشركين.

وقد اهتم يوسف بن تاشفين في سياسته الداخلية ببناء وحدة المغرب الأقصى على الانسجام السياسي والديني. فسار على نهج تطويع كل الأقاليم، صاعداً من تافيلالت إلى الحوز، فإلى الريف مروراً بفاس، ثم إلى وجدة، بحيث أصبحت سلطة البلاد متمكنة من كل جهة، وأمكنها أن تدعم منذ ذلك الوقت

وحدة البلاد. ولم تكن تلك السياسة ترتكز في عملها على أساليب الضغط والإكراه، بقدر ما كانت تسعى لإيجاد التقارب والتمازج بين السكان، بفضل تطبيق صادق للقانون، وتجنب كل التصرفات التعسفية.

ومن ثم جاءت سياسة يوسف المالية التي كانت-حسب المؤرخين-نموذجاً لتطبيق التعاليم القرآنية في هذا الصدد. ومن المعلوم أن الضرائب المعتبرة في الشرع الإسلامي تمتاز بخفتها، بالقياس إلى ما جرى به العمل في شرائع أخرى. ولما قرر يوسف الوقوف عند هذه التعاليم بدون تجاوزها، فانه اكتسب بذلك مزيداً من الذكر لدى الشعب، واستطاع أن يؤلف بين المغاربة من حوله.

وبقيت من جهة أخرى، أماكن ما زالت لم تأخذ كلياً بمذهب السنة فكانت تافيلالت ما تزال تخامرها ذكرى الخوارج الذين حكموها في عهد بني مدرار، كما كانت هناك آثار للشيعة بسوس، وقد وضع المرابطون حداً لتلك الأقليات المنشقة عن الجماعة اثر وصولهم لتلك المناطق.

بقيت مشكلة البرغواطية التي كانت أكثر خطورة، لأن المتمذهبين بها كانوا يضعون أنفسهم خارج الجماعة الإسلامية ويدعون لدين فيه تشويه كلي لصورة الإسلام الحقيقية. ثم أنهم كانوا يسيطرون على إقليم مهم ومركزي في المغرب الأقصى، إلا وهو تامسانا، ولم يكن هناك بالنسبة إلى المرابطين مجال للتساهل مع هذه النحلة، بل كان لا بد لهم من أن يحاربوا البرغواطيين بوصفهم كفاراً. وهنا نذكر كيف قتل عبد الله بن ياسين في كريفلة بناحية الرباط، وهو يقاتلهم، فكان من الطبيعي أن يتابع يوسف بن تاشفين سياسته بكامل الحزم، بحيث أن برغواطة(البرغواطيين) اضطروا إلى الاختفاء والتقية لما أصابهم من التنكيل والاضطهاد، لقد استطاعوا أن يعلنوا ظهورهم مرة أخرى في عهد الموحدين، لكن كان مآلهم آنذاك الاستئصال النهائي. ولكن يوسف كان قد حقق الجزء المهم قبل ذلك، إذ استطاع أن يوجه المغرب نحو الوحدة الدينية.

وهذا الشعور بالوحدة، وهذا الحرص على تحقيقها، هما اللذان ألهما يوسف لنقلها إلى إطار أوسع من المغرب الكبير. ولعلنا لا نخطيء إذا قلنا أنه كان رائداً في هذا الميدان. وهكذا، فهو لم يتوقف عند حدود المغرب الأقصى ولم يعتبرها كخط نهائي لا يمكن تجاوزه، بل تخطاها بجيشه مندفعاً في أراضي المغرب الأوسط، متقدماً نحو مدينة الجزائر التي تجاوزها، ولم يقف به السير إلا عند سفوح جبال القبائل الكبرى، وهناك من قاده التسرع إلى الاتهام فقال: أن مثل هذه السياسة ذات نزعة توسعية إمبريالية، ولكن الذين يدلون بمثل هذا القول نسوا أن يوسف بن تاشفين لم يكن يضع أي فرق من أي نوع بين سكان المغرب الأوسط وسكان المغرب الأقصى. صحيح أن تصورنا اليوم لوحدة المغرب الكبير قد يختلف كثيراً عن تصور يوسف بن تاشفين لأسباب أهمها: هو أن التطور الذي حصل على فكرة القومية كان كبيراً في العالم الحديث، ولكن هناك واقع لا جدال فيه: ان ما نفكر فيه اليوم ونتصوره بطريقة يدخل فيها الحساب والتخطيط بحصة كبيرة كان يوسف يشعر بها فطرياً، ويطبقه بدون تلكؤ.

ومن دون شك أن يوسف صادف اعتراضات ومقاومات وهو يذهب قدماً في محاولته. إلا أنه كان يدرك جيداً أن الوحدة الحقيقية، على مستوى المغرب الكبير، لم يكن من الممكن تحقيقها دون مساهمة الجيش. فهناك (الفيوداليات) -الإقطاعيات-المحلية والصراعات القبلية والعصبيات الإقليمية التي لم تكن تترك فكرة الوحدة النيرة تسير في طريقها السوي. فابن تاشفين، وهو يوطد سلطته في المغرب الأوسط، لم يكن له من هدف إلا جمع شمل المغاربة تحت ظل دولة واحدة تحكمهم جميعاً بقانون واحد في نطاق المساواة الصارمة. ومهما كانت النتائج، فإن محاولته في هذا الصدد حدث له أهميته الكبرى في التاريخ.

هذه الدراسة، وهذه الرسالة، مقصودة لذاتها، ودراسة تمهيدية لما وراءها، دراسة لذاتها من حيث حاجتنا لكتاب يؤرخ لأمير المرابطين وهو يوسف بن تاشفين، في تتبع وحيدة ووضوح، ودراسة تمهيدية لما وراءها، من حيث أن الدراسات الأدبية واللغوية تزداد خصوبة وغنى إذا هي اتكأت إلى الدراسة التاريخية واستمدت منها.

وهذا ما قصدت به، أن أضع ثمرة جهدي بين يدي الدارسين في المستقبل. والله سبحانه وتعالى من وراء القصد.

الملاحق

الملحق الأول: عهد الخليفة العباسي المستظهر بالله إلى يوسف بن تاشفين بحكم المغرب والأندلس

عهد الخليفة العباسي القائم بأمر الله إلى يوسف بن تاشفين بحكم المغرب. والعهد من إنشاء أمير الدين أبي سعيد العلاء بن وهب بن موصلايا.

هذا ما عهد عبد الله ووليه، عبد الله القائم بأمر أمير المؤمنين إلى فلان حين انتهى إليه ما هو عليه من ادراع جلابيب الرشاد في الإصدار والإيراد، واتباع سنن من أبدى وأعاد، فيما يجمع خير العاجلة والمعاد، والتخصيص من حميد الأنحاء والمذاهب، بما يستمد به أصناف الآلاء والمواهب، والتحلي من السداد الكامل بما فيه بامتطاء النارب من الجمال والكاهل، واتضح بما هو متشبث به من صحة الدين واليقين، المواظبة من اكتساب رضا الله تعالى على ما هو أقوى الظهير والمعين، في ضمن ما طوى عليه ضلوعه، وأدام لهجه به وولوعه: من موالاة لأمير المؤمنين يدين الله تعالى بها، ويرجو النجاة من كل مخوف باستحكام سعيها، ومشايعة لدولته ساوى فيها بين ما اظهر واسر، وأمل في اجتناء ثمرها كل ما أبهج وسر، فولاه الصلاة بأعمال المغرب والمعاون، والأحداث والخراج والضياع والأعشار والجهبذة والصدقات والجواري وسائر وجوه الجبايات والعرض والعطاء والنفقة في الأولياء والمظالم وأسواق الرقيق، والعيار في دور الضرب والطرز والحسبة ببلاد كذا وكذا، سكوناً إلى استقلاله بأعباء ما استكفاه إياه، واستقباله النعمة عليه في ذلك بكل ما ينشر ذكره ويطيب رياه، وثقة بكونه للصنيعة أهلاً، وبأفياء الطاعة الإمامية مستظلاً، وتوفره على ما يزيده بحضرة أمير المؤمنين حظوة ترد باع الخطوب عنه قصيراً، وتمد مقاصده من التوفيق بما يضحي له في كل حالة نصيراً، وعلماً بما في اصطناعه من مصلحة تستنير أهلتها، وتستثير من شبه الغي شواهدها وأدلتها، والله تعالى يصل مرامي أمير المؤمنين بالإصابة ويعينه على ما يقر كل امرىء في حقه ويحله نصابه، ويحسن له الخطوة في كل

ما يغدو له ممضياً، ولمطايا الاجتهاد في فعله منضياً، وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله، عليه يتوكل واليه ينيب، وأمره باعتماد تقوى الله تعالى في الاعلان والاسرار، واعتقاد الواجب من الإذعان بفضلها والإقرار، وأن يأوي منها إلى امنع المعاقل واحضنها، ويلوي عنان الهدى فيها إلى أجمل المقاصد وأحسنها، ويجعلها عمدته يوم تعدم الأنصار وتشخص الأبصار، ليجتني من ثمرها ما يقيه مصارع الخجل، ويجتلي من مطامعها ما يؤمنه من طوارق الوجل، ويرد بها من رضا الله تعالى أصفى المشارب، ويجد بها من ضوال المنى أنفس المواهب، فإنها أبقى الزاد وأدعى في كل أمر إلى وري الزناد، وقد خص الله بها المؤمنين من عباده، وحض منها على ما هو أفضل عدة المرء وعتاده، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[1].

وأمره أن يأتم بكتاب الله تعالى مستضيئاً بمصباحه، مستضيماً لسلطان الغي بالوقوف عند محظوره ومباحه، ويقصد الاستبصار بمواعظه وحكمه، والاستدرار لصوب التوفيق في الرجوع إلى متقنه ومحكمه، ويجعله أميراً على هواه مطاعاً، وسميراً لا يرى أن يكشف له قناعاً، ودليلاً إلى النجاة من كل ما يخاف آثامه، وسبيلاً إلى الفوز في اليوم الذي يسفر عن فصل الخطاب لثامه، ويتحقق موقع الخط في إدامة درسه وصلة يومه في التأمل بأمسه، فانه يبدي طريق الرشد لكل مبدىء في العمل به معيد ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[2].

وأمره أن يحافظ على الصلوات قائماً بشروطها وحدودها، وشائماً بروق التوفيق في أداء فروضها وحقوقها، ومسارعاً إليها في أوقاتها بنية عائفة مناهل الكدر والرنق، عارفة بما في إخلاصها من نصرة الهدى وطاعة الحق، وموفراً عليها من ذهنه ما الخط كامن في طيه وضمنه، وموفياً لها من الركوع والسجود ما

(1) سورة آل عمران.الآية 102.

(2) سورة فصلت، الآية 42.

الرشاد فيه صادق الدلائل والشهود، متجنباً أن يلهيه عنها من هواجس الأفكار ووساوس القلب منها والابكار، ما يقف فيه موقف المقصر المغالط، وينزل فيه منزلة الجاحد للنعم الغامط، وقد أمر الله تعالى بها وفرضها على المؤمنين وأوجبها، وحث على إقامتها على ما يفضي إلى إصلاح المقاصد واستقامتها، فقال عز من قائل:﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ (1).

وأمره بالسعي في أيام الجمع إلى المساجد الجامعة، وفي الأعياد إلى المصليات الضاحية، بعد أن يتقدم في عمارتها وإعداد الكسوة لها، بما يؤدي إلى كمال جلالها، ويحظى من حسن الذكر بأعذب الموارد وأحلاها ويوعز بالاستكثار من المكبرين فيها والقوام، وترتيب المصابيح العائدة على شمل جمالها بالاتساق والانتظام، فإنها بيوت الله تعالى التي تتلى فيها آياته، وتعلى فيها أعلام الشرع وراياته، وأن يقيم الدعوة على منابرها لأمير المؤمنين، ولولي عهده العدة للدين القاسم عبد الله بن محمد بن أمير المؤمنين، أدام الله تعالى به الامتاع وأحسن عن ساحته الدفاع، ثم لنفسه جارياً في ذلك على ما ألف من مثله، وسالكاً منه أقوم مسالك الاهتداء وسبله، وقد بين الله تعالى ما في عمارتها من دلائل الإيمان والفوز بما يعطي من سخط الله تعالى أوثق الأمان في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (2).

وقال في الحث على السعي إلى الجوامع التي يذكر فيها اسمه ويظهر عليها منار الإسلام ورسمه:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾ (3).

---

(1) سورة النساء، الآية 103.

(2) سورة التوبة، الآية 18.

(3) سورة الجمعة، الآية 9.

وأمره أن يعتمد في إخراج الزكاة ما أمر الله تعالى به، وهدى منه إلى ارشد فعل وأصوبه، ويقوم بذلك القيام الذي يحظيه بجميل الذكر وجزيل الأجر، ويشهد له بزكاء وطيب النجر، ويقصد في أداء الواجب منه ما يصل أمسه في التوفيق بيومه ويطلق الألسنة بحمده ويكفها عن لومه، متجنباً من إخلال بما نص عليه في هذا الباب، أو إهمال فيه لما يليق بذوي الديانة وأولي الألباب، متوخياً في المسارعة إليه بما يتطهر به من الأدناس، ويتوفر به حسن الأحدوثة عنه بين الناس، فقد جعل الله تعالى الزكاة من الفروض التي لا سبيل إلى المحيد عنها، ولا دليل في الفوز أوفى منها، وأمر رسوله (صلى الله عليه وسلم) بأخذها من أمته، وأبان عن كونها مما يجتنى كل مرغوب فيه من ثمرته، ووصل الأمر له في ذلك بما يوجب فضل المسابقة إلى قبوله، لما فيه من الحظ الكامل في استنارة غروه وحجوله، في قوله سبحانه:﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1]

وأمره أن يهذب من الدنس خلاله، ويصل بأقواله في الخير أفعاله، ويمتنع من تلبية داعي الهوى المضل، ويتبع سنن المستضيء بالهدى المستظل ويقبض يده عن كل مجرم توثق أشراكه وتوبق غوائله، وتؤذن بسوء المنقلب شواهده ودلائله، ويجعل له من نهاره رقيباً على نفسه يصونها عن مراتع الغي ومطارحه، وأميناً يصد عن مسارب الإثم ومسارحه، فإنها لا تزال أمارة بالسوء إن لم تقد إلى جدد الرشد، وتقم لها سوق من الوعظ يبلغ فيها أقصى الغاية والأمد، فالسيد من أضحى لها عند سورة الغضب وازعاً، وأنحى عليها بلوم يغدو معه عن كل ما يسخط الله تعالى فازعاً، وان يتنزه عن النهي عما هو له مرتكب، والأمر بما هو له مجتنب، إذ كان ذلك بالهجنة حالياً، وبين المرء وبين مقاصد هديه حائلاً قال تعالى:﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[2]

(1) سورة التوبة، الآية 103.

(2) سورة البقرة، الآية 44.

وأمره أن يضفي على من قبله من أولياء أمير المؤمنين وجنوده أصناف جلابيب الإحسان وبروده، ويخصهم من جزيل حبائه بما يصلون منه إلى أبعد المدى، ويملكون به نواصي الآمال ويدركون قواصي المنى، ويميز من أدى واجبه من الطاعة وفرضه وأبدى صفحته في الغناء بين يديه بمزيد من الاشتمال يرهف بصيرة كل منهم في التوفر على ما وافقه، ووصل بأنفه في التقرب إليه سابقه، ويدعو المقصر إلى الاستبصار في اعتماد ما يلحق فيه رتبة من فازت في الحظوة قداحه وفاتت الوصف غرره في الزلفة وأوصاحه، ليمرح به في بلبان النعمة، كما انتهج جدده في إحسان الخدمة، وان يرجع إلى آراء ذوي الحنكة منهم مستضيئاً بها مسترشداً، وطالباً ضوال الرأي الثاقب ومنشداً، وقد بين الله فضل المشورة التي جلبها للألباب لقاحاً، وفي حنادس الشكوك مصباحاً، حيث أمر رسوله (صلى الله عليه وسلم) بها، وبعثه منها على أسد الأفعال وأصوبها، فقال تعالى:﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ (1).

وأمره أن يعدل في الرعايا قبله، ويحلهم من الأمن هضابه وقاله، ويمنحهم من الاشتمال ما يحمي به أمورهم من الاختلال، ويحوي به من طيب الذكر بحسب ما اكتسب من رضي الأنحاء والخلال، ويضفي على المسلم منهم والمعاهد من ظل رعايته ما يساوي فيه بين القوي والضعيف، ويلحق التليد منهم بالطريف، ليكون الكل وادعين في كنف الصون، راجعين الله تعالى في إمدادهم بالتوفيق، وحسن الطاعة والعون، وأن ينظر في مظالمهم نظراً ينصر الحق فيه، وينشر علم العدل في مطاويه، وينصف معه بعضهم من بعض، وينصب به لهم من اهتمامه أسمى قسم وحظ، ملينـاً لهم في ذلك جانبه مبيناً لهم ما يظل به كاسب الأجر وجالبه، ويزيل عنهم ما شرعه ظلمة الغلمان بتلك الأعمال، ويديل من تلك الحال باستئناف ما يوطئهم كواهل الآمال، جامعاً لهم بين العدل والإحسان، جاعلاً أمر الله تعالى في ذلك ملتقى بالطاعة الواضحة الدليل والبرهان. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي القُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ وَالبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (2).

---

(1) سورة آل عمران، الآية 159.

(2) سورة النحل، الآية 90.

وأمره أن يكون بالمعروف آمراً، وعن المنكر زاجراً ولله تعالى في إحياء الحق وإماتة الباطل متاجراً، وأن يشد من الساعين في ذلك والداعين إليه، ويعد القيام بهذه الحال من أفضل ما يتقرب به إلى الله تعالى يوم العرض عليه، ويتقدم بتعطيل ما في أعماله من المواخير ودحضها وازالة آثارها ومحوها، فإنها مواطن بالمخازي آهلة، ومن مشارب المعاصي ناهلة، وقد أسست على غير التقوى مبانيها، وأخليت من كل ما يرضي الله تعالى مغانيها وقد أبان الله تعالى عن فضل الطائفة التي ظلت بالمعروف آمرة وعن المنكر ناهية وضنت بما ترى فيه عن مقاصد الخير ذاهلة لاهية فقال:﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (1).

وأمره أن يرتب لحماية الطرقات من يجمع إلى الصرامة والشهامة، سلوك محاج الرشاد والاستقامة، ويجعل التعفف عن ذميم المراتع شاهداً بتوفيق الله إياه، وعائداً عليه بما تحمد مغبته وعقباه، ويأمر بحفظ السابلة، واختصاصهم بالحراسة السابغة الشاملة، وحماية القوافل واردة صادرة، واعتمادها بما تغدو به إلى السلامة مفضية سائرة لتحرس الدماء مما يبيحها ويريقها، والأموال مما يقصد فيه سبيل الإضاعة وطريقها، وان يخوفهم نتائج التقصير ويعرفهم مناهج التبصير، وان عليهم رقباء يلاحظون أمورهم ويوضحونها، ليكون ذلك داعياً إلى التحوط والتحرز، واعتماد الميل إلى جانب الصحة والتحيز، ويوجب لهم بعدما يكفي أمثالهم مثله، ويكف أيديهم عن الامتداد إلى ما تذم سبله، فان اخل احدهم بما حد له، أو مزج بالسوء عمله، جزاء بحسب ذلك وموجبه. قال الله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ (2).

---

(1) سورة آل عمران، الآية 110.

(2) سورة النساء، الآية 123.

وأمره أن يتقدم إلى نوابه في الأعمال بوضع الرصد على من يجتاز بها من العبيد الأباق، والاستظهار عليهم بحسب العدل والاستحقاق، واستعلام أماكنهم التي فصلوا عنها ومواطنهم التي بعدوا منها، فإذا وضحت أعمالهم وبانت، وانحسمت الشكوك في بابهم وزالت، أعادوهم إلى مواليهم أبو أم شاؤوا، وأصفوا نياتهم في الرجوع إليهم، أم شابوا، وأن يقصدوا إنشاد الضوال، ويجتهدوا من إظهار أمرها بما يغدو جمال الذكر به في الظلال، ويتجنبوا أن يمتطوا ظهورها بحال، ويمدوا أيديهم إلى منافعها في إسرار وإعلان، حتى إذا حضر أربابها سلمت إليهم بالنعوت والأوصاف، وأجري الأمر في ذلك على ما يضحي به علم العلم عالي المنار، حالي الأعطاف، فقد أمر الله تعالى بأداء الأمانات إلى أهلها، وهدى من ذلك إلى أوضح محاج الصحة، وسبلها فقال: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (1).

وأمره أن يختار للنظر في المعاون، وللأجلاب من يرجع إلى دين يحميه من مهاوي الزلل، وصلق عن مد اليد إلى أسباب المطامع، وكلف بما يعود على ما كلف إياه بصلاح مشرق الطالع، ومعرفة بما وكل إليه كافية، ولما يوجب الاستزادة له ماحية نافيه، ويوعز إليهم بالتشمير في طلب الدعا من جميع الأماكن والأقطار، وحسم مواد العار في بابهم والمضار، وأن يمضوا فيهم حكم الله بحسب مقاصدهم في الضلال، وتجري أمورهم على قانون الشرع المنير في حنادس الظلام، ممتنعين أن يراقبوا من لم يراقب الله تعالى في فعله ويجانبوا الصواب بقبول الشفاعة فيمن شهدت آثاره بذميم سبله. وإذا وقع الظفر بجان قد كشف في الغي قناعه، وأظهرت مساعيه إباءة من إجابة داعي الرشد وامتناعه، وأقيم حد الله تعالى من غير تعدٍ للواجب ولا تعر من ملابس السالكين للجدد اللاحب ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (2).

---

(1) سورة النساء، الآية 58.

(2) سورة البقرة، الآية 229.

وأمره أن يوعز إلى أصحاب المعاون أن يشدوا من القضاة والحكام ويجدوا في إجراء أمورهم على أوفى شروط الضبط والاقدام، ويأمرهم بحضور مجالسهم لتنفيذ إحكامهم وإمضائها، والمسارعة إلى حث مطايا التشمير في ذلك وانضوائها، والتصرف على أمثلتهم في إحضار الخصوم، إذا امتنعوا أو سوقهم إلى الواجب إذا زاغوا عنه وانحرفوا، وان يتقدم بإمداد عمال الخراج بما يؤدي إلى قوة أيديهم في استيفاء مال الفيء واجتبائه واعتماد ما ينصر الحقوق في مطويه وأثنائه، إذا كان في ذلك ومن الصلاح الجامع وكف المضار وحسم المطامع ما المعونة عليه واجبة، وللتوفيق مقارنة مصاحبة، قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ﴾ [1].

وأمره بعرض من تضمه الحبوس من أهل الجرائم، والجرائر، وتأمل أحوالهم في الموارد، والمصادر، والرجوع إلى متولي الشرطة في ذكر صورة كل منهم والسبب في حبسه، والتعيين من ذلك على ما يعرف به صحة الأمر من لبسه، فمن ألفى منهم للذنوب إلفاً، وعن سنن الصواب منحرفاً ترك بحاله وكف بإطالة اعتقاله، عن مجاله في ميادين ضلاله، وإن وجد منهم من وجب عليه الحد، أقيم فيه بحسب ما يقتضيه الحق، ومن اعترضت في بابه شبهة تجوز إسقاط الحد عنه ودرؤه، اعتمد إلحاقه في ذلك بمن اتصل إليه صوب الإحسان ودره، ومن لم يكن له جرم وتظهر صحة شاهده ودليله وتقدّم الأمر في إطلاقه وتخلية سبيله، وإن غدا لأحدهم سعي في الفساد واضح وبان، وغوى به في محاربة الحق وخان، قوبل بما أمر الله تعالى به في كتابه حيث يقول: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [2].

---

(1) سورة المائدة، الآية 2.

(2) سورة المائدة، الآية 33.

وأمره باختيار المرتب للعرض والعطاء والنفقة في أولياء من ذوي المعرفة والبصيرة، والمشهورين في العفة بتساوي العلانية، والسريرة، وممن تحلى بالأمانة جيده، واعتضد بطريقه في الرشاد تليده وكان بما يسند إليه قيماً، وفي مقر الكفاية ثاوياً مخيماً، وأن يتقدم إليه بضبط حلى الرجال، وشيات الخيول، وأن يقصد في كل وقت من تجديد العرض ما يشهد بالاحتياط السابغ الأهداب والذيول، فإذا وضح وجه الإطلاق وسلم مال الاستحقاق كانت التفرقة على قدر المنازل في التقديم والتأخير، وبحسب الجرائد التي تدل على الصغير من ذلك والكبير، ومتى طرق أحدهم ما هو محتوم على خلقه أعاد على بيت المال من رزقه بقدر قسطه وحقه، وان يلزمهم إحضار جياد الخيول وخيار الشكك، ويأخذهم من ذلك بأوضح ما نهج المرء الطريق إليه وسلك، فإذا أخل احدهم بما يلزمه البروز فيه يوم العرض، أو قصر في القيام بالواجب عليه الفرض، حاسبه بذلك من الثابت باسمه، والمطلق برسمه تنبيهاً له على تلافي الفارط، وتبصيراً لغيره في البعد عن مقام المخطيء الغالط إذا كان في قوتهم وكمال عدتهم إرهاب الأعداء والأضداد، وإرهاف للبصائر فيما يؤدي إلى المصالح الوافية الأعداد والأمداد. قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (1).

وأمره باختيار عمال الخراج، والضياع، والأعشار، والجهبذة، والصدقات والجوالي، وأن يكونوا محتضنين من الأمانة والكفاية بما يقع الاشتراك في علمه، ومتقمصين من ملابس العفة، والدراية ما تحمد العواقب في ضمنه ومتميزين بما يغنيهم عن الأفكار بنتائج الاتعاظ والاعتبار، ويغريهم بالاستمرار على السنن المنجي لهم من مواقف التنصل والاعتذار، وأن يأمر عمال الخراج بجباية الأموال على أجمل الوجوه والأحوال، سالكين في ذلك جدداً وسطاً، يحمي من مقام من ضعف في الاستخراج أو سطا، وأن يتقدم إلى الناظرين في الضياع بتوفية العمارة حقها، والزراعة حدها، والتوفير من حفظ الغلات الحاصلة على ما يقتضي فيه

(1) سورة الأنفال، الآية 60.

أرشد المذاهب وأسدها، متحرزين من أمر ينسبون فيه إلى العجز والخيانة، فكل من الحالين مجز في وضوح أدلة الفساد ومخز، والى الجهابذة بقصد الصحة في القبض والتقبيض وحفظ النقد من التدليس والتلبيس، أداء للأمانة في ذلك، واهتداء فيه إلى أقوم المسالك، إلى سعاة الطرقات بأخذ الفرائض من مواشي المسلمين السائمة، دون العاملة والجري في ذلك على السنة الكاسية للمحمدة الوافية الكاملة، متجنبين من أخذ فحل الإبل، وأكولة الراعي، وعقائل الأموال المحظورة على سائر الأسباب والدواعي، فإذا استوفيت على المحدود من حقها، أخرجت في المنصوص عليه من وجوهها وسبلها، والى جباة جماجم أهل الذمة بأخذ الجزية منهم في كل سنة، على قدر ذات أيديهم في الضيق والسعة، وبحسب العادة المألوفة المتبعة، ممتنعين عن مطالبة النسوان، ومن لم يبلغ الحلم من الرجال، ومن علت سنه عن الاكتساب وتبتل من الرهبان ومن غدا فقره واضح الدليل والبرهان، وفائز بالعهد المسؤول، وتلقياً لأمر الله تعالى بالقبول حيث يقول:﴿وَأَوْفُوا بِالعَهْدِ إِنَّ العَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [1].

وأمره أن يرد أمر المظالم، وأسواق الرقيق، ودور الضرب والحسبة إلى من عضد بالظلف والورع، وانتظم له شمل الهدى واجتمع، فكان ذا معرفة بما يحرم ويحل، وبصيرة يتفيأ بها من عوارض الشبه ويستغل، وأن يكون النظر في ذلك مضاهياً للحكم ملائماً، وأن يقوم به إلا من لا يرى له في فعله لائماً، وأن يتقدم إلى من يلي المظالم بتسهيل الاذن للخصوم في الدخول عليه، وتمكين كل منهم من استيفاء الحجة بين يديه، والتوصل إلى فصل ما بينهم بحسب ما يقود الحق إليه، وأن يقصد فيما وقع الخلف معهم فيه، الكشف الذي يقوم به، ويستوفيه، فإن وضح له الحق أنفذه وقطع به، وإلا ردهم إلى مجالس القضاء لإقضاء ذلك على مقتضى الشرع وموجبه وإلى المرتبين في أسواق الرقيق بالتحفظ فيما يبتاع ويباع، وأن يستعمل في ذلك الاقتناع بالجميل والاتباع، ليؤمن اختلاط الحر بالعبد، وتحرس الأنساب من القدح والفروج من الغصب، والمنع من مزج الحرام بالحلال،

---

(1) سورة الإسراء، الآية 34.

والى ولاة العيار بتصفية عين الدرهم والدينار من الغش والادغال، وصون السكك من تداول الأيدي الغريبة لها بحال من الأحوال، متحذرين من الاغترار بما ربما وضح الفساد فيه عند الاعتبار ومانعين التجار المخصوصين بالإيراد، من كل قول مخالف للإيثار، في الصحة والمراد، ومعتمدين إجراء الأمر فيما يطبع على القانون بمدينة السلام من غير خلاف لمستقر القاعدة في ذلك ومتسق النظام، وأن يثبت ذكر أمير المؤمنين وولي عهده من المسلمين على ما يضرب من الصنفين معاً، والمسارعة في ذلك إلى أفضل ما بادر إليه المرء وسعى، والى المستخدمين في الطرز بملاحظة أحوال المناسج والإشراف عليها، واخذ الصناع بالتجويد على العادة التي يجب الانتهاء إليها، وإثبات اسم أمير المؤمنين على ما ينسج من الكساء والفروش، والأعلام والبنود، جرياً في ذلك على السنن المرضي، والمنهاج المحمود، والى من يراعي الحسبة الشريفة بالكشف عن أحوال العوام في الأسواق، والانتهاء في ذلك إلى ما ينتهي به شمل الصلاح إلى الانتظام والاتساق، وأن يتقدم إليهم بما يجب من تعبير ما يختص بهم من المكاييل والموازين وحملها على قانون الصحة الواضحة الدلائل والبراهن، وأن يقصد تبصرهم مواضع الحظ في الاستقامة ويحذرهم مواقع الانتقام الذي لا تفيد فيه أسباب الاستصفاح والاستقالة، فان عرف من أحد منهم إقداماً على إدغال فيما يزن أو يكيل، قوبل بالتأديب بما هو الطريق إلى ارتداعه والسبيل.قال الله تعالى:﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ (1)

وأمره أن تعالى: النعمة التي ضفت عليه برودها، وحلت جيده عقودها، وزفت منه إلى أوفى أكفائها، وحفت بجزيل القسم من جميع أكنافها وأرجائها، وأن يقابلها بإخلاص الطاعة يساوي فيه بين ما يبدي ويسر، وسعي في الخدمة يوفي على كل مجازٍ ومبر، ويبدأ أمام ما يتوخاه بأخذ البيعة لأمير المؤمنين وولي عهده على نفسه وولده، وكافة الرعايا والأجناد في بلده، عن نية صفت من الكدر، والقذى، ووفت للتوفيق بما ضمنت من خذلان البغي ونصرة الهدى، ويتبع ذلك

(1) سورة المطففين، الآية 1.2.3

بالحقوق في كل خدمة ترضى، والوقوف عند الأوامر الإمامية في كل ما يؤدي إلى الوفاق، ويفضي وأن يحمل إلى حضرة أمير المؤمنين من الفيء والغنائم ما أوجبه الله تعالى وفرضه، من غير تأخير لما يجب تقديمه من ذلك ولا تقصير منه فيما يقتضي التلافي والاستدراك: ليأمر أمير المؤمنين بصرفه في سبيله المشار إليها ووجهه المنصوص عليها. قال الله تعالى:﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ (1).

ثم إن أمير المؤمنين آثر أن يضاعف له من الإحسان ما يقتضيه مقامه لديه من وجيه الرتبة والمكان وشرفه بما يرفل من حلاه في حلل الجمال وتكفل له علاه ببلوغ منتهى الآمال وبوأه بما أولاه محلاً تقصر عن الوصول إليه الأقدام، وتعجز عن حل عراه الأيام، ولقبه بكذا، وأذن له في تكنيته عن حضرته، وتأهيله من ذلك لما يتجاوز قدر أمنيته، إنافة به على من هو في مساجلته من الأقران طالع، وإضافة للنعمة في ذلك إلى ما اقترن بها فيما هو يشمل الفخر عنده جامع، وأنفذ لواء يلوي به إلى الطاعة أبيّ الأعناق، ويحوي به من العز ما أنواره وافية الإشراق، فتلق يا فلان، هذه الصنيعة الغراء، والمنحة التي أكسبت زنادك الايراء، بالاستبشار التام والاعتراف فيها بسابغ الطول والإنعام، وأشع ذكر ذلك عند كل أحد، وانته في الإبانة عنه إلى أبعد أمد، واعتمد مكاتبة حضرة أمير المؤمنين متسمياً، ومن عداه متلقباً متكنياً، وتوفر على شكر تستدر به صوب المزيد، وتستحق به إلحاق الطريف من الإحسان بالتليد. والله تعالى يقول:﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (2).

---

(1) سورة الأنفال، الآية 41.

(2) سورة إبراهيم، الآية 7.

هذا عهد أمير المؤمنين إليك، والحجة لك وعليك، قد أوضح لك فيه الصواب، وأذل به الجوامح الصعاب، وحباك منه بموهبة كفيلة وفية فيها المنى بسابق الضمان والميعاد بخيري البدء والمعاد، وضمنه من مواعظه ما هدى به إلى كل ما الجني ثمره، وغدا محظياً بما تروق أوضاحه في المجد وغرره، ولم يألك فيه تجملاً يكسبك الفخر النامي، ويجعل ذكرك زينة المحفل والنادي، وتقديماً ينبيء عما خصصت به من المنح المشرقة اللآلي، وإكراماً يبقي صيته على تقضي الأيام والليالي، وتبصيراً يقي من فلتات القول والعمل، ويرتقي المستضيء بأنواره إلى ذرى الأمن من دواعي العثار والزلل، فاصغ إلى ما حواه، إصغاء الفائز بأوفى حظ، وتدبر فحواه، تدبُّر الناطق بفضل الحث على الهدى والحض، وكن لأوامر أمير المؤمنين فيه محتذياً، ومن تجاوز محدوده في مطاويه محتمياً، وبمواعظه الصادقة معتبرا، وفي العمل بما قارن الحق مستبصراً، تفز بالغنم الأكبر، وبالسلامة في المورد والمصدر وإياك واعتماد ما تذم فيه مكاسبك، فان لك بين يدي الله تعالى موقفاً يناقشك فيه ويحاسبك. واعلم أن أمير المؤمنين قد قلدك جسيماً، وخولك جزيلاً عظيماً، فلا تنس نصيبك من الله تعالى غداً، ولا تجعل لسلطان الهوى المضل عليك يداً، وإن خفي عليك الصواب في بعض ما أنت بصدده، واعترض فيه من الشبه ما يحول بينك وبين طريق الرشاد وجدده فطالع حضرة أمير المؤمنين به، واستنجد الله في ذلك بأسد رأي وأصوبه، يبدّلك من الشك يقيناً، ويبد لك ما يغدو لكل خير ضميناً إن شاء الله تعالى[1].

الملحق الثاني: رأي الإمام الغزالي في مسألة الإمامة وشروطها

من الأفضل أن نورد رأي أبي حامد الغزالي في مسألة الإمامة وشروطها ففي ذلك مزيد من إيضاح. والنص التالي مقتبس من كتابه "الاقتصاد في الاعتقاد" قال:"ليس يخفى أن التنصيص على واحد نجعله إماما بالتشهي غير ممكن، فلا بد من له من تميز بخاصية يفارق سائر الخلق بها،

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، 10/31-45

فتلك خاصية في نفسه وخاصية من جهة غيره. أما من نفسه فان يكون أهلا لتدبير الخلق وحملهم على مراشدهم وذلك بالكفاية والعلم والورع، وبالجملة خصائص القضاء تشترط فيه مع زيادة نسب قريش، وعلم هذا الرابع بالسمع حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم:"الأئمة من قريش"، فهذا يميزه عن أكثر الخلق. ولكن ربما يجتمع في قريش جماعة موصوفون بهذه الصفة فلا بد من خاصية أخرى تميزه وليس ذلك إلا التولية أو التفويض من غيره.

فيبقى الآن النظر في صفة المولى فان ذلك لا يسلم لكل واحد بل لا بد فيه من خاصية وذلك لا يصدر إلا من احد ثلاثة: إما التنصيص من جهة إمام العصر بان يعين لولاية العهد شخصا معينا من أولاده أو سائر قريش، وأما التفويض من رجل ذي شوكة يقتضي انقياده وتفويضه متابعة الآخرين ومبادرتهم إلى المبايعة وذلك قد يسلم في بعض الاعصار لشخص واحد مرموق في مرزوق بالمتابعة مستولى على الكافة ففي بيعته وتفويضه كفاية عن تفويض غيره لان المقصود أن يجتمع شتات الآراء لشخص مطاع وقد صار الإمام بمبايعة هذا المطاع مطاعا، وقد لا يتفق ذلك لشخص واحد، بل لشخصين أو ثلاثة أو جماعة، فلا بد من اجتماعهم وبيعتهم واتفاقهم على التفويض حتى تتم الطاعة...

فان قيل: فان كان المقصود حصول ذي رأي مطاع يجمع شتات الآراء ويمنع الخلق من المحاربة والقتال ويحملهم على مصالح المعاش والمعاد فلو انتهض لهذا الأمر من فيه الشروط كلها سوى القضاء، ولكنه مع ذلك يراجع العلماء ويعمل بقولهم فماذا ترون فيه أيجب خلعه ومخالفته؟ أم تجب طاعته ؟ قلنا الذي نراه ونقطع به انه يجب خلعه ان قدر على أن يستبدل به من هو موصوف بجميع الشروط من غير إثارة فتنة وتهييج قتال. وان لم يكن ذلك إلا بتحريك قتال وجبت طاعته وحكم بإمامته" (1)

---

(1) حموش، عبد الحق.ابن تاشفين.ص 83-84.

الملحق الثالث: فتوى الإمام الغزالي في حق يوسف بن تاشفين وشرعية ولايته

فتوى الإمام الغزالي في حق يوسف بن تاشفين وشرعية ولايته:

ادعى نفر من أعداء يوسف بن تاشفين أنه ليس حاكماً شرعياً فذهب الفقيه ابن عربي إلى المشرق وهناك التقى بالغزالي وشرح له وضع يوسف وطلب تزويده بفتوى تثبيت شرعيته وشرعية ولايته تزوده بفتوى شرعية لأنه يخطب للخليفة المستظهر وفيما يلي نصها:

إن يوسف كان على حق في إظهار شعار الإمامة للخليفة المستظهر، وإن هذا هو الواجب على كل ملك استولى على قطر من أقطار المسلمين. وإذا نادى الملك المشمول بشعار الخلافة العباسية، وجبت طاعته على كل الرعايا والرؤساء، ومخالفته مخالفة للإمام، وكل من تمرد واستعصى، فحكمه حكم الباغي، ومن حق الأمير أن يرده بالسيف وأن يقاتل الفئة المتمردة على طاعته، لا سيما وقد استنجدوا بالنصارى وهم أعداء الله، في مقاتلة المسلمين، وهم أولياء الله، وأن يستمر في قتالهم حتى يعودوا إلى طاعة الأمير العادل المتمسك بطاعة الخلافة العباسية. ومتى تركوا المخالفة وجب الكف عنهم، وذلك عن المسلمين منهم دون النصارى. وأما ما يظفر به من أموالهم فمردود عليهم وعلى ورثتهم، وما يؤخذ من نسائهم وذراريهم في القتال مدورة لا ضمان لها، وحكمهم بالجملة في البغي على الأمير المتمسك بطاعة الخلافة، المستولي على المنابر والبلاد بقوة الشوكة، وحكم الباغي على نايب الإمام، فانه وإن تأخر عنه صريح التقليد لاعتراض العوايق المانعة من وصول المنشور بالتقليد، فهو نايب بحكم قرينة الحال، إذ يجب على إمام المصر أن يأذن لكل مسلم عادل، استولى على قطر من أقطار الأرض، أن يخطب له وينادي بشعاره، ويحمل الخلق على العدل والنصفة، ولا ينبغي أن يظن بالإمام توقف في الرضا بذلك والإذن فيه وإن توقف في كتبه المشهورة، فالكتب قد يعوق عن إنشائها وإيصالها المعاذير وأما الاذن والرضا بعدما ظهر حال الأمير في العدل والسنة وإبتغاء المصلحة للتفويض والتعيين، فلا رخصة في تركه. وقد ظهر

حال هذا الأمير بالاستفاضة ظهوراً لا يشك فيه وإن لم يكن عن إيصال الكتب والتقليد بمنشور، مقرون بما جرت العادة بمثله في تقليد الأمراء، فيجب على حضرة الخلافة بذل ذلك، فإن الإمام الحق عاقلة الإسلام، ولا يحل له أن يترك في أقطار الأرض فتنة ثائرة، إلا ويسعى إلى إطفائها بكل ممكن [1].

الملحق الرابع: رسالة من الغزالي إلى يوسف بن تاشفين

رسالة من الغزالي إلى يوسف بن تاشفين

الأمير جمع كلمة المسلمين وناصر الدين، أمير المؤمنين، أبو يعقوب يوسف بن تاشفين الداعي لأيامه بالخير، محمد بن محمد بن محمد الغزالي.

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين، والصلاة على سيد المرسلين وساير النبيين وعلى آله وأصحابه أجمعين.قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم):"ليوم من سلطان عادل خير من عبادة سبعين سنة" وقال (صلى الله عليه وسلم):" ما من والي عشرة إلا ويؤتى يوم القيامة مغلولة يده إلى عنقه، أوبقه جوره أو أطلقه عدله" وقال رسول الله(صلى الله عليه وسلم):"سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله" وعد الإمام العادل أولهم. ونحن نرجو أن يكون الأمير جامع كلمة الإسلام وناصر الدين، ظهير أمير المؤمنين، من المستظلين بظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، فإنه منصب لا ينال إلا بالعدل في السلطنة. وقد آتاه الله السلطان وزينة بالعدل والإحسان. ولقد استطارت في الآفاق محامد سيره ومحاسن أخلاقه على الاجمال، حتى ورد الشيخ الفقيه أبو محمد عبد الله بن عمر بن العربي الأندلسي، حرس الله توفيقه، فأورد من شرح ذلك وتفصيله ما عطر به أرجاء العراق، فإنه لما وصل إلى مدينة السلام وحضرة الخلافة، لم يزل يطنب في ذكر ما كان عليه المسلمون في جزيرة الأندلس من الذل والصغار والحرب والاستصغار، بسبب استيلاء أهل الشرك وامتداد أيديهم إلى أهل الإسلام بالسبي والقتل والنهب،

(1) عنان، عصر المرابطين.1/530-533.

وتطرقهم إلى اهتضام أهل الإسلام بما حدث بينهم من تفرق الكلمة واختلاف آراء الثوار المحاولين للاستبداد بالإمارة، وتقاتلهم على ذلك، حتى اختطف من بينهم حماة الرجال بطول القتال والمحاربة والمنافسة، وإفضاء الأمر بهم إلى الاستنجاد بالنصارى حرصاً على الانتقام، إلى أن أوطنوهم بيضة الإسلام وكشفوا إليهم الأسرار، حتى أشرفوا على التهايم والأغوار، فرتبوا عليهم الجزا، وجبروهم بشر الجزا، ولما استنفذوا من عندهم الأموال أخذوا في نهب المناهل وتحصيل المعاقل. واستصرخ المسلمون عند ذلك بالأمر ناصر الدين وجامع كلمة المسلمين ظهير أمير المؤمنين ابن عم سيد المرسلين، صلوات الله عليه وعليهم أجمعين، واستصرخه معهم بعض الثوار المذكورين... عن مداراة المشركين، فلبّى دعوتهم وأسرع نصرتهم وأجاز البحر بنفسه ورجاله وماله، وجاهد بالله حق جهاده ومنحه الله تعالى استيصال شأفة المشركين والإفراج عن حوزة المسلمين، جزاه الله تعالى أفضل جزاء المحسنين، وأمده بالنصر والتمكين، وذكر متابعته العودة من جهة أخرى بعد ثلاثة أعوام من هذه الغزوة المشهورة وقتل كل من ظهر من النصارى بالجزيرة المذكورة من الخارجين لامداد ملوكها على عادتهم، أو من سراياهم في أي جهة يمموا من جهات المسلمين.وقذف الله الرعب في قلوب المشركين حتى أعتاه ذلك عن جر والجنود وعقد الألوية والبنود. وذكر أن أولايك الثوار، لما أيقنوا قوة الأمير ناصر الدين وغلبته لحزب المشركين، وسألهم رفع المظالم عن المسلمين التي كانت مرتبة عليهم بجزية المشركين، وإمدادهم بمالهم، مداراة لبقاء أمرهم، عادوا إلى ممالأة المشركين، وألقوا إليهم القول من جهة الأمير، وجرؤوهم على لقايه، وصح ذلك عنده وعند المسلمين، فسأله المسلمون عند ذلك إنزال هؤلاء الثوار عن البلاد، وتداركها ومن فيها من المسلمين قبل أن يسري الفساد، ففعل ذلك، ولما تملكها رفع المظالم وأظهر فيها من الدين المعالم، وبدد المفسدين واستبدل بهم الصالحين ورتب الجهاد وقطع مراد الفساد، ثم أضاف إلى ذكر ذلك ما شاهده من تلك السجية الكريمة في إكرام أهل العلم وتوقيره لهم، وتنزيهه باسمهم، واتباعه لما يفتون إليه من أحكام الله تعالى وأوامره ونواهيه، وحمله عماله على السمع والطاعة لهم، وتزيين منابر المملكة الجديدة والقديمة

بالخطبة لأمير المؤمنين، أعز الله أنصاره، وإلزامه للمسلمين البيعة، وكانوا من قبل منكفين عن البيعة، والنداء بشعار الخليفة، إلى غير ذلك مما شرحه من عجايب سيرته ومحاسن أحواله ومكارم أخلاقه. وكان منصبه في غزارة العلم ورصانة العقل ومتانة الدين يقتضي التصديق له في روايته، والقبول لكل ما يورده من صدق كلمته. وإن ما أفاضه من هذه الفضايل إلى حضرة الخلافة. أعز الله أنصارها، فوقع ذلك موقع الاحماد. ثم أذكر مع ذلك توقف طايفة من الثوار الباقين في شرق الأندلس عن مشايعة الأمير ناصر الدين ومتابعته، وأنهم حالفوا النصارى واستنجدوا بهم. فأعلن المسلمون بالدعاء عليهم والتبري منهم، ليتوب عليهم أو ليقطع شأفتهم وكتب هذا الشيخ سؤالاً على سبيل الاستفتاء، وأفتيته فيه بما اقتضاه الحق وأوجبه الدين. وأعجلني المسير إلى سفر الحجاز، وتركته مشمراً عن ساق الجد في طلب خطاب شريف من حضرة الخلافة يتضمن شكر صنيع الأمير ناصر الدين في حمايته لثغور المسلمين، ويشتمل على تسليم جميع بلاد المغرب إليه ليكون رئيسهم، ورؤوسهم تحت طاعته، وإن من خالف طاعته فقد خالف أمر أمير المؤمنين، ابن [عم] سيد المرسلين، ويتعين جهاده على كافة المسلمين. ولم يبالغ أحد في بث مناقب قوم، مبالغة الشيخ الفقيه أبي محمد في بث مناقب الأمير وأشياعه المرابطين.

ولقد شاع دعاؤه في المشاهد الكريمة بمكة، حرسها الله، لحضرة الأمير وجماعة المرابطين، ولم يقنعه ما فعله بنفسه إلى أن كلف جميع من رجا بركة دعايهم، الدعاء لهم في تلك المشاهد الكريمة والمناسك العظيمة، وأعلن بالدعاء لأمير بلده الأمير الأجل أبي محمد سير بن أبي بكر، وفقه الله تعالى، وذكر من فضله وحسن سيرته وتلطفه بالمسلمين ورفع جميع النوايب عنهم، ما جهد به النفوس. ولقد دعي الشيخ الفقيه إلى المقام ببغداد على البر والكرامة والاتصال بأسباب يتشرف بها من حضرة الخلافة، فأبى إلا الرجوع إلى ذلك الثغر يلازمه للجهاد مع الأمراء، وفقهم الله تعالى. ولو أقام لفاز بالحظ الأوفى من التوفير والاكرام. وما أجدر مثله بأن يوفى حظه من الاحترام، وولده الشيخ الإمام أبو بكر

قد أحرز من العلم في وقت تردده إلى مالم يحرزه غيره مع طول الأمد، وذلك لما خص به من... الذهن وذكاء الحس واتقاد القريحة وما يخرج من العراق إلا وهو مستقل بنصيبه، حايز قصب السبق بين أقرانه. ومثل هذا الوالد والولد خص بالإكرام في الوطن، وقد تميزا بمزيد من التوفيق من الأعيان في الغربة. والله يحفظ من حفظهما ويرعى من رعاهما، فرعاية أمثالهما من آداب الدين المعينة على أمير المسلمين. وقد قال المحسنون، فليستوص بمن ظفر منهم خيراً. وكم دخل قبلهما العراق، ويدخل بعدهما من تلك البلاد النائية وما يذكر محاسنها ولا يرفع مساويها. وقد انتهى الشيخ الفقيه من ذلك إلى ما لا يمكن أن يلحق فيه ثناؤه، فضلاً عن أن يزاد عليه. والله تعالى يعمر بهما أوطانهما ويصلح شأنهما، ويوفق الأمير ناصر الدين ليتوسل إلى الله تعالى في القيامة بإكرام أهل العلم، فهي أعظم وسيلة عند رب العالمين. ونسأل الله أن يخلد ملك الأمير ويؤيده تخليداً لا ينقطع أبد الدهر، ولعل القلوب تنفر عن هذا الدعاء وتستنكر لملك العباد التأييد والبقاء، وليس كذلك فإن ملك الدنيا إذا تزين بالعدل فهو شبكة الآخرة، فإن السلطان العادل إذا انتقل من الدنيا انتقل من سرير إلى سرير أعظم منه، ومن ملك إلى ملك أجل وأرفع منه، وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً. ومهما وفّى العدل في الرعية، والنصفة في القضية فقد خلد ملكه وأيد سلطانه. وقد وفق له بحمد الله ومنه. والحمد لله رب العالمين وصلواته على سيدنا محمد خاتم النبيين وآله أجمعين[1].

(1) عنان، عصر المرابطين، 1/42-43.

الملحق الخامس: كتاب وجهة يوسف بن تاشفين إلى الجميع يعلن توليته لعهده من بعده ولده عليا سنة 496 هـ

كتاب وجهه يوسف بن تاشفين إلى الجميع، يعلن توليته لعهده من بعده ولده علياً سنة 496 هـ وهو من إنشاء الوزير محمد بن عبد الغفور.

الحمد لله الذي رحم عباده بالاستخلاف، وجعل الإمامة سبب الائتلاف وصلى الله على سيدنا محمد نبيه الكريم الذي ألف القلوب المتنافرة، وأذل لتواضعه عزة الملوك الجبابرة.

أما بعد: فان أمير المسلمين وناصر الدين، أبا يعقوب يوسف بن تاشفين لما استرعاه الله على كثير من عباده المؤمنين، خاف أن يسأله الله غداً عما استرعاه، كيف تركه هملاً لم يستتنب فيه سواه، وق أمر الله بالوصية فيما دون هذه العظيمة، وجعلها من آكد الأشياء الكريمة، كيف في هذه الأمور العائدة بمصلحة الخاصة والجمهور؟

وان أمير المسلمين، بما لزمه من هذه الوظيفة، وخصه الله بها من النظر في هذه الأمور الدينية الشريفة، قد أعز الله رماحه، وأحد سلاحه فوجد ابنه الأمير الأجل أبا الحسن أكثرها ارتياحاً إلى المعالي واهتزازا وأكرمها سجية وأنفسها اعتزازاً، فاستنابه فيما استرعى، ودعاه لما كان إليه دعا، بعد استشارة أهل الرأي على القرب والنأي، فرضوه لما رضيه واصطفوه لما اصطفاه، ورأوه أهلاً أن يسترعى فيما استرعاه، فاحضره مشترطاً عليه الشروط الجامعة بينها وبين المشروط، فقبل ورضي، وأجاب حين دُعي بعد استخارة الله الذي بيده الخيرة والاستعانة بحول الله الذي من آمن به شكره.

ثم تستمر الوثيقة بعد ذلك مشتملة على وصايا كثيرة من أهمها تخصيص سبعة عشر ألف فارس من جيش المرابطين لبلاد الأندلس، توزع بين أهم مراكزها لحمايتها من عدوان الإسبان [1].

الملحق السادس: العهد الذي أصدره يوسف بن تاشفين بجعل ولده عليا وليا للعهد من بعده سنة 496 هـ

العهد الذي أصدره يوسف بن تاشفين بجعل ولده علي وليا للعهد من بعده سنة 496 هـ وهو من إنشاء الوزير أبي بكر.

كتاب تولية عظيم جسيم، وتوصية صميم كريم، مهدت على الرضا قواعده وأكدت بيد التقوى معاقده، وأبعدت عن الغواية والهوى مصادره وموارده وأنفذه أمير المسلمين وناصر الدين، أبو يعقوب يوسف بن تاشفين، أدام الله أمره، وأعز نصره، وأطال فيما يرضيه ويرضى به عنه عمره، غير محابٍ ولا تارك في النصيحة لله عز وجل ولرسوله موضع ارتياب لمرتاب، للأمير الأجل أبي الحسن على ابنه المتقبل شيمه وهممه، المتأثل حلمه وتحلمه، الناشيء في حجر تقويمه وتأديبه، المتصرف بين يدي متحديه وتهذيبه، أدام الله عزه وتوفيقه، وأنهج إلى كل صالح من الأعمال طريقه، وقد تهمم بمن تحت عصاه من المسلمين، وهذا فيمن يخلفه فيهم هدى للمتقين، ولم ير أن يتركهم سوى غير مدينين، فاعتام في النصاب الرفيع واختار، واستنصح أولي الرأي منهم ومن غيرهم واستشار، واستضاء بشهاب استخارة الله عز وجل واستنار، فلم يوقع الله بعد طول تأمل، وتراخي مدة وتمهل اختياره ولا اختيار من فاوضه في ذلك من أولي التقوى والحكمة والتجربة واستشاره إلا عليه، ولا صار به وبهم الاجتهاد إلى إليه. ولا التقى وأراد التراثي والتشاور إلى بين يديه، فولاه على استحكام بصيرة وبعد طول مشورة عهده، وأفضى إليه بالأمر والنهي والبسط والقبض بعده، وجعله خليفته في رعايا مسنده، وأوطأ عقبه جماهير الرجال، وناطه بمهمات الأموال والأحوال

---

(1) حركات.المغرب عبر التاريخ.203/1.

وعهد إليه أن يتقي الله ما استطاع ولا يعدل عن سمت العدل وحكم الكتاب والسنة في أحد عصى أو أطاع، ولا ينام به عن حماية من أسهره الحيف والخوف والاضطجاع، ولا يتلهى دون معلن شكوى، ولا يتصمم عن متصرخ لدفاع بلوى، وأن ينتظم أقصى بلاده وأدناها في سلك تدبيره. ولا يكون بين القريب والبعيد من رعيته بون في إحصائه وتقديره، ثم دعا- أدام الله تأييده- لمبايعته من دنا ونأى من المسلمين، فلبوا مسرعين، وأتوا مهطعين وأعطوا صفقة أيمانهم متبرعين متطوعين، وبايعوه على السمع والطاعة والتزام سنن الجماعة، وبذل النصيحة، وإصفاء النيات الصحيحة، وموادة من صاحبه ومحاربة من حاربه، ومكايدة من كايده، ومعاندة من عانده،لا يدخرون في ذلك على حال المكره والمنشط مقدرة، ولا يحتجون في وقتي السخط والرضا بمعذرة ثم أمر بمخاطبة أهل البلاد لتبايعه كل طائفة في بلدها، وتعطيه كما أعطاه من حضر صفقة يدها، حتى يستوي في التزام بيعته القريب والبعيد، ويجتمع على الاعتصام بحبل دعوته الغائب والشهيد، وتطمئن من أعلام الناس وخيرهم قلوب كانت من تراخي من انتجز قلقة، ولم تزل ببقية التأخر أرقة، ويشتمل الناس السرور والاستبشار، وتتمكن لهم الدعة ويتمهد لهم القرار، وتنشأ في الصلاح لهم آمال، ويستقبلهم جد صاعد وإقبال. والله يبارك لهم فيها بيعة الرضوان، وصفقة رجحان، ودعوة إيمان، إنه على ما يشاء قدير، لا اله إلا هو نعم المولى ونعم النصير.

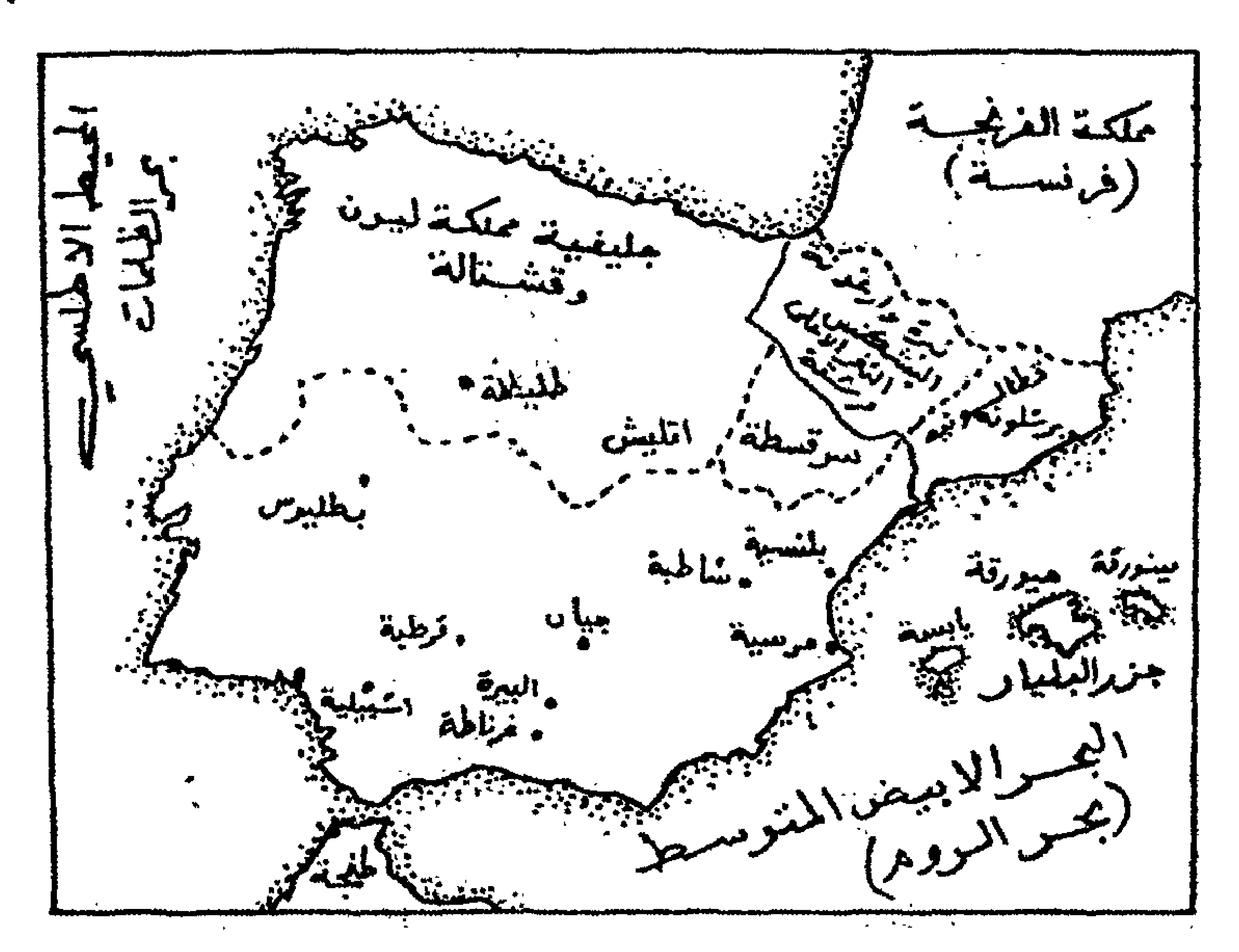
شهد على أمير المؤمنين ناصر الدين أبي يعقوب يوسف بن تاشفين - أدام الله أمره وأعز نصره- بكل ما ذكر عنه من التزام البيعة المنصوصة فوق هذا، وأعطى صفقة يمينه متبرعاً بها، وبالله التوفيق. وذلك بحضرة قرطبة حماها الله[1].

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، 10/161-162.

الملحق السابع: خريطة للأندلس في عهد يوسف بن تاشفين

١٣٥

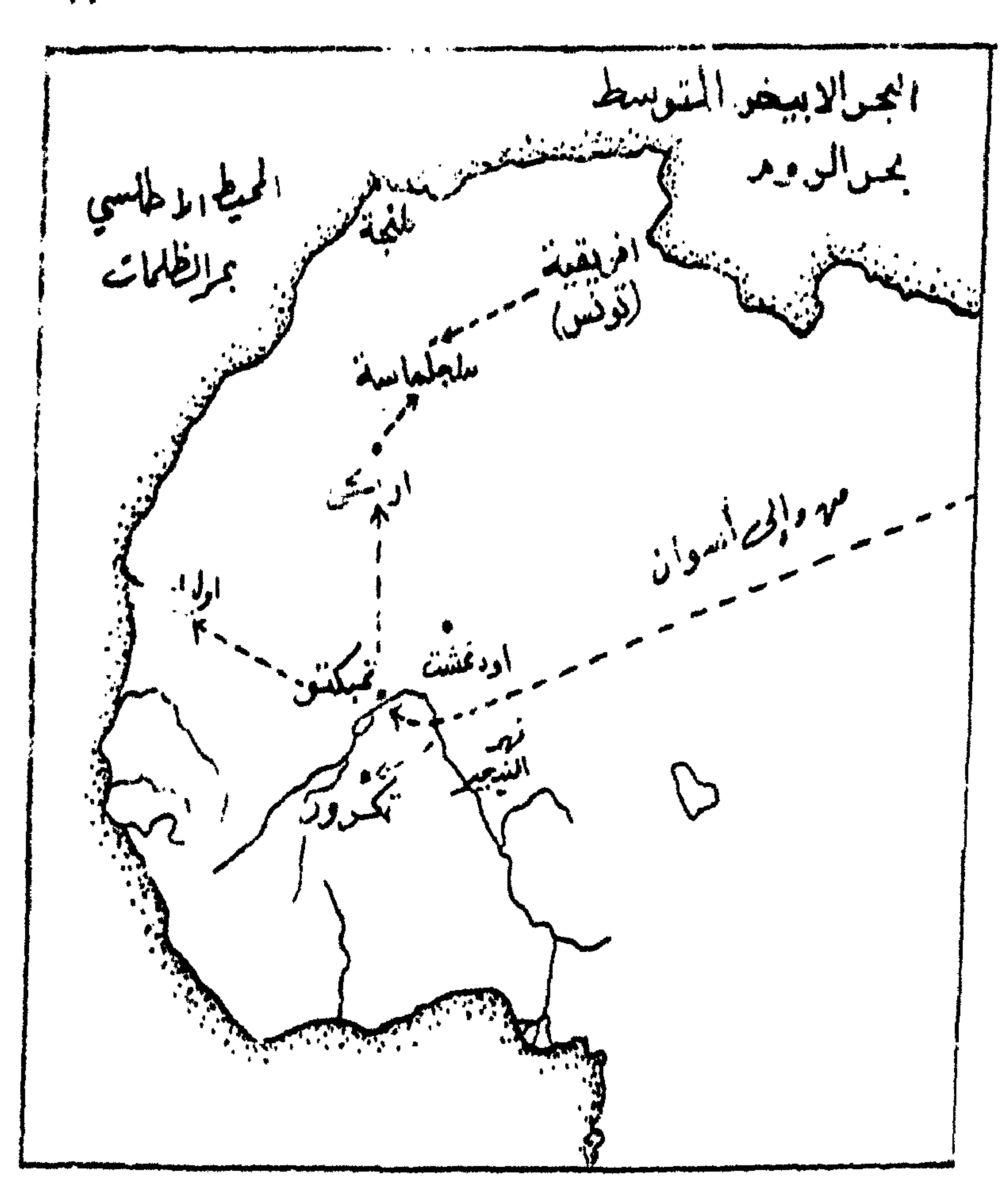


الأندلس الاسلامية في عهد يوسف بن تاشفين

حموش عبد الحق ، ابن تاشفين ، ص ٨٧ .

الملحق الثامن: خريطة لشبكة الطرق التجارية في عهد يوسف بن تاشفين

١٢٧

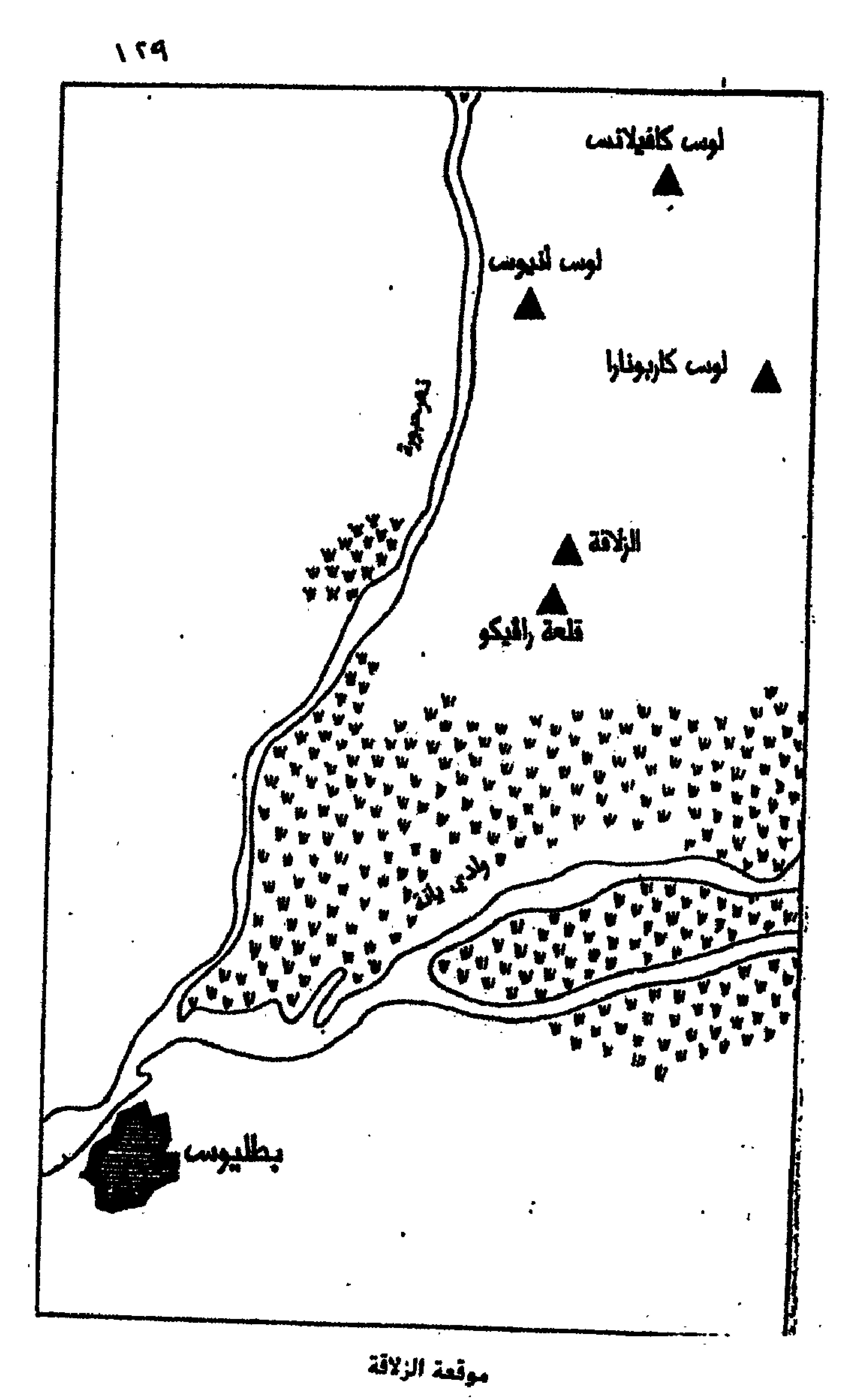


شبكة الطرق التجارية لعهد يوسف بن تاشفين

حموش ، عبد الحق ، ابن تاشفين ، ص ٨٦ .

الملحق التاسع: خريطة لمعركة الزلاقة

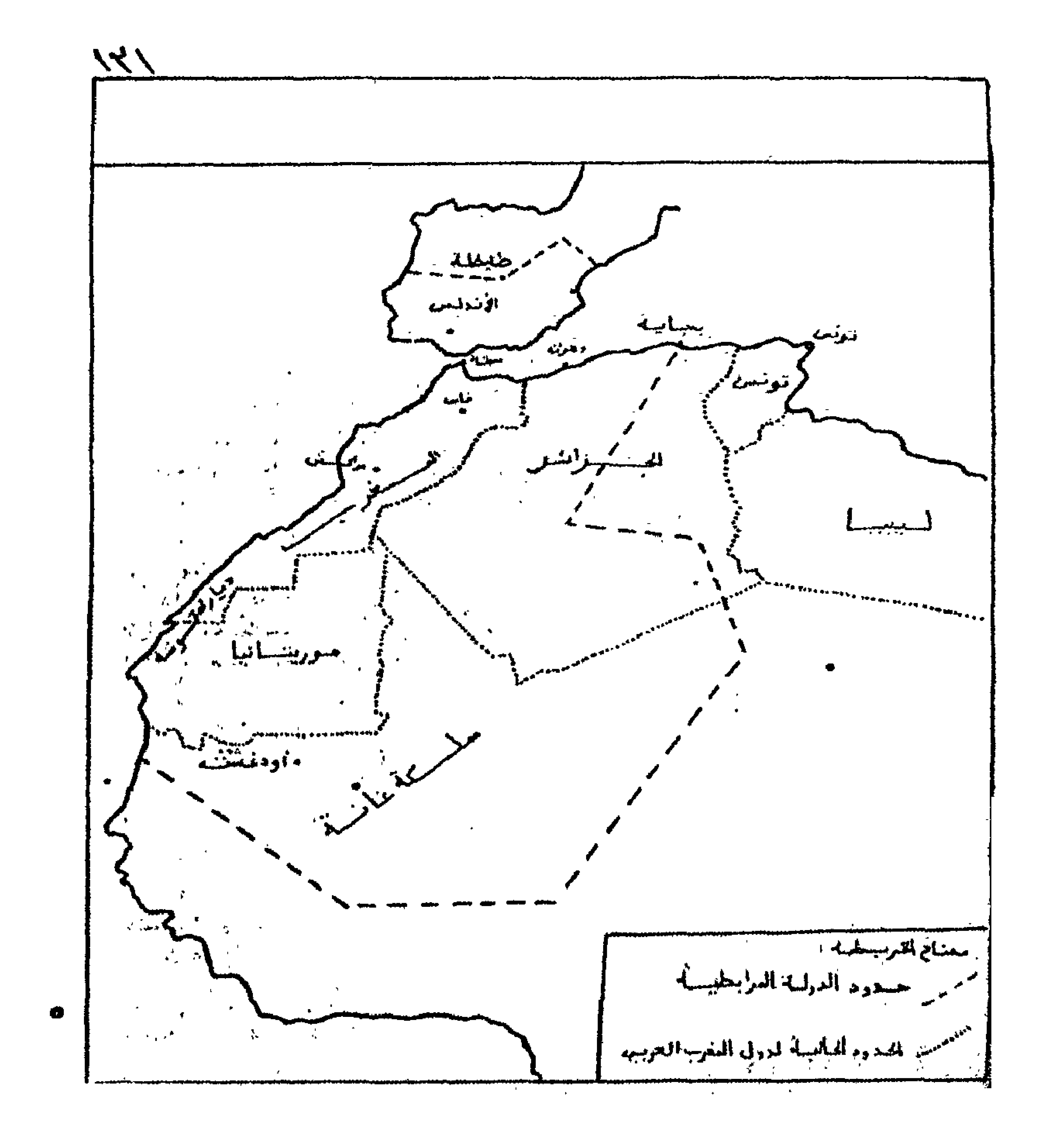
١٢٩



موقعة الزلاقة

حموش ، عبد الحق ، ابن تاشفين ، ص ٨٣ ـ ٨٤ .

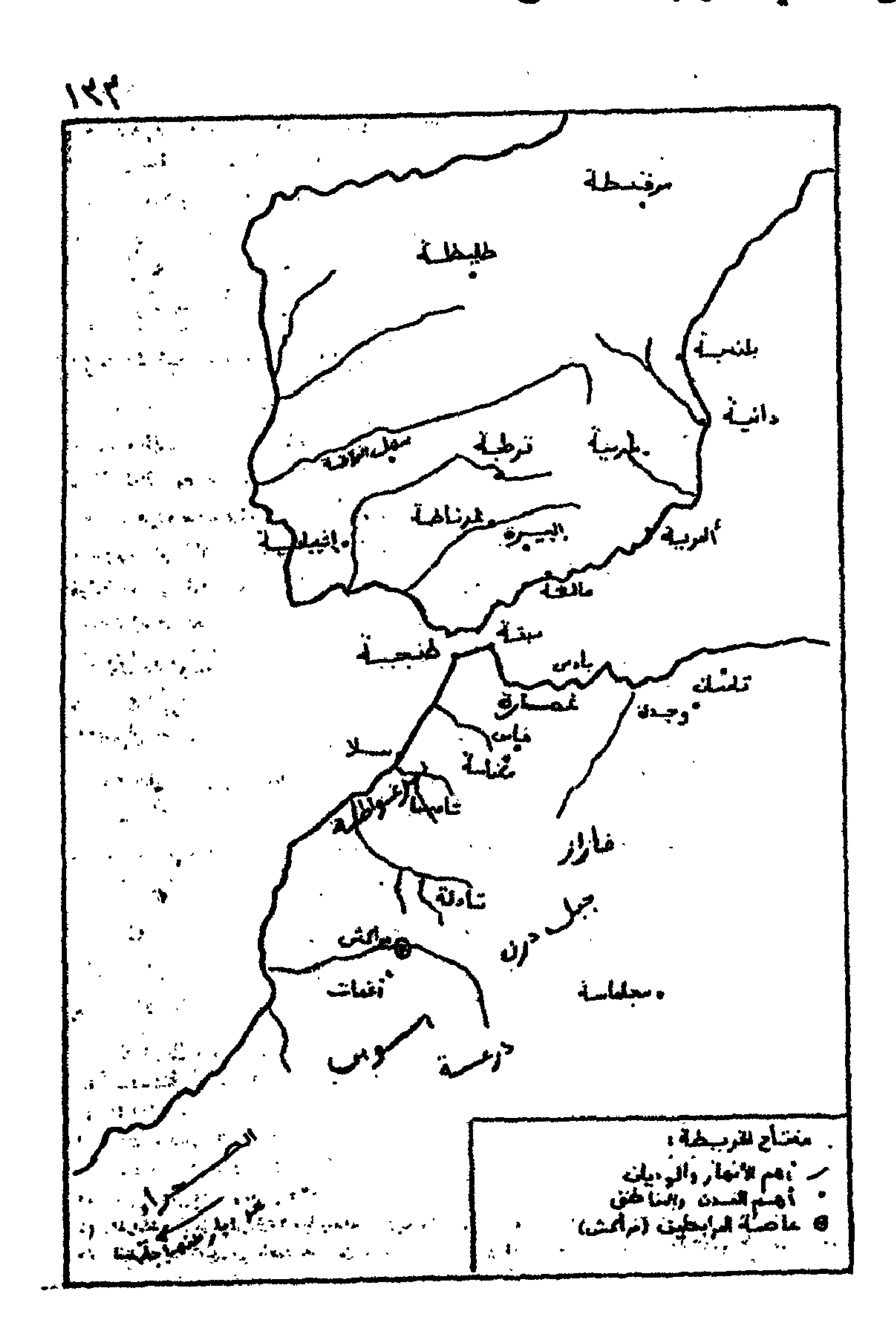
الملحق العاشر: حدود الدولة المرابطية



حدود الدولة المرابطية في أقصى توسعها

بوتشيش، إبراهيم القادري، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص 11.

الملحق الحادي عشر: بعض المواقع الشهيرة زمن المرابطين



بعض المواقع الشهيرة زمن المرابطين

بوتشيش ابراهيم القادري ، <u>المغرب والأندلس في عصر المرابطين</u> ، ص ١٥ .

الملحق الثاني عشر: صورة لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين

١٣٥



رسم لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين حسب وصف ابن زرع . نلاحظ في خلفية الرسم قبة مراكش

حموش ، عبد الحق ، <u>ابن تاشفين</u> ، ص ٨٧ .

قائمة المصادر والمراجع

أ) المصادر:

1. ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي (ت 658 ه).الحلة السيراء. تحقيق حسين مؤنس. الجزء الثاني. القاهرة: الشركة العربية للطباعة والنشر 1963.
2. ابن أبي دينار، أبو عبد الله الشيخ محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني (ت 1110ه).المؤنس في تاريخ أفريقيا وتونس. الطبعة الأولى. 1286 ه.
3. ابن أبي زرع، علي بن محمد الفاسي(ت 726 ه). الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس. تورنبرغ، ابسال 1843.
4. ابن الأثير، عزالدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد ابن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني(ت 630 ه)، الكامل في التاريخ. المجلدان التاسع والعاشر. بيروت: دار صادر. 1982/1402.
5. ابن بلقين، عبد الله الزيري(ت 483 ه)، مذكرات الأمير عبد الله الزيري، المسماة بكتاب التبيان. تحقيق ليفي بروفنسال. القاهرة. 1955.
6. ابن التميمي، محيي الدين أبي محمد عبد الواحد المراكشي (ت 647 ه) تاريخ الأندلس، المسمى بالمعجب في تلخيص أخبار المغرب. الطبعة الأولى. القاهرة: المطبعة الجمالية. 1914/1332.
7. ابن حوقل، النصيبي(ت 367ه). صورة الأرض. بيروت 1962.
8. ابن خاقان، الفتح(ت 529 ه). قلائد العقيان في محاسن الأعيان. تونس 1966/1386.مصورة عن طبعة باريس.

9. ابـن الخطيـب، لسـان الـدين(ت 776هـ).الإحاطـة في أخبـار غرناطـة.تحقيق محمـد عبـد الله عنـان. الطبعـة الثانيـة. المجلـدات 1، 2، 3، 4.القاهرة:مكتبـة الخانجي.

10. ابن الخطيب، لسان الدين(ت 776 هـ).أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام. تصحيح ليفي بروفنسال. الجزء الثالث.القسم الثاني.معهد العلوم العليا المغربية. المطبعة الجديدة 1934/1353.

11. ابن الخطيب. تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط. تحقيق احمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني.الدار البيضاء: دار الكتاب.1964.

12. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الخضرمي المغربي(ت 808 هـ).العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. الجزء السادس. بيروت: مؤسسة الاعلمي للمطبوعات. 1971/1391.

13. ابن خلدون. المقدمة. تحقيق حجر عاصي. بيروت: دار مكتبة الهلال.1986.

14. ابن خلكان، أحمد بن محمد بن أبي بكر(ت 681 هـ). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. القاهرة: مطبعة بولاق.1299هـ.

15. ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي (ت 681 هـ) المغرب في أخبار المغرب. تحقيق شوقي ضيف. القاهرة.1964.

16. ابن عبد المنعم، محمد الحميري (ت 990 هـ). الروض المعطار في خبر الأقطار. معجم جغرافي مع فهارس شاملة. تحقيق إحسان عباس. الطبعة الثانية. مكتبة لبنان.1984.

17. ابن عذاري، أبو العباس احمد المراكشي (ت 712 هـ). البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. تعليق إحسان عباس. الطبعة الأولى. الجزء الرابع. بيروت: دار الثقافة.1967.

18. ابن العربي(ت 543 هـ). دليل المغرب.

19. ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحي (ت 1089 هـ). شذرات الذهب في أخبار من ذهب. الجزء الثالث. بيروت: دار المسيرة.

20. ابن عياض، القاضي عياض بن موسى(ت 544 هـ). ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة اعلام مذهب مالك. تحقيق احمد بكير محمود بيروت 1965/1384.

21. ابن القاضي، أبو العباس احمد بن محمد المكناسي(ت 1025 هـ). جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس. مخطوط رقم 1242 .الرباط.

22. ابن الكردبوس، أبو مروان عبد الله التوزري(ت 575 هـ)، الاكتفاء في أخبار الخلفاء. تحقيق احمد مختار العبادي. مدريد: معهد الدراسات الإسلامية.

23. ابن الكردبوس. تاريخ الأندلس ووصفه لابن الشباط. تحقيق احمد مختار العبادي. مدريد. 1971.

24. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الافريقي المصري (ت 711 هـ). لسان العرب. المجلد الثاني. بيروت: دار صادر.

25. الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الحموي الحسان (556 هـ). كتاب الإسعاد لمحبي السفر حول العالم. الطبعة الثانية. نابولي- روما: المعهد الجامعي الشرقي والمعهد الإيطالي للشرق الأوسط والأقصى، ليون: مطبعة بريل. 1987.

26. الإدريسي. المغرب وارض السودان ومصر والمغرب - مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. ليدن: مطبعة بريل. 1894.

27. الجزري، مجد الدين بن الأثير (ت 660 هـ). جامع الأصول في أحاديث الرسول. تحقيق عبد القادر الأرناؤوط. الجزأين الأول والسادس. دمشق. 1389-1392/1969-1972.

28. الذهبي، الحافظ (ت 748 هـ). العبر في أخبار من عبر. تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول. الطبعة الأولى. الجزء الثاني. بيروت: دار الكتب العلمية. 1405/1985.

29. الشنتيري، أبو الحسن علي بن بسام (ت 542 هـ). الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. تحقيق عبد الحميد العبادي وعبد الوهاب عزام. الجزء الثاني. القاهرة. 1358-1361/1939-1942.

30. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت 310 هـ). جامع البيان عن تأويل آي القرآن. تحقيق أحمد ومحمود محمد شاكر. القاهرة. 1957.

31. القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت 821 هـ). مآثر الأناقة في معالم الخلافة. تحقيق عبد الستار أحمد فراج. الجزء الثاني. بيروت: عالم الكتب.

32. مجهول. الاستبصار في عجائب الأمصار. تحقيق سعد زغلول عبد الحميد. الاسكندرية 1958.

33. مجهول. الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية. تونس. 1329 هـ.

34. المراكشي، محيي الدين أبي محمد عبد الواحد بن علي التميمي. تاريخ الأندلس- المعجب في تلخيص أخبار المغرب. الطبعة الأولى. القاهرة: المطبعة الجمالية. 1322/1914.

35.المقري، احمد بن علي التلمساني(ت 1041 هـ). نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى.1949.

36.النويري، شهاب الدين احمد(ت 733 هـ). نهاية الأرب في فنون الأدب..الطبعة الثانية. القاهرة: دار الكتب المصرية.1929.

37.ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله الرومي البغدادي (629 هـ). معجم البلدان. بيروت: دار صادر.1977.

ب) المراجع العربية والمعربة:

1. أداه، محمد ولد. مفهوم الملك في المغرب. من انتصاف القرن الأول إلى انتصاف القرن السابع.دراسة في التاريخ السياسي. بيروت: دار الكتاب اللبناني.القاهرة: دار الكتاب العربي.

2. أدهم، علي. المعتمد بن عباد. بيروت.

3. أرسلان. شكيب. الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية. الطبعة الأولى.الجزء الثالث. القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي.1358 هـ.

4. أشباخ، يوسف. تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين. ترجمة محمد عبد الله عنان.القاهرة:مؤسسة الخانجي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.الطبعة الثانية.

5. بروفنسال، ليفي. حضارة العرب في الأندلس. ترجمة ذوقان قرقوط. بيروت: دار مكتبة الحياة.

6. بوتشيش، إبراهيم القادري.المغرب والأندلس في عصر المرابطين - المجتمع، الذهنيات، الأولياء-.الطبعة الأولى. بيروت: دار الطليعة.1993.

7. البيذق، أبو بكر الصنهاجي. أخبار المهدي بن تومرت. تحقيق ليفي بروفنسال. باريس.1929.

8. بيضون، إبراهيم.الدولة العربية في أسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة 92-422/711-1031.الطبعة الثالثة. بيروت: دار النهضة العربية. 1406/1986.

9. توينبي. آرنولد.الإسلام والغرب والمستقبل. ترجمة نبيل صبحي. بيروت.1389/1969.

10.الحجمي، عبد الرحمن بن علي. تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة 92/897-711-1492. الطبعة الثالثة. بيروت: المنارة. دمشق: دار القلم. 1407/1987.

11.حركات، إبراهيم.المغرب عبر التاريخ.عرض لأحداث المغرب وتطوراته في الميادين السياسية والدينية والاجتماعية والفكرية، منذ ما قبل الإسلام إلى العصر الحاضر. الطبعة الثانية.الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة. الجزء الأول.1405/1984.

12.حسن، إبراهيم حسن. تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي. الطبعة الأولى.الجزء الرابع. بيروت: دار الأندلس، القاهرة: المطبعة المحمدية.1967.

13.حسين، كريم عجيل. الحياة العلمية في مدينة بلنسية الإسلامية. بيروت. 1976.

14.حماده، محمد ماهر.الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمالي أفريقيا 64-897/683-1492. الطبعة الثانية. بيروت: مؤسسة الرسالة. 1406/1986.

15.حموش، عبد الحق.ابن تاشفين. الدار البيضاء: دار الكتاب. مطابع دار الكتاب.

16.حومد، أسعد. محنة العرب في الأندلس. الطبعة الثانية. بيروت. المؤسسة العربية.1988.

17.دوزي، ر. تاريخ مسلمي أسبانيا – الحرب الأهلية–. ترجمة حسن حبشي، الجزء الأول. القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار المعارف.

18.الزركلي، خير الدين. الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. الطبعة الرابعة. الجزء الثامن. بيروت: دار العلم للملايين.1979.

19.السيد عبد العزيز سالم واحمد مختار العبادي. تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس. بيروت.1969.

20.سالم، السيد عبد العزيز. تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس. بيروت: دار المعارف.1962.

21.سالم، السيد عبد العزيز. تاريخ المغرب الكبير.العصر الإسلامي، دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية..الجزء الرابع. بيروت: دار النهضة العربية.1981.

22.السامرائي، خليل إبراهيم. وغيره. تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس.الموصل: وزارة التعليم العالي والبحث العلمي.

23.السامرائي.الجزائر الشرقية في أيام الطوائف.الموصل: مجلة التربية والتعليم، كلية التربية.1979.

24.السامرائي. علاقة المرابطين بالممالك النصرانية بالأندلس وبالدول الإسلامية. رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، كلية الآداب. نشرت سنة 1985.

25.الصفدي، رزق الله منقريوس.تاريخ الإسلام.القاهرة: مطبعة الهلال.1970.

26.الصقلبي، العربي.وغيره.مذكرات من التراث المغربي. 1984.

27.ضيف. شوقي. تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات – الأندلس. القاهرة: دار المعارف.

28. العبادي، احمد مختار في تاريخ المغرب والأندلس.الطبعة الثانية. مكتبة الأنجلو المصرية.1986.

29. العبادي، عبد الحميد. المجمل في تاريخ الأندلس. مراجعة أحمد إبراهيم الشريف ومختار العبادي. الطبعة الأولى. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، مطبعة السعادة.1958.

30. عباس، إحسان. تاريخ الأدب الأندلسي - عصر الطوائف والمرابطين - بيروت: دار الثقافة، المكتبة الأندلسية.

31. عبد العزيز، بن عبد الله. الفكر العلمي ومنهجية البحث عند علماء المغرب.مجلة الدارة.العدد الثالث، مارس 1980.

32. عنان، محمد عبد الله. تراجم إسلامية وأندلسية.الطبعة الثانية. القاهرة: مكتبة الخانجي.1969.

33. عنان. دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي. الطبعة الثانية. القاهرة: مكتبة الخانجي.1969.

34. عنان.عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس. الجزء الثاني. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر.1964.

35. عنان. نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين. الطبعة الثانية. مطبعة مصر. 1958/1378.

36. غوتيه، إميل فيلكس. ماضي شمال أفريقيا. ترجمة هاشم الحسيني. طرابلس الغرب.1970.

37. كنون، عبد الله.المدخل.مدريد.1958/1378.

38. لوتورنو، روجيه. فاس في عصر بني مرين. ترجمة نقولا زيادة. بيروت: مؤسسة فرنكلين، مكتبة لبنان.1967.

39. مؤنس، حسين.معالم تاريخ المغرب والأندلس. الطبعة الأولى.القاهرة: دار مطابع المستقبل. 1980.

40. محمود، حسن احمد.قيام دولة المرابطين.القاهرة.1957.

41. محمود. وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين. مدريد: صحيفة معهد الدراسات الإسلامية. مجلد 7، العددان الأول والثاني،1959.

42. مكي، محمود علي. وثائق تاريخية جديدة. مدريد.1959- 1960.

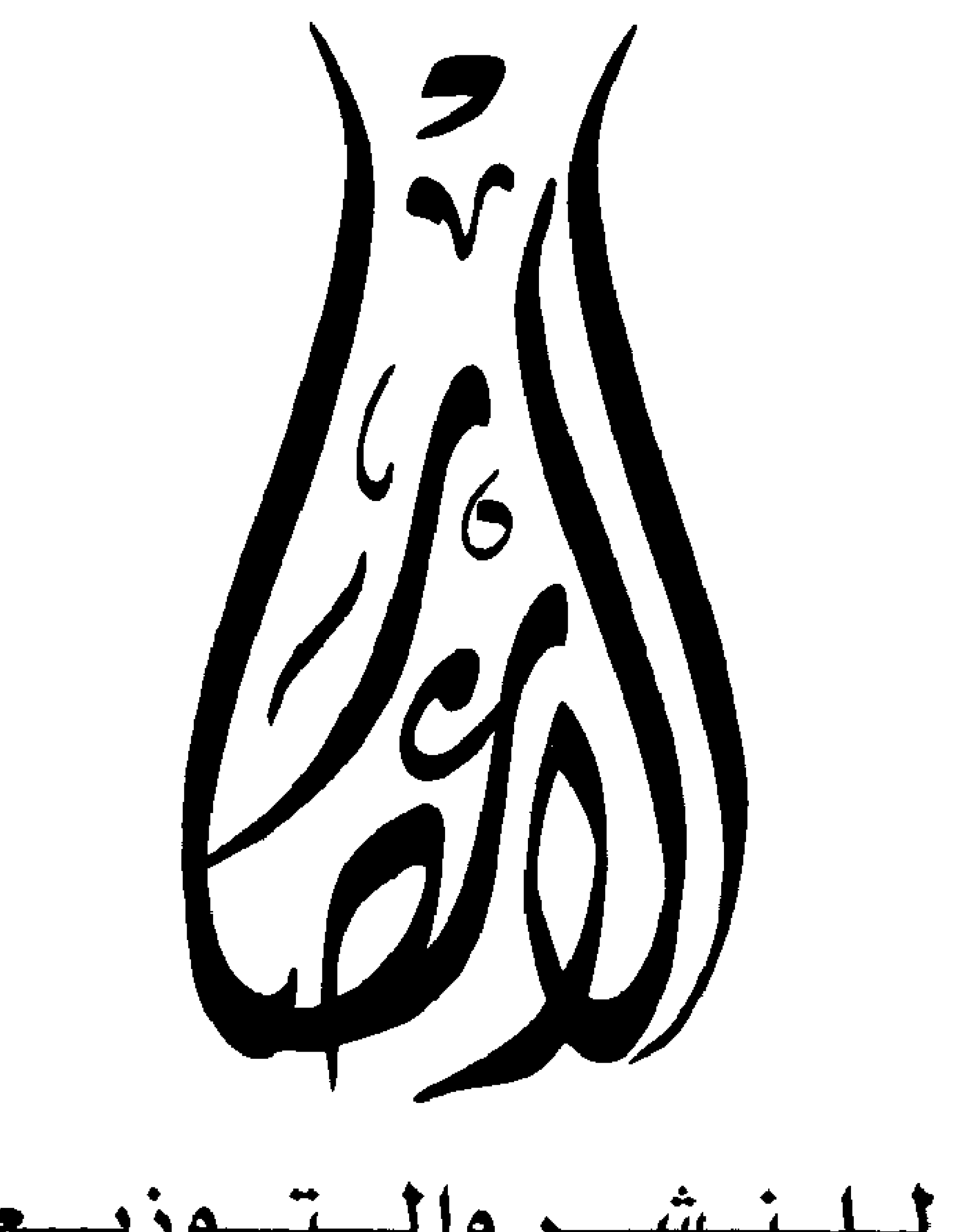
43. مورينو، نويل جوميث.الفن الإسلامي في أسبانيا. ترجمة لطفي عبد البديع وعبد العزيز سالم.الدار العربية للتأليف والترجمة.

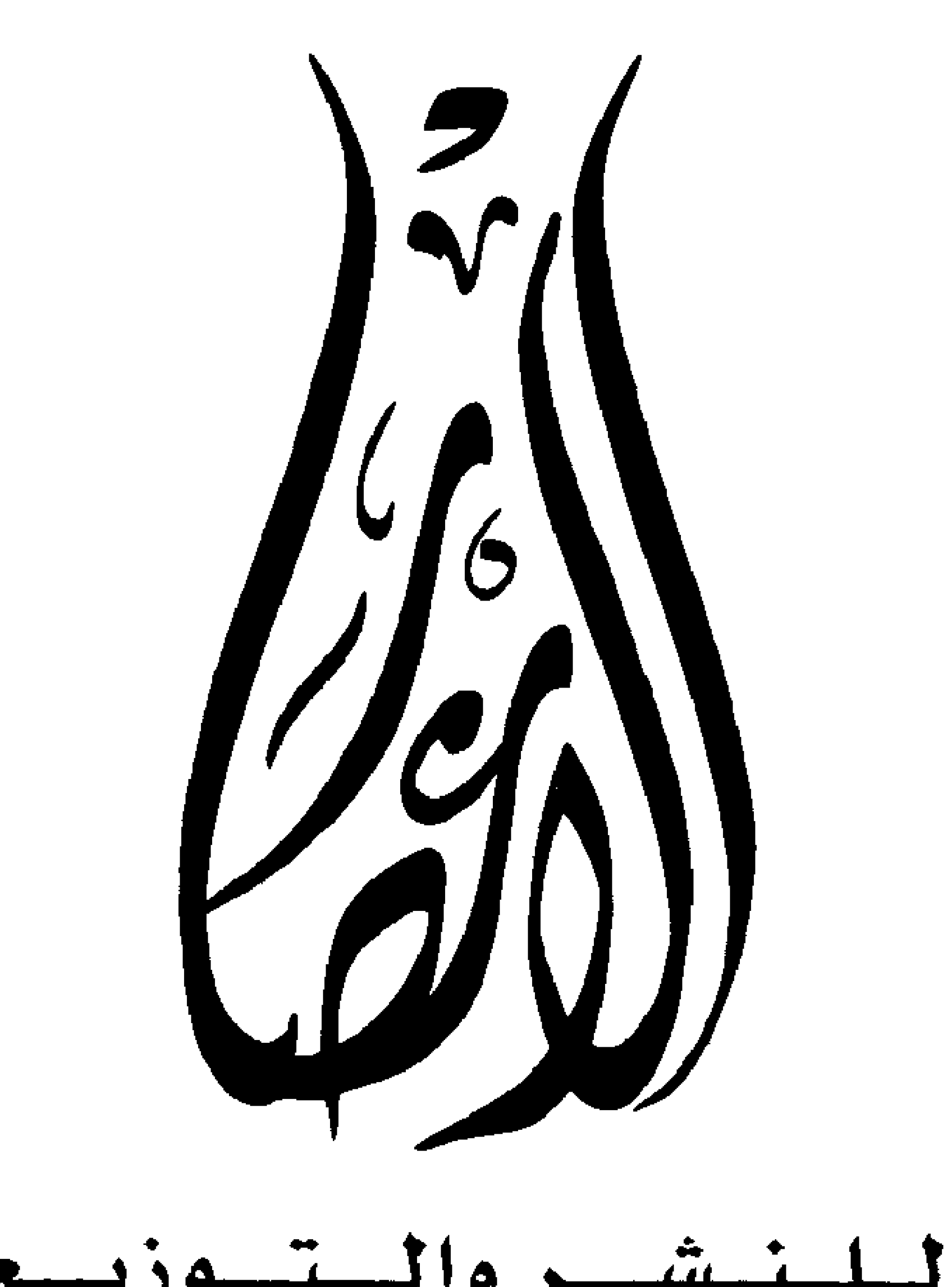
44. الناصري السلاوي، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن خالد.الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى.تحقيق ولدي المؤلف جعفر ومحمد. الجزء الثاني.الدار البيضاء. 1954.

45. الهريفي، سلامة محمد سليمان.دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين، دراسة سياسية وحضارية.

ج) المصادر الأجنبية:

1. Bel.First Encyclopaedia of Islam.Vol.1, 318-320.
2. Charles-Andre Julien.Histoire de I afrique du nord.Paris, 1986, p, 81-86.
3. jacques, Boudet.Mourre, Dictionnaire, encyclopedique, d histoire,Paris, 1986.
4. Encyclopaedia Universalis. Rodinson, Maxime. P, 944.


للنشر والتوزيع


للنشر والتوزيع

يوسف بن تاشفين

والأندلس


Bibliotheca Alexandrina
1503928


9 789957 980573



الأردن - عمان - وسط البلد - ش. الملك حسين - مجمع الفحيص التجاري
هاتف : 96264646208+ فاكس : 96264646470+

الأردن - عمان - مرج الحمام - شارع الكنيسة - مقابل كلية القدس
هاتف : 96265713906+ فاكس : 96265713907+
جوال : 00962-797896091

info@al-esar.com - www.al-esar.com

 دار الاعصار العلمي